الجمهوريّــــة الجزائريّــــة الدّيمقراطيّــــة الشّعبيّــــة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد * تلمسان *

كلّية العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعية

قسم التّاريخ وعلم الآثار

شعبة التاريخ

تخصّص:تاريخ حضارة المغرب الإسلامي

أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون
(الدولة الموحدية نموذجا من سنة 510هـ-1116م إلى سنة 558هـ-1163م)

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي

من إعداد الطالب:	إشراف الدكتور:
شواكري منير	مكيوي محمد

لجنة المناقشة:

أ.د عبدلي لخضر	أستاذ التعليم العالي	تلمسان	رئيسا
د. محمد مكيوي	أستاذ محاضر. أ	تلمسان	مشرفا ومقررا
د. نصر الدين بن داود	أستاذ محاضر. أ	تلمسان	عضوا مناقشا
د. حياة ثابتي	أستاذة محاضرة. ب	تلمسان	عضوا مناقشا

السّنة الجامعيّة: 1434 -1435هـ/2013-2014م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر للأستاذ مكيوي محمد لإشرافه علـــى هــذه المــذكرة وعلـــى كــل مـــا أفادني به من توجيهات ونصائح ليس أثنـــاء إنجـــازي لهـــذا العمـــل فحســـب, بـــل خلال كل مشواري الدراسي, وأتوق للمزيد إن شاء الله.

كما أتوجه بالشكر إلى كل أساتذتي بالكلية, وكـــل مـــن ســـاعدني فـــي عملـــي مـــن قريب أو بعيد والله لا يضيع أجر المحسنين.

دون أن أنسى الجمعية الموحدية بندرومة ورئيسها السيد عـــز الـــدين ميـــدون الـــذي استقبلني بحرارة ولم يبخل علي بالمعونة, فجـــزاه الله هـــو والقـــائمين علـــى الجمعيـــة كل جزاء .

إهداء

إلى:

- الوالدين الكريمين حفظهما الله تعالى
- الزوجة وأبنائي رجاء وأسامة حفظهم الله
- إخوتي وأخواتي وكل أهلي
- كل زملائي في الدراسة والعمل

مقـــــــــــــــدمة

شهد المغرب الإسلامي قيام دول مستقلة على أرضه منذ بداية القرن الثاني الهجري , وكان تحول نظام الحكم بالمشرق أثر بالغ في ذلك.

كانت الزعامة في تلك الدول – إذا استثنينا دولة بني مدرار الصفرية البربرية – بيد دعاة من المشرق, لكن هؤلاء الدعاة ارتكزوا في دعوتهم المناوئة للحكم المركزي في المشرق على عصبيات بربرية مكنت لهم ذلك, ثم عرفت المنطقة تحول آخر جذري وهو انتقال الحكم من يد العرب إلى يد البربر, ونقصد بذلك انتقال الحكم إلى قبائل صنهاجة الشمال(الزيريين) وكان هذا بداية لسيطرة البربر على أرض المغرب.

كان الانتقال الفعلي للحكم إلى البربر يوم زحف العبيديّون الشيعة إلى مصر لانتزاع الخلافة من يد العباسيين (أو ما يعرف عند الشيعة بأحقية أهل البيت في الخلافة), فتركوا خلفاء لهم في بلاد المغرب الإسلامي وهم آل زيري الصنهاجيون والذين انشقّ منهم آل حمّاد, حكم الزيريّون والحماديّون المغربين الأدنى والأوسط في حين حكم فرع آخر من صنهاجة وهم أصحاب اللثام (المرابطون) الجهة الغربية لبلاد المغرب الإسلامي.

تعتبر الدولة الموحدية واحدة من تلك الدول البربرية التي قامت على أيدي البربر خالصة, وتمكنت هذه الدولة من توحيد بلاد المغرب والأندلس لأول مرّة منذ عصر الولاة.

شهدت الدولة ازدهارا فكريا كبيرا على عهد عبد المؤمن بن علي وأبنائه بفضل الإصلاحات التي أدخلوها, ومن أهمها فتح المجال أمام أهل الفكر في مختلف العلوم, فحافظوا على ما اختاروه من علوم, كما شجّعوا كثيرا من العلوم التي لم تكن معروفة أو كانت محظورة على عهد سابقيهم.

فأسسوا المدارس وعمروا المعاهد وجلبوا كبار العلماء وعقدوا المناظرات وجمعوا المجاميع العلمية المتنوعة, فأصبحت بلاد المغرب على عهدهم قبلة للعلماء ومحفلا للعلوم. وكانت هذه سنّة احتذى بها من جاء بعدهم .

نتيجة لذلك شهدت المنطقة حركة نشيطة للعلماء والرّحالة والمؤرخين الذين كان لهم الفضل في التعريف بها سياسيا واجتماعيا وثقافيا, ومن هؤلاء العلماء والمؤرخين العلامة عبد الرحمن بن خلدون, المؤرّخ والسياسي والصوفي الذي وضع عصارة علمه وتجربته في مقدمة كتابه المشهور –بالعبر–والتي تعتبر أهم أجزائه وضع فيها علمه الجديد الذي سماه علم العمران البشري, وهو عبارة عن مجموعة من النظريات التي تصبّ أساسا في مفهوم الدولة في العصر الوسيط, فتكلم ابن خلدون في كتابه عن العمران البشري بأشكاله وأصنافه ضاربا أمثلة كلما تسنّت له الفرصة بدول

من المشرق أو المغرب أو الأندلس, حيث كان هو نفسه ثمرة من ثمرات الحركة الفكرية التي عرفتها المنطقة أيام الموحدين وبعدهم.

انطلاقا من كل ما ذكرناه ارتأينا إسقاط نظريته في تأسيس الدولة (المرحلة الأولى) على دولة الموحدين دراسة وتحليلا. وعليه جاءت هذه الدراسة تحت عنوان :

أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون(الدولة الموحدية نموذجا: من سنة 510ه/1116م إلى سنة 558ه/1163م)

أسباب اختيار الموضوع :

نجد أن القارئ في كتب التاريخ تستوقفه أماكن أو شخصيات أو حتى معارك وأحداث تمر في صفحات تلك الكتب, يتشوق لمعرفة خصائصها وحيثياتها بالتفصيل, فحريّ به أن يغتنم الفرص كلما أتيحت له للبحث في انشغالاته وهذا كما هو معلوم من أهم الأسباب التي تمكنه من الاستفادة لنفسه وإفادة غيره.

أما بالنسبة لي فلطالما تساءلت عن شخصية عبد الرحمن بن خلدون إجلالا لها من جهة وارتباكا منها لما ينقل عن مؤلفاتها من غموض أحيانا أخرى. وأهم ما يستوقف القارئ لكتب هذا العلامة كتابه المقدّمة الذي بلغ صيتا كبيرا في الغرب قبل العرب والمسلمين.

ومن هنا جاءت فكرة البحث في هذا المؤلّف وإسقاط ما جاء فيه على الدولة الموحدية كتطبيق للنظرية على الواقع.

أهمية الموضوع:

كان المغرب الإسلامي على عهد عبد الرحمن في تمزّق بعد اجتماع وضعف بعد قوّة, بمعنى آخر بدأت فكرة الدولة تختفي تدريجيا بفعل الصراعات الشبه الدائمة في المنطقة, وهذا ما خلق في نفسه جوا من الأسى عن الماضي المجيد, وكانت لرحلته الطويلة في طلب العلم وطلب المنصب الدور الكبير في وصوله إلى هذه الحقيقة, وبالتالي نجده يضع نظريته الفريدة في العمران البشري.

يحاول عبد الرحمن أن يبيّن حقيقة حضارية هامة ألا وهي تأسيس الدولة, فبدون دولة لا يقوم العمران وبالتالي تختزل كل أسس الحضارة تبعا لذلك.

لكن الدولة التي عالجها ابن خلدون تواجه مصيرا محتوما وهو السقوط بسبب عوامل مختلفة, بمعنى آخر كيف يمكن للدولة أن تقوم دون أن يبنى عامل سقوطها منذ تأسيسها, وهذا الذي تركه لنا عبد الرحمن كمعضلة تنتظر الحل', فبادر الغرب بحلّها و بقينا نحن وراء الركب.

الإطار الزماني والمكاني:

فيما يخص النظرية فإطارها الزماني يشمل الفترة الأولى لتأسيس الدولة, أي بداية الدعوة أو حركة التغيير إلى نهاية الطور الأول من التأسيس الذي لا يتجاوز في الغالب الأربعين سنة, لكن وبما أن النظرية تبحث في الحركة الدائرية التي تسير وفقها الدولة(البناء,التوسع, السقوط, ثم البناء التوسع السقوط, وهكذا دواليك), أوجزنا تلك المراحل الثلاثة نظريا بغرض فهمها.

أما النطاق الجغرافي للنظرية فهو يبدأ من حيّز القبيلة الجغرافي ويتوسّع بتوسّعها على الأراضي المجاورة داخل بلاد المغرب الإسلامي, لكن ما لبث أن تَوَسَّع إلى كل البلاد التي لها تشابه في نحلة المعاش, أي أهل البدو المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح, والقيام على الأنعام والمقتصرين على الضروري من الأقوات والملابس و المساكن.

أما فيما يخص الجانب العملي للنظرية فقد قمنا بإسقاطها على الدولة الموحدية في مرحلة تأسيسها أي من بداية الدعوة حوالي سنة 510ه-1116م ويمثل تاريخ رجوع المهدي إلى المغرب, إلى سنة 558ه-1163م تاريخ وفاة عبد المؤمن بن علي.

أما الإطار الجغرافي فهو بلاد المغرب الإسلامي التي وحّدها الموحدون بعد أن كانت متفرّقة.

إشكالية الموضوع:

عاشت بلاد المغرب الإسلامي فترة طويلة من تاريخها الوسيط متخبطة في صراعات سياسية ودينية شبه متواصلة, وكان للدعوة الدينية من جهة والعصبية القبلية من جهة أخرى الدور الفعّال في مجريات أحداثها, ورغم ذلك تأسست دول تمكنت من الإضافة إلى الموروث الحضاري للأمة الإسلامية بل ساعدت في صون هذا الموروث.

تبعا لذلك يمكن طرح الإشكالية العامة التالية:

ما هو مفهوم الدولة عند ابن خلدون ؟ أهو نتاج حضاري أم صراع سياسي؟وما موقع الدولة الموحدية من هذا المفهوم.

تتفرّع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات:

1- ما هو الأساس الذي بنى عليه ابن خلدون نظريته؟وهل كان وحيدا في طرحه؟

2- ما هو الواقع السياسي الذي عاش فيه أو قريبا منه عبد الرحمن؟ وهل كانت لشخصيته ومسيرة حياته دورا في هذا الإنجاز؟ وما هي أهم المفاهيم التي تجلّت عنده والتي تصبّ في مسألة ثبات الاجتماع الإنساني واستمراريته؟

3- بداية الدولة في المجتمعات التي يدرسها ابن خلدون تنطلق من النواة الأولى للمجتمع وهي القبيلة, فما هو دور القبيلة في مشوار تأسيس الدولة وما هو المحرّك الرئيسي الذي يرقى بجماعة من الناس تعيش بعيدا عن الحواضر إلى المطالبة بالملك؟

4- تأسست دول على أكتاف قبائل متوسّطة القوّة مقارنة مع القبائل المجاورة لها, فكيف تمكنت من ذلك؟ وما هي الوسيلة التي رفعت من شأنها وأظهرتها على باقي القبائل الأخرى؟

5- كيف تمكنت قبيلة مصمودة من انتزاع الملك وهي بين قبيلتين قويتين زناتة البترية وصنهاجة البرنسية ؟

المنهج المتّبع:

انتهجنا في دراستنا هذه المنهج التاريخي بما يحتويه من وصف للأحداث التاريخية وتحليل لها, محاولين أن نقف على حقيقتها قدر الإمكان, وذلك من خلال تعقيبنا على بعضها في التهميش بأقوال المؤرّخين وتحليلاتهم أو متبعين منهج الشك فيما هو ظنّي ونسبي وآخذين بما هو منطقي عقلاني .

كما أننا وفي بعض الأحيان استعنا بأدوات الاستقراء والاستنباط خاصة في بعض الحوادث التي وجدنا فيها اختلافا ظاهرا في الروايات, فقمنا بذكر الحادثة باختلاف الرواية فيها ثم عقبنا عليها وفق فهمنا لها.

لكن نشير إلى أن كل نظرية لها نقد, لذا ارتأينا في بحثنا هذا أن نزاوج بين تحليل النظرية ونقدها في نفس الوقت, وذلك لأن إرجاء نقد النظرية إلى آخر البحث يوقعنا في مغبّة الخلط وعدم الفائدة.

الخطة المتبعة لتحقيق هدف البحث:

للإجابة على هذه التساؤلات اعتمدنا خطة بحث تتضمن ما يلي: مدخل , مقدمة, ثلاثة فصول.

مدخل: حاولنا أن نعرّف من خلاله بمنهج ابن خلدون في البحث التاريخي, ومقارنته مع غيره من المناهج.

الفصل الأول:حاولنا إلقاء نظرة عامة على الأحوال السياسية التي أحاطت بحياة عبد الرحمن بن خلدون ومسيرة حياته, وما وصل إليه من مفاهيم حول الدولة ومقوّماتها في العصر الوسيط.

الفصل الثاني: ألقينا الضوء على أصل أساسي في نظرية ابن خلدون في العمران البشري, وهو دور العصبية القبلية في تأسيس الدول بشكل عام والدولة الموحدية بشكل خاص.

الفصل الثالث: تطرقنا إلى أصل ثاني لا يقل أهمية في قيام الدول وهو الدّين أو الدعوة الدينية, كيف تفاعلت مع العصبية وتآزرت معها لقيام الدول عامة, والدولة الموحدية على وجه التحديد.

الخاتمة: وتتضمن استخلاص النتائج والإجابة على التساؤلات.

واعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع نذكر منها:

المصـــــــــــــــــــادر:

- **كتاب رحلة بن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون:** عارضها بأصولها و علقعلى حواشيها, محمد بن تاويت الطنجي, وهو الفصل الأخير من الجزء السابع لمؤلفه تاريخ ابن خلدون, نجد فيه تحليلا دقيقا لبيت ابن خلدون وحياته التعليمية ورحلاته, بالإضافة إلى المناصب العليا في الدولة التي شغلها, ولا يعتبر هذا الجزء ترجمة لحياته فحسب بل مرجعا رئيسيا في تاريخ تلك الفترة, حيث انه يفيدنا بنظرة عامة عن الأحوال السياسية لبلاد المغرب والأندلس.وهو الذي ألهمنا بأن نلقي نحن كذلك نظرة عامة على عصر ابن خلدون على الأقل من الجانب السياسي.
- **مقدمة ابن خلدون:** وهو الكتاب الأول من تاريخه الكبير (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر), جاء في هذا الكتاب تحليل دقيق لما يعرف بالعمران البشري, فهو عبارة عن عصارة فكر ابن خلدون وخلاصته العامة حول أصل نشوء وتطور وسقوط الدول وكل ما يلازم ذلك من العلوم والصناعات وكل ما يؤثر فيها من تضاريس ومناخ.
- **كتاب تاريخ ابن خلدون, المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر, والمعروف كذلك بالعبر, الأجزاء الثاني والرابع والسادس و السابع** والذي أخذنا منه كل ما يتعلّق بالدول التي تطرقنا إليها في بحثنا, وفيه تأصيل قيّم حول القبائل والأنساب, فهو مرجع هام حول التاريخ العام وقد إستعناّ به كثيرا في كل خطوات البحث , وبالخصوص الدولة الموحدية ,إلاّ أنه يعاب عليه عدم تقيّده بالنظرية التي وضعها في كتابته للتاريخ.
- **أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين:** للبيدق أبي بكر بن علي الصنهاجي: وهو كتاب لا يمكن التغافل عنه كونه يتتبع فيه رحلة المهدي بن تومرت منذ بدايتها, ذكر فيه الأحداث من منطلق أنه كان مشاركا فيها وهو الذي كان من صحابته والمرافقين له في رحلته, لكنه ذكر الأحداث بذاتية واضحة وهذا أمر طبيعي كونه كان جزءا من الدعوة, لكنّه شرح لنا مسيرة المهدي بطريقة واضحة ويعتبر مصدرا أساسيا لمسيرة المهدي.

- **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب** للبيدق , كان لنا سندا فيما يخص القبائل الذين دخلوا تحت دعوة المهدي حيث عدّد أفخاذها.

-**نظم الجمان لابن القطّان المراكشي:** (الابن) وليس الأب , لأن الكتاب وصل في تأريخه إلى فترة خلافة المرتضى الموحدي الذي ولي الخلافة مابين (646ه-665ه الموافق ل 1148م-1266م)ّ, في حين ابن القطّان الأب عاش ما بين (562ه-628ه الموافق ل1167م-1231م) أي قبل حوالي عشرين سنة, حيث أن ليفي بروفنسال نسب للأب كتاب نظم الجمان خطأً, هذا الكتاب تتبع دعوة المهدي وحركته من أجل إسقاط المرابطين.وهو كذلك من الكتب المعتمدة من قبل مؤرخي هذه الفترة .

- بالإضافة إلى كتابين هامين وهما **البيان المغرب و المعجب في تلخيص أخبار المغرب** لابن عذارى وعبد الواحد المراكشيين على التوالي, وهذين الكتابين فيهما تاريخ الدولة الموحدية بالتفصيل كون كاتبيهما عاشا تحت ضلّها في فترة شيخوختها.

فأما البيان فقد أرخ صاحبه حتى فترة 667ه- 1268م, واعتمد على الروايات المسموعة والمشاهدة في أواخر عهد الدولة كما انه جاء متمما لكتاب المن بالإمامة مثله مثل كتاب الجمان, فجاء بمجموعة من الوثائق الموحدية ومراسلاتهم, فتوفرت مجموعة من المعلومات السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية في كتابه

كذلك المعجب الذي ألفه صاحبه بالمشرق فكان محايدا في روايته, واختص أكثر بالنظام الموحدي السياسي على وجه الخصوص لكن يعاب عليه اعتماده على ذاكرته مما أوقع مروياته في بعض الارتباك مع ما ألفه معاصروه.

- كما أننا وتفاديا من الوقوع في الاعتماد على مصادر توصف بالذاتية في الغالب أثناء معالجتها للأحداث, إستعنّا بكتب أخرى مثل : **كتاب الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس** لابن أبي الزرع الفاسي, كذلك **الحلل الموشية** لابن الخطيب, كذلك **الكامل في التاريخ** لابن الأثير, للتأكد من الروايات وذكر ما أغفل منها.

- كتاب **الحلل الموشية** لذي الوزارتين لسان الدّين بن الخطيب: والذي ورغم اختصاره للأخبار إلاّ أننا وجدنا فيه ضالتنا خاصة في بعض الأخبار الدقيقة حول رحلة ودعوة المهدي بن تومرت.

المراجـــــــــــــــــع:

- أما فيما يخص المراجع فاعتمدنا على مراجع عديدة تحلّل نظرية ابن خلدون لكن أهمها حسب رأينا هي:

عابد الجابري محمد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,كذلك ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ودراجي بوزيان :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية.

تفرّد الجابري بتحليله لنظرية بن خلدون بطريقة تظهر أنها معقّدة للوهلة الأولى, إلاّ أن القارئ لكتابه هذا وبعد فترة من الزمن مع بعض من الصبر يستطيع أن يفهم جوهر النظرية وذلك نتيجة الطريقة التي طرح من خلالها تحليله بحيث تتكون لديك في آخر المطاف فكرة متكاملة عن العمران البشري, لكن الجديد في الأمر أنه يحاول أن يشرح الخفي من مفهوم ابن خلدون للعمران.

كذلك نجد أن ساطع الحصري تمكن وبطريقة بسيطة من أن يشرح لنا نظرية عبد الرحمن, فكان مرجعا متكررا في بحوث غيره ممن بحثوا هذا الموضوع.

أفادنا مؤلف بوزيان دراجي كثيرا في تبسيط النظرية كما انه اعتمد في تفسيره على مراجع من أهمها مرجع الجابري وساطع الحصري, وكان أسلوبه بسيطا غير متكلّف في الشرح فتجده يضع مقاطع طويلة من النظرية دون شرحها كونها واضحة كفاية بل كان يتكفّل هو بربط الأفكار لتسهيل الفهم للقارئ.

من بين الرسائل الجامعية و الدوريات أذكر:

مصطلحات العمران في مقدمة ابن خلدون, وهي مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الترجمة والتي كانت الإفادة منها خاصة في التعريف بمصطلحات العمران البشري.

كذلك مذكرة دكتوراه بن داود نصر الدين بيوتات العلماء بتلمسان, والتي ساعدتني في التعريف ببعض الشخصيات التلمسانية التي عاصرت عبد الرحمن بن خلدون.

أما الدوريات فكان أهمها الدورية التي تصدرها جمعية الموحدية و التي تتوفر على مجموعة من المقالات التي تبحث في الشأن الموحدي, و التي تعتبر من البحوث الجديدة في هذا المجال.

كذلك بعض الندوات العلمية التي بحثت في فكر ابن خلدون, بالإضافة إلى مصادر أخرى لا يتسع المقام لذكرها كان استعمالها حسب الحاجة.

صعوبات البحث:

لا يخلو أي بحث من عقبات تعترضه سواء كانت في صميمه أو متعلّقة بشخص الباحث ومحيطه الاجتماعي, ولعلّ من أهم هذه الصعوبات هو إشكالية فهم مقدمة بن خلدون من المُؤلَّف نفسه أو

محاولة فهمها مما كتب حولها من مؤلّفات, فإذا ذهبت لتفهم الموضوع من المصدر عرّضت نفسك لاحتمالية تأويله الخاطئ, وإذا ذهبت لتبحث فيه مما أُتِيح لك من مراجع مساعدة ربّما أصابك شيء من الذاتية فاخترت أول مرجع يبسّط عليك المسألة.

كذلك عدم توفر مراجع حاولت إسقاط النظرية على واقع الدول وهذا ما جعلني أجتهد قدر المستطاع في محاولة تفسير التاريخ العام للدولة الموحدية الموجود في بطون الكتب وفق نظرية العمران لابن خلدون.

اعتمدنا على طريقة عزل الفكرة الأصلية ومحاولة فهمها دون الرجوع إلى ما كتب عنها, ثم وبعد ذلك نرجع إلى المراجع لنقارن ما توصلنا إليه مع ما كُتِب, وبالتالي يمكن أن يتوضّح لدينا المراد من الفكرة.

لكن وكما قال أحد المتبحرين في الفكر الخلدوني, أنه قرأ المقدمة لمدّة تزيد عن العشر سنوات لكنه دائما يشعر بالجديد فيها وربّما بعدم فهمها كما أرادها صاحبها.

نرجو من الله أن نكون قد وفقنا في محاولتنا هذه ولو في إرساء سنّة الخوض في كتابات عبد الرّحمن وأمثاله من علماء المغرب الإسلامي خاصة والإسلام عامة ومحاولة فهمها على الأقل, دون ذكرها أو الإشارة إليها فحسب, ونشيد بأساتذتنا الكرام بكلية العلوم الاجتماعية جامعة تلمسان وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور مكيوي محمد على توجيهاتهم وصبرهم معنا.

بالله نستعين وعليه نتوكّل

أولاد ميمون 12 محرم 1435 الموافق ل 15 ديسمبر 2013

شواكـــــــري منيـــــــر

مدخل

ابن خلدون ومنهجه الجديد في البحث التاريخي

- أولا – منهج البحث في التاريخ قبل ابن خلدون
- ثانيا– ابن خلدون ومنهجه في كتابة التاريخ
- ثالثا – نظرية ابن خلدون في نشوء الدولة

عبّر الإنسان منذ القدم عن رغبته في الاجتماع مع بني جنسه,وذلك لِما كان يَعْتريه من الأخطار(حيوانات مفترسة, مناخ متقلب, صراع البقاء,...الخ), وقد اهتدى إلى سُبُل الاجتماع تلك فبدأ بتأسيس مجتمعات صغيرة تقوم على مبدأ المشاركة في المنفعة.

لذلك تراكم لدى الذاكرة البشرية مجموعة من المفاهيم حول مختلف أشكال الحياة, توارثوها جيلا عن جيل, وفي فترات معيّنة ظهر في هذه المجتمعات رجال أَعَملُوا عقولهم في سرّ الحياة, وأَلَّفُوا في ذلك مؤلفات أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفرابي وغيرهم.

إلاّ أن الأوائل من المفكرين اعتمدوا أكثر على الفلسفة[1]في تفسير تلك الظواهر التي تحيط بهم, والتي عرفت فيما بعد بالظواهر الاجتماعية[2], وهذا ما جعلهم يحيدون كثيرا عن الحقيقة, بحيث اعتمدوا على مجرد النقل غثّا أو سمينا[3],كما وضّح ذلك ابن خلدون من حيث أنهم لم يَتَحَروا الصحيح من الكذب, ودخل في مَرْوِيَّاتِهم كمٌّ هائل من الأساطير[4].

ثم جاء عصر *عبد الرحمن بن خلدون الذي* أتى بعلمه الجديد في دراسة التاريخ, وهو ما سماه بعلم العمران البشري[5].

([1]) كانت سبيلهم الوحيد المتاح في تلك الفترة من التاريخ, حيث لم تكن العلوم التجريبية أو ما كانت تعرف بالعلوم الوضعية معروفة بعد, ولهذا تعتبر الفلسفة من أقدم العلوم أو أم العلوم كما يقال.

([2]) الظواهر الاجتماعية: هو تعبير واسع وجامع للاجتماع الإنساني وهو مصطلح حديث, والذي هو عمران العالم كما جاء عند ابن خلدون حيث قال " اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم, وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال, مثل التوحّش والتأنس والعصبيّات وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض, وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها, وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم, والصنائع, وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال", ينظر:**عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون, اعتنى به: شيخ مصطفى, مؤسسة الرسالة ناشرون, سوريا, ط1 2012ه–1433م, ص.45.**إذا تَمَعَّنْت في هذا التعريف وَجَدتَه يجمع **مصطفى** موضوعات كتاب المقدمة

([3]) **عبد الرحمن بن خلدون, نفسه, ص:17**

([4]) أعطى عبد الرحمن وصفا لأصناف المؤرخين الذين هم على هذه الشاكلة, أنظر **المقدمة, ص9–12**

([5])حيث قال:" فأنشأت في التاريخ كتابا, رفعت به أحوال الناشئة من الأجيال حجابا, وفصّلته في الأخبار والاعتبار بابا, وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا, وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار, وملئوا أكناف الضواحي منه والأمصار, وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار, ومن سلف من الملوك والأنصار, وهم العرب والبربر, إذ هما الجيلان اللّذان عرف بالمغرب مأواهما,......., فهذّبت منَاحيَه تَهذيبًا, وقرّبته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا, وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا, واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً, وطريقة مبتدعة وأسلوباً, وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدّن, وما يعرض في الاجتماع الإنسانيّ من العوارض الذاتيّة ما يمتعك بِعِلَلِ الكَوَائِنْ وأسبابها, ويعرّفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها, حتى تنزع من التقليد يدك, وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك"

. عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون, ص12

يحاول ابن خلدون أن يعالج ما عرف بالظواهر الاجتماعية[6] (phénomènes sociales)[7] لكن بتسمية أخرى,مثل العمران البشري, أحوال الاجتماع الإنساني, وأحيانا مجرّد العمران.

هناك من عرفها (أي الظاهرة التاريخية) بأنها حالة تنشأ في مجتمع معين وفي زمان ومكان معينين, وهي تتكون أو تتشكل من مجموعة عوامل مترابطة ومتداخلة, مثل: الحرب, تتداخل فيها عوامل كثيرة:اجتماعية- اقتصادية- دينية-سياسية-عرقية[8].

يلاحظ القارئ للمقدمة أن ابن خلدون اتجه في دراسته للعمران البشري نحو مبدأ الشمولية والوحدة,ويتجلى ذلك في منهجه الذي انتهجه في أبواب وفصول مقدمته حيث أنها متكاملة ومترابطة, فكل باب أو فصل يكمل الذي قبله ويُقَدِّم لِلَّذي بعده والسؤال الذي يفرض نفسه علينا : إلى أي مدى كان تداول هذا المنهج قبل عبد الرحمن؟ وما هو جديد العلامة في العمران البشري؟وهذا ما نسعى إلى بحثه فيما يأتي.

أولا- منهج البحث في التاريخ قبل ابن خلدون:

إنتهج الباحثون قبل ابن خلدون طرق تختلف عن طرق علماء العلوم التجريبية(الفلك والرياضيات ..الخ), بحيث لم يُخْضِعوا الظواهر الاجتماعية إلى التجربة ومن ثَمَّ يُخضعوها إلى قوانين تحكمها, فرصدنا ثلاثة طرق هي[9]:

1- الطريقة التاريخية الخالصة:تقتصر على وصف الظواهر, دون استخلاص العبر والتحليلات, بحيث عَرَّج مؤرخو ذلك الزمان على نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية, وصفوها كما وصفوا الشعوب الذين كانوا يدرسون أحوالهم, وكان هذا دَيْدَنُ حتى الّذين اختصوا بدراسة الظواهر الاجتماعية على معزل من التاريخ العام, كابن حزم[10] في دراسته للملل والنحل[11].

---

(6)الظواهر الاجتماعية هي (عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التي يتخذها أفراد مجتمع ما أساسا لتنظيم شؤونهم الجماعية, وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض والتي تربطهم بغيرهم)**علي عبد الواحد وافي:عبقريات ابن خلدون, شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع, المملكة العربية السعودية, ط2, 1404ه-1984م,ص.203**

(7)عبارة العمران عند ابن خلدون تعني المشاكل الديموغرافية والاقتصادية, كذلك النشاطات الاجتماعية السياسية الثقافية, وهذا ما يعني مجموع الظواهر الاجتماعية.

Yves Lacoste : Ibn Khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde,Librairie François Maspero, Cinquième édition, Paris1980 , p 125

(8)**محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى(دراسة نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ), مكتبة الفقيه, لبنان,ط1 , 1416ه-1996م, ص18-20.**

(9) ينظر حول هذه الطرق:**علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون,, ص. 210-211**

(10)هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد في قرطبة **384ه-994م** في بيت جاه وترف وثروة و سلطان,أصله فارسي كان أبوه وزيرا للحاجب المنصور بن أبي عامر المستبد بالحكم في الأندلس, تعرّض آل حزم لفتن كثيرة بعد وفاة ابن أبي عامر ,فانتقل ابن حزم إلى شاطبة,له تآليف كثيرة ينظر ترجمته عند:**محمد أبو زهرة :ابن حزم, حياته و عصره,آراؤه و فقهه,دار الفكر العربي, القاهرة 1398ه-**

2- طريقة الدعوة إلى المبادئ: التي تُقرِّرها الظواهر الاجتماعية, ومعتقدات الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي, وذلك ببيان محاسنها وترغيب الناس فيها, وحثهم على التمسّك بها وعدم مخالفتها, هذه الطريقة التي سلكها علماء الدّين والخطابة والأخلاق وحتى بعض من كتبوا في شؤون الملك والسياسة, كابن مسكويه في كتابه" تهذيب الأخلاق" والغزالي في كتابه"إحياء علوم الدين" والماوردي في كتابه" الأحكام السلطانية" و" الوزارة والسياسة والملك" , و الطرطوشي[12]في كتابه" سراج الملوك".

3- طريقة التاريخ المثالي: هم مجموعة من الباحثين درسوا الظواهر الاجتماعية, وأكدوا على ما يجب أن تكون عليه من المثالية حسب ما ارتضوا أن تكون. كما فعل أفلاطون في كتابه" الجمهورية" و" القوانين", وأرسطو[13] في كتابيه"الأخلاق" و" السياسة",و الفرابي[14] في كتابه" أراء أهل المدينة الفاضلة" , كذلك القديس أوغسطين (augustin)[15]صاحب مدينة الله الفاضلة, نظر هؤلاء إلى المجتمع البشري برؤية ملائكية إن صحّ التعبير, دون أن يرتبطوا بالواقع, وكان الفلاسفة كأفلاطون(427-347)ق.م[16]يحاولون أن يتخيلوا " نظاما" للوجود وأن يَرُدَّ أعمال البشر

1978م,ص.21وما بعدها , **حسان محمد حسان:ابن حزم الأندلسي,عصره ومنهجه وفكره التربوي ,دار الفكر العربي, القاهرة** كذلك**عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون, دار العلم للملايين,بيروت, لبنان,ط4, 1403ه-1983م,ص.594 و ما بعدها.**

([11]) معلوم أنّ عبد الرحمن بن خلدون يثق بابن حزم ويأخذ عنه, خاصة في الأنساب.

([12]) هو أبو بكر محمد و يعرف بابن أبي رَنْدَقَة وكفى بسراج الملوك دليلا على فضله,**المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, حقّقه إحسان عباس,دار صادر,بيروت,1408ه-1988م, ج2, ص.85 وما بعدها.**

([13]) أريسطوطاليس أو أريسطو ولد نحو(367-322)ق.م عرف بحكيم اليونان, **فروخ عمر: تاريخ الفكر العربي أيام ابن خلدون,ص.107**

([14])وُلد أبو النصر محمد بن محمد بن طَرخان بن أُوزَلَغ الفرابي في بلدة وَسيج من بلاد الترك (260ه-874م) كان فقيرا زاهدا عارفا لعدّة لغات,أبدع في عدّة علوم منها الطب والرياضيات والشعر وغيرها, وهو أول من حمل المنطق اليوناني تاماً منظماً إلى العرب, **عمر فروخ: نفسه ,ص.352-353 .**

([15]) يدعو رجل الدين أوغستين (354م-430م) إلى إنشاء مجتمع ربّاني حسب تعاليم المسيح وهو ما يعرف بنظرية "العناية الإلهية", فكل موجود عبر التاريخ بما في ذلك الظاهرة التاريخية والاجتماعية تخضع للمشيئة الإلهية, وكان يرفض النظرية القائلة بالدورية في التاريخ والتعاقب الدوري في الحوادث التاريخية, ويذهب إلى نفس مذهبه اليهود وإخوان الصفا, ينظر **محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى,ص: 67-68** , كذلك أنظر تصور الفرابي للمدينة الفاضلة , وكيف يرى شخصية رئيسها, **علي عبد الواحد وافي: المدينة الفاضلة للفرابي, نهضة مصر للطباعة و التوزيع, القاهرة,ص.35-99**, كذلك **أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ, دار النهضة العربية,ط3 1414ه- 1994م, ص.166-187**

إلاّ أن بعضهم مثل فولتيير(1694م-1778م) و كوندورسيه (1743م-1794م) , أعابوا على هذه النظرية أنها جهوية لا تأخذ بعين الاعتبار الغير مسيحي ,كما أنها تعطي الأهمية التاريخية لليهود على حساب غيرهم, ووصف بأشنع الأوصاف **أحمد محمود صبحي: المرجع نفسه,ص.185**

([16]) مفكر عبقري عظيم نادر الذكاء ,كان شاعرا في بداية أمره ثم عرف سقراط فعزف عن الشعر واهتم بالفلسفة,فلسفته مثالية حاول من خلالها أن يتخيّل نظاما للوجود بمقاييس من الخير والجمال, **فروخ عمر: مرجع سابق,ص.97**

وسلوكهم إلى مقاييس من الخير والجمال, لقد أراد رؤية العالم كما يجب أن يكون, لا كما هو فعلا[17].

ثانيا: ابن خلدون ومنهجه في كتابة التاريخ:

- **ابن خلدون وعلمه الجديد:**

يقول ابن خلدون ﴿ولما طالعتُ كتب القوم وسَبَرتُ غورَ الأمس واليوم, نبَّهْتُ عيْنَ القريحةِ من سِنَةِ الغفلة والنوم, وسُمْتُ التصنيف من نفسي –و أنا المفلس– أحسن السّوم, فأنشأت في التاريخ كتابا.... ﴾[18].

من هذا القول نستنتج أن ابن خلدون نقد فكر من سبقه من الخليقة – مع اعترافه في مكان آخر بإمكانية أنه لم تبلغه كتاباتهم–و شعر أن منهجهم غير كافي فأتى بمنهج جديد يغني عما نقص[19].

يتلخص الوجه الجديد الذي أتى به ابن خلدون في دراسة الظواهر الاجتماعية, وعدم وقوف هذه الدراسة عند وصفها (التاريخي) أو الدعوة لها(الديني) أو تبيان ما ينبغي أن تكون عليه (المثالي), بل يتعدى ذلك إلى تحليلها للكشف عن طبيعتها, والأسس التي تقوم عليها, والقوانين التي تخضع لها, بمعنى آخر أنْ تدرس الظواهر الاجتماعية بنفس طرق دراسة علوم الفلك والطبيعة والكيمياء, وغيرها من العلوم الوضعية التجريبية[20].

([17]) **عمر فروخ, تاريخ الفكر العربي أيام ابن خلدون, ص.37وبعدها**

تسعى الفلسفة للوصول إلى حقائق نهائية أو مطلقة, فهي تبحث عن العلل النهائية لكل موجود, والتي تشمل الإنسان والمجتمع والحضارة على خلاف العلم الذي يحدد هدفه بالحقائق النسبية, **محمود عودة: أسس علم الاجتماع,دار النهضة العربية,بيروت لبنان,ص.24**

([18])**عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون,ص.12**

لكن هذا فيه مبالغة, حيث أن منهج مؤرخي اليونان الكبار مثل هيرودوت وتلميذه توكيديدس كان يعتمد على الدقة في نقل المعلومات, ولا يقبل منها إلاّ ما صح, إلاّ أن منهج عبد الرحمن أكمل ما نقص عندهم من منهج,ينظر **لخضر فاضل: تمحيص الرواية التاريخية عند ابن خلدون و المؤرخون القدامى,في مجلة عصور الجديد ,مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي,العدد:7–8.(1433ه–1434)ه–(2012–2013)م, وهران,ص.21**

([19]) بالنسبة لفلاسفة اليونان والرومان كانوا يرتكزون في سردهم لتاريخ البشرية حول العنصر الإنساني (أبطال, أنصاف الآلهة,الكهنة والملوك) , فاعتبروهم عجلة التاريخ, أما ما يفوق قدرتهم الفكرية فَيُوعِزُونَها إلى الإرادة الإلهية والقوى الغيبية, فالحرب الطروادية عند هوميروس لم تكن سوى انتقام رجل لشرفه, وتأسيس روما عند الرومان تَمَّ على يد ذئبه, والأمثلة اللاّواقعية كثيرة.

أعاب عبد الرحمن على هذا المنهج, وابتكر منهجه الجديد ومن أهم بنوده: التغيرات الاجتماعية والطبيعية وأثرها في الحركة التاريخية (سلبا وإيجابا) دون التركيز على العنصر الإنساني فقط.

لقد فاق ابن خلدون الإغريق والرومان في ضبط قواعد المنهج التاريخي, إلاّ أنه يعاب عليه خاصة في روايته لتاريخ غير العرب من الإغريق والرومان وغيرهم انه اعتمد على غير مؤلفاتهم,فرصد له عدة روايات من دون دليل علمي على صحتها, بل نقلها كما هي. **لخضر فاضل: المرجع نفسه, ,ص.22–27**

([20])**علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون , ص.211**

إذن يجب علينا أن ندرس التاريخ بعقلية الباحث في العلوم الوضعية, فعلينا أن نخضع الظاهرة التاريخية بصفة عامة والاجتماعية بصفة خاصة لقوانين ثابتة[21],وبهذا المنهج كان ابن خلدون أول مفكر وصل إلى هذه الحقيقة[22].

يسمي ابن خلدون علمه الجديد "بعلم العمران"أو الاجتماع الإنساني, وهو معروف اليوم ب" السوسيولوجيا" LA SOCIOLOGIE[23].

يقول ابن خلدون حول علمه الجديد ومدى احتوائه لأصناف العلوم الأخرى:

﴿ فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال, والإحاطة بالحاضر من ذلك, ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوِفَاق أو بَوْن ما بينهما من الخلاف, وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها, وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم, حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث, واقفا على أصول كل خبر, وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول, فإذا وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا, وإلاّ زيّفه واستغنى عنه﴾[24].

يفتخر عبد الرحمن كون دراسته فريدة من نوعها فيقول: ﴿اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة, غريب النزعة, غزير الفائدة﴾, ثم يوضح أكثر فيقول:

﴿ كأنه علم مستنبط النشأة, ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة, ما أدري لغفلتهم عن ذلك؟ وليس الضن بهم ...... لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه,ولم يصل إلينا

([21]) وهو ما عرف بدراسة التاريخ دراسة باطنية حيث يقول ابن خلدون " و في باطنه – أي فن التاريخ – نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق, وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق , فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق , وجدير بأن يعد في علومها وخليق" , **عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون,ص10**

– إلاّ أن الجابري يرى خلاف ذلك فيقول " لعله من الواضح الآن أن ابن خلدون لا يهدف إلى دراسة الظواهر الاجتماعية بغية التعرف على القوانين التي تتحكم فيها كما يقول بذلك معظم الباحثين, بل إنه يهدف إلى بيان ما يحدث في العمران بمقتضى طبعه" , **محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية و الدولة, معالم نظرية خلدونية في الفكر الإسلامي,مركز دراسات الوحدة العربية,ط6,1414ه–1994م,ص.108**

([22])**علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون,ص.211**

([23])**علي عبد الواحد وافي: نفسه , ص.212**

([24]) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص37**

– نستنتج من هذا المقطع من كلام ابن خلدون, أن علم العمران البشري يجمع في طياته مجموعة من العلوم الأخرى ,كمعرفته لقواعد السياسة والعلوم الطبيعية لكي يتمكن من معرفة طبائع الموجودات, ومعرفته لعلم التاريخ من كل جوانبه وعلوم الفقه, لكي يتمكن من معرفة أحوال الأمم والبقاع والأعصار, كما انه يكون واسع الإطّلاع ليتمكّن من المقارنة بين الماضي والحاضر (إذن هو يخالف أصحاب مذهب التاريخ العام في عدم تكرر الحوادث, بل يؤمن بدورية الظواهر التاريخية والاجتماعية).

فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل﴾ (25).

ثم يقول:﴿ وسلكت في ترتيبه و تبويبه مسلكا غريبا, واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا ﴾ (26).

يوضح الجابري حول من كان قبل ابن خلدون أنهم كتبوا في هذا المجال _ أي علم العمران_ كالطرطوشي والغزالي وابن طباطبا لكن دون أن يتخذوا هذه المسائل مجالا لدراسة مستقلة, ثم يقول:" واضح من هذا أن ابن خلدون يرى الفرق الأساسي بين علمه الجديد وبين كتاب السياسة للطرطوشي, ليس فرقا في الموضوع أو المسائل (هنا الشاهد) وإنما هو فرق في المنهج",ويقول أيضا " هذا الاتجاه الجديد الذي دشنه الغزالي أولا(27)و ابن طباطبا ثانيا(28) هو نفس الاتجاه الذي جاء به ابن خلدون ليحدد معالمه ويرسم طريقه ويعمق أسسه وأبعاده"(29).

---

(25) عبد **الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون, ص.48.**

يقول **عمر فروخ**: بعد أن أكّد أن ابن خلدون هو واضع علم الاجتماع بلا منازع فقال: (وعلى هذا لا يكون ابن خلدون أول فيلسوف اجتماعي في العرب والمسلمين فحسب, ولا هو من أكابر فلسفة الاجتماع فقط, بل هو أو لعلماء الاجتماع بإطلاق وأعظمهم إدراكا لحقائق العمران الأولى في تاريخ الفكر الإنساني أجمع). **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون,ص.696.**

(26)**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.12.**

إنّ هذا العلم جديد منقطع عن تقليد من سبقه من المؤرخين والفلاسفة, كما انه ينبهنا إلا الجديد الذي طرأ على اللغة العربية بفضل قلمه, فهي لا تشبه اللغة المستعملة في المؤلفات التقليدية.

عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون, ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين,ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية, المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1408ه-1988م,ص.82 .

- يسعى عبد الرحمن إلى تحرير نظريته وعدم تقيدها كما فعل سابقوه – كانقلاب الأرستقراطية إلى طغيان حسب أرسطو, أو توضيح المثل الأعلى للجمهورية كما فعل أفلاطون-, يريد ابن خلدون أن يشرح تاريخ الإنسانية بأوسع معاني الكلمة وهو يتفوق بكثير على أرسطو وأفلاطون ومن باب أولى على مؤرخي العصر القديم.

طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد,نقله إلى العربية محمد عبد الله عنان,مطبعة الاعتماد مصر,الطبعة الأولى1343ه-1925م.ص.55-56 .

-نعم لقد اعترف بعض علماء المغرب أمثال المقري ت (1041ه-1631م) بأفضلية المشارقة على أهل المغرب في العلوم النظرية على الخصوص, لكن هذا لا يعطي الحق إلى من أنكر تفوق عبد الرحمن في هذا المجال واتهامه بالمغتصب والحرامي,-يقصد المؤرخ المصري محمود إسماعيل في مؤلفه " إخوان الصفا رواد التنوير في العالم الإسلامي"- حيث أن العلم كما هو معروف تواصل و ليس انقطاع, فلا يمكن لأحد لا ابن خلدون ولا إخوان الصفا ولا حتى أرسطو وأفلاطون والفرابي أن يدّعي أن العلم منبثق من مشكاته بل هو تواصل عبر الأجيال . ينظر حول هذا الموضوع:

عمارة علاوة:دراسات تاريخية وفكرية,المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية,الجزائر1429ه-2008م,ص.211 و ما بعدها.

(27)ربما يقصد بالخصوص كتابه ميزان العمل الذي شرح فيه العصبية والشوكة بشكل يقترب من ابن خلدون

(28)ربما ظهر أكثر في كتابه الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

(29)**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية و الدولة,ص.106و137**

, يقول الغزالي مثلا (من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلا) حيث كان يرى أن المنطق له فائدة عظيمة في جميع العلوم العقلية أو الفقهية , وفائدته هو التخلص من قائد الحس والهوى و التمسك بقائد العقل, أما ابن تيمية فهو أقرب إلى ابن خلدون من الغزالي, فقد شك في الكليات

إذن ونتيجة لما سبق يتضح لنا جليا أن عبد الرحمن أتى بعلم جديد, على الأقل في منهجه حيث أنه استعمل منهج العلوم الوضعية, من حيث أنه اعتبر أن هذا العلم خاضع لقوانين ثابتة كالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والرياضية, وأن هذه الظواهر تخضع لما يعرف بجبرية الحدوث[30] .

-دوافع كتابته للمقدمة وفق علمه الجديد:

يتلخص سبب انتهاج عبد الرحمن لهذا المنهج في كتابته للتاريخ في عدّة أمور أهمها:

- الذاتية التي اتصفت بها معظم الكتابات التاريخية (ميول وأهواء).
- الجهل بقوانين الظواهر الطبيعية التي تدفع المؤرخ إلى نقل الأساطير, فلو عرضها على قوانين الطبيعة لعلم عدم صحتها,فهو يضرب لذلك أمثلة, بما نقله المسعودي عن الإسكندر وغوصه في البحر, فبيّن استحالة ذلك .
- الجهل بقوانين الاجتماع الإنساني, ويضرب مثلا لذلك جيوش بني إسرائيل الذين أحصاهم موسى عليه السلام في التيه[31]فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون, وهذا غير ممكن حسب عبد الرحمن لعدم إمكانية اجتماعهم وتزاحمهم في القتال مع غيرهم في هذا الحيّز الضيق, ثم يأتي بمجموعة من البراهين على وهن تلك الرواية للمسعودي[32].

يقول عبد الرحمن في هذا الصدد: ﴿اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب ..., فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة, وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلاّت والمغالط, لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تُحكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ......, فربما لا يؤنس فيها العثور, ومزلة القدم والحيد عن جادة الحق﴾[33].

العقلية المبنية على أمور **نسبية** وليس لها وجود خارجي, بمعنى إنها ضنية, **علي الوردي: منطق ابن خلدون (في ضوء حضارته وشخصيته),دار كوفان, لندن,1414ه-1994م,ط2, ص.54 و 57-58.**

([30])**علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون, ص.209.**

([31]) هو الموضع الذي ضل فيه موسى عليه السلام مع قومه بين إيلة ومصر وبحر القزم وجبال السراة عند امتناع بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة (فلسطين), فحبسهم الله تعالى أربعين سنة, لما عزموا الاتجاه نحو الأرض المقدسة كانوا زهاء الستمائة ألف فماتوا كلهم في التيه إلا يوشع بن نون وكائب بن يوقنا , **القزويني زكرياء بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد,دار صادر لبنان, ص.174 -117.**

قال تعالى " يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم............,......, قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون,.........,قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون ,........, قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تاس على القوم الفاسقين " **سورة المائدة من الآية 21 إلى الآية 26.**

([32])**علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق,ص.214-221**

([33])**عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون,ص.17.**

ويقول **محمد العبدة :**" أن أمم الفرس والروم لم يكن لهم مثل العلوم الإسلامية, فالقران الكريم والسنة النبوية جاءتا بتفصيل كل شيء, وبالتالي كانت ثقافة ابن خلدون الإسلامية ورجوعه للدّين الإسلامي في كثير من تفسيراته ميزة تميز بها عن أولئك الذين قلّدوا اليونان كالفرابي وابن سينا أو حاولوا الجمع بين الثقافتين كابن رشد" (34).

- **التطور هو المحرك الأساسي لنشوء الدولة عند ابن خلدون** (35):

الظواهر الاجتماعية تمتاز بخاصية التطور وعدم الجمود, باختلاف الأمم والشعوب والأزمان(يصدق ذلك على كل الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..حتى ما يتعلق بالأخلاق ومقاييس الخير والشر, والفضيلة والرذيلة).

لقد بين ابن خلدون كل هذا فقال: ﴿ إن أحوال العالم والأمم وعَوائِدِهم و نِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر, إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال, وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول﴾ (36),إذن الظواهر الاجتماعية ظواهر متغيرة تختلف أوضاعها باختلاف الزمان والمكان (37), وهي تشبه العلوم الوضعية(كالفلك والكيمياء وعلوم الطبيعة ..الخ) من حيث خضوع الجميع إلى التجربة وبالتالي إلى قوانين تحكمها, وهي تختلف معها من جهة أخرى – أي مع العلوم الوضعية– من حيث أن العلوم الوضعية تعالج ظواهر مستقرة باختلاف الأمم والعصور, كقانون الجاذبية مثلا, فهو يخضع للتجربة لكنه ثابت لا يتغير بتغير الأماكن والأزمنة, أما العلوم الاجتماعية فهي متغيرة قابلة للتطور.

---

(34) ينظر :**نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون, مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية مصر, ط1 1430ه–2009م,ص.18.**
يحاول الفرابي أن يصل عن طريق الفلسفة إلى إدراك واكتشاف المبادئ والحقائق الأولية في الوجود, لكنه جَانَب الحقيقة لغياب التفكير التاريخي في فلسفته, **كذلك ينظر نصيف ناصف: الفكر الواقعي عند ابن خلدون تفسير تحليلي و جدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه, دار الطليعة للطباع والنشر لبنان , ط1, 1401ه–1981م,ص.339 و ما بعدها**

(35) يقول Yves Lacoste لا يمكن التحدث عن العمران البدوي والعمران الحضري بأنهما مجتمعين ثابتين متضادين بل هما في حالة تطور عام, العمران البدوي هو المرحلة الأولى والعمران الحضري هو المرحلة العليا والنهائية.
Yves Lacoste : Ibn Khaldoun P.127

(36)**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.38.**

(37)**علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون,ص.222–223**
يعد التغيير الاجتماعي سمة من سمات الكون, فهو يمس الأفراد والجماعات والمجتمعات, والتغير هو انتقال الظاهرة من حالة إلى أخرى, وله عدّة مصطلحات كالتقدم , التطور, التخلف, ينظر **لطيفة طبال: التغير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية , في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية, جامعة سعد دحلب ,العدد: الثامن, جوان1433ه– 2012م, البليدة, ص.406–428 ,**

هناك تنظير آخر للتطور يؤكد أن ابن خلدون كان صاحب فكرة التطور في كل شيء تقريبا, فقد كان ممن أسّسوا لفكرة التطور في الطبيعة[38](أي نظرية تطور الأجناس التي عرف بها تشارل داروبين) بل فاقهم حتى[39], ويلاحظ بعضهم في قول ابن خلدون هذا أنه يتضمن فكرة التطور التدريجي بكل صراحة, ويستغرب من إخفاء تعبير "عالم القردة" وتغييره "بعالم القدرة" من قبل الطبعات المشرقية فجردتها من معناها[40].

وتأكيدا لمعنى القردة هناك قول ابن خلدون في الباب السادس من كتابه في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه, الفصل الرابع عشر في علوم الأنبياء عليهم الصلاة و السلام, حيث قال:﴿ وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب ....,–إلى أن قال –وكما في القِرَدَةَ التي أستجمع فيها الكَيْسُ والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والرَّوِيَّة, وهذا الاستعداد الذي في جانبي كلّ أفق من العوالم هو معنى الاتصال"[41].

إلاّ أن الجابري يُعَقِّب على مقولة ابن خلدون حول التطور ويبين أنه لا علاقة بين نظرية داروين وما بيّنه عبد الرحمن في هذا المقال,فالمسألة حسبه هي بيان (اتصال لا أكوان) بعضها ببعض, وهو اتصال الإنسان بعالم الملائكة, وهي فكرة كانت شائعة عند مفكري الإسلام قبل ابن خلدون كإخوان الصفا[42].

([38]) يقول **ابن خلدون** في المقدمة السادسة(في أصناف المدركين للغيب ..): اعلم أرشدنا الله وإيّاك –أنّا نُشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلّها على هيئة من الترتيب والإحكام, وربط الأسباب بالأسباب واتصال الأكوان بالأكوان, واستحالة بعض الموجودات إلى بعض,...., ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات أنَّ آخر أفقٍ منها مُسْتَعُدٌّ بالاستعداد الغريب لأن يصير أوّل أفق الذي بعده, واتسع عالم الحيوان و تعدّدت أنواعه, وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفِكْر و الرويّة, ترتفع إليه من عالم القُدْرة الذي اجتمع فيه الحسُّ و الإدراك), **: المقدمة,ص.103–104**

([39])**بوزيان دراجي :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية(على ضوء الفكر الخلدوني),دار الكتاب العربي1423ه–2003م,ص.88–91**

([40])**ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون, مكتبة الخانجي, دار الكتاب العربي,ط3 .1386ه–1967م,ص.302**

([41])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.490**

([42])إخوان الصفا هم جماعة مُحبِّين لأصناف العلوم اجتمعوا في المشرق الإسلامي على عهد الدولة العباسية , يعرفون بعدة أسماء منها : إخوان الصفا, خلان الوفا, وأهل العدل وأناء الحمد, صنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة(الجانب العلمي والعملي) زاعمين أن الشريعة قد دُنِّست و لا سبيل لتطهيرها إلا بالفلسفة.زعم بعضهم أن عبد الرحمن أخذ رسالتهم المعروفة برسالة إخوان الصفا و نقلها في كتابه , أي أنه سرق نظريتهم.

ينظر:**عمر فروخ, تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون,ص.377** , كذلك **عوض سليم خليفة: عبد الرحمن بن خلدون, المفترى عليه, مجلة الجامعة العربية,طرابلس ليبيا,العدد الأول السنة الثانية1428ه–2007م,ص.73** و ما بعدها, **حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي,دار الجيل بيروت, ط 14,1416ه–1996م, ج3,ص.389–391**, **كذلك محمود إسماعيل: هل انتهت أسطورة ابن خلدون؟جدل ساخن بين الأكاديميين والمفكرين العرب,دار قباء القاهرة,1420ه–2000م**, ومحمود إسماعيل هو الذي طرح هذه المسألة وهو من المتهمين لعبد الرحمن بن خلدون بأنه سرق معرفة إخوان الصفا وصاغها بطريقته.

ثم يبين أنه من ذهب إلى هذا الاتجاه لم يعي معنى كلمة_ الاستعداد_ التي استعملها ابن خلدون[43].

نلاحظ أن عبد الرحمن حين تحدث عن هذا الموضوع أدرجه في موضوعين: في المقدمة السادسة (في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة و يقدمه الكلام في الوحي والرؤيا), وكرّر ذلك في الباب السادس (في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه...) الفصل الرابع عشر(في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) , وفي كل هذا كان يتطرق في قدرة صنف من البشر على تخطي العالم المادي المحسوس إلى العالم الروحاني الغير محسوس وهذا الصنف هم الأنبياء والمرسلين, وركز في ذلك على موضوع الاتصال, إلا أنه استعمل أسلوبا فلسفيا يعجز العقل العادي على إدراك معناه رغم إنكاره على الفلاسفة في مقدمته[44].

ثالثا: نظرية ابن خلدون في نشوء الدولة :

استرسلنا في الحديث عن الظاهرة الاجتماعية مفهومها ومجالها, كذلك البحوث التي سبقت ابن خلدون في هذا المجال, ثم انتقلنا إلى العلم الجديد الذي أتى به ابن خلدون (العمران البشري), لكن ومع هذا فإن موضوع بحثنا هو نشأة الدولة وفق التفكير الخلدوني, يقول بوزيان دراجي في تفسيره لبناء نظرية ابن خلدون: " يبدو أن ابن خلدون لم يرى في العصبية غاية في حد ذاتها, لأن الموضوع الذي شغله وساقه إلى التأمل في تلك الظاهرة هو محاولته بناء نظرية يصل بفضلها إلى العلّة التي تكمن وراء نشأة الدولة "[45].

ومن إخوان الصفا الفرابي وابن سينا, وكان طه حسين من الممجّدين لهم ,حيث اعتبرهم مفتاح الاستنارة الفكرية للأمّة, بخوضهم في أمور فلسفية لم ينجوا هو أيضا من مغبّتها وضلالها, حيث قال في كتابه(مستقبل حضارة البحر المتوسّط في الشرق والغرب) الذي لم ينشر ونقلت عليه المجلّة المروانية البيروتية(المكشوف) عام 1938 قوله(لو وقف الدين الإسلامي بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه), ينظر:**أعلام وأقزام في ميزان الإسلام, جمع وترتيب السيّد بن حسين العفّاني, دار ماجد عسيري ,مصر ,ط1 1424ه–2004م,ج1,ص.242–243**

– وحتى ابن خلدون نفسه اعترف بإمكانية معرفة من سبقوه بهذا المنهج حيث قال(....لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري لغفلتهم عن ذلك ؟ " ثم يستدرك " وليس الضن بهم لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه, ولم يصل إلينا , فالعلوم كثيرة و الحكماء في أمم النوع الإنساني متعدّدون, و ما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل),**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.48.**

–ولعمري لو كان هذا التصريح من ابن خلدون وحده لكفاه من ردود من كانت له بصيرة, فالمغزى هنا ليس من أتى بهذا العلم بل كيف نستعمله في مستقبل مجتمعاتنا, وليس أن نتجادل حول مصدره.

[43]**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية والدولة,ص.68.**

[44]أنظر تعليق **الجابري** حول مفهوم التطور عند ابن خلدون وأنّ هذا الأخير لم يتمكن من التنصّل من شراك الفلسفة وهو الذي كان قد أعاب عليها.**المرجع نفسه, ص.67–68**

[45]**بوزيان دراجي :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص35** , يرى **الجابري** أن ابن خلدون نظر إلى العمران البشري بنظرة مفضية إلى الدولة والتي هي المحور التي تدور حوله شؤون الاجتماع , ولذلك كانت الدولة هي صميم أبحاثه ودراساته,ويضيف الجابري " إن الدولة إذا هي المحور الأساسي التي تدور عليه أبحاث ابن خلدون ونظرياته وليست العصبية أو الصراع بين البدو والحضر , كما ذهب إلى ذلك بعضهم", يقصد ساطع الحصري و علي الوردي, **المرجع السابق, ص.119 –120.**

عاش ابن خلدون في زمن ضعفت فيه شوكة الإسلام وكان أهم دلائل ذلك الضعف سقوط الخلافة العباسية في بغداد (656ه-1258م), وكان لسقوط الدولة الموحدية أثر بالغ على المغرب الإسلامي والأندلس, حيث نشأت دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها بعَصَبيَّةٍ قَبَلِيَّةٍ مَقِيتَةٍ[46].

كل ذلك عاينه عبد الرحمن عن قرب بعامل مخالطته لبلاطات تلك الدول, كذلك إمضائه فترات من حياته بين القبائل العربية البدوية إما فارا أو سفيرا.

فكانت البلاد تتخبط في دوامة الصراعات على الملك (حروب, اغتيالات, خيانات,...), نتج عن ذلك ضعف اجتماعي واقتصادي عام .

لا نشكّ أنه انتابه شعور تجاه كل هذا وتولدت لديه تساؤلات عديدة حول حال الدولة الإسلامية وما آلت إليه من وَهَن حتى أصبحت لقمة سائغة بين أيدي الأعداء, فلماذا لم تقم دولة قوية يُمكنها أن تضرب جذورها في التاريخ, دون أن تتعرض للضعف والانحلال على الأقل مدّة كافية من الزمن تكفي لتأسيس حضارة؟

من أهم ملاحظاته في هذا الصدد أنّ دول تبدو في أول الأمر قوية متماسكة إلا أنه سرعان ما يدخلها الوهن فتتفكك وتنهار فتخلفها دولة أخرى التي تلقى نفس المصير وهكذا دواليك.

ليس هذا فحسب بل لاحظ أن قيام تلك الدول يتم وفق ظاهرة اجتماعية تعرف باسم العصبية القبلية[47], والغريب في الأمر أن هذه الظاهرة التي هي العصبية تعتبر محرك قيام الدولة و كذلك معول هدم لتلك الدولة[48].

ونظرا لتشعّب الظاهرة الاجتماعية وتعقدها كان من الضروري تقنينها بنظرية لكي تمد الباحث بإطار تصوري لما هو مقبل عليه من بحث, وتنأى به عن الانسياق في متاهات ربما تخرجه عن المطلوب, بمعنى تحدّد له المنحى العلمي الواجب إتباعه.**عبد الباسط عبد المعطي:اتجاهات نظرية في علم الاجتماع, سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, الكويت,العدد 44 , 1414ه-1998م,ص.12-13**

(46)العصبية القبلية كانت الأساس والقوّة التي حَرّكت مجتمع ذاك العصر لتأسيس الدولة, إلاّ أنها في نفس الوقت كانت معول هدم للدولة نظرا لاستبدادها بالحكم ثم استبداد صاحب الملك عليها بالمصطنعين,وهذا ما يؤدي إلا هرم الدولة وسقوطها, لذلك قال **بوزيان دراجي** :" بحيث كانت العصبية دوما بمثابة حجر عثرة, بل غدت معول هدم وتدمير لكل خطوة حضارية تخطوها أية دولة من تلك الدول" **العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.4**

(47) هي تلك الروح التي تلازم القبيلة فتمتّن لحمتها وتشد رباط القربى بين فئاتها ّ, فتعدو بذلك قوة دفاعية وهجومية, تتسلح بها القبيلة و العشيرة, **بوزيان دراجي: المرجع نفسه,ص.13**

(48)كنا أوردنا رأي بوزيان دراجي حول العصبية ومقته لها , وندعم رأيه برأي **علي أومليل** حين تكلم عن الدولة, فأكد أن هذا النوع من الدول الذي يقوم على أسس قبلية, لا يدوم في الزمن رغم ما تتركه تلك الدول من إرث إداري وسياسي وثقافي, حيث أن كل دولة جديدة متولدة من عصبية جديدة تشرع في إنشاء دولتها من البداية وتهمل ما وجدته من سابقتها وهذا ما يمنع من تجذّر الحضارة (حسب تعبيره), كما لا تسمح بترسيخ الدولة .**الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون,المركز الثقافي العربي, المغرب ,ط4 1426ه- 2005م,ص.211** . بين هذا كذلك **ابن خلدون** بأن الأوطان التي تكثر فيها العصائب يتعذّر أن تقام فيها دولة, وضرب مثلا بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب وما عاناه المسلمون الفاتحون من صد القبائل البربرية لهم حيث دام الفتح ما يزيد عن سبعين سنة, وهذا خلاف العراق والشام, ثم بيّن أن الدولة يسهل تمهيدها في الأوطان الخالية من العصبيات حيث يكون السلطان هو الوازع (إنما هو سلطان ورعية), **مقدمة ابن خلدون,ص.174**

يجب ارتباط مبدأين رئيسين لنشوء الدولة في العصر الوسيط حسب عبد الرحمن, مبدأ العصبية ومبدأ القوة و الغلبة.

انطلق عبد الرحمن من قول أرسطو:" الإنسان كائن سياسي بالطبع " وهو يقصد السياسة المدنية, وقول الفرابي:" الإنسان من الأنواع التي يمكن أن يتم لها الضروري من أمورها, و لا تنال الأفضل من أحوالها إلاّ بالاجتماع".

يقول ابن خلدون﴿ في أن الاجتماع الإنساني ضروري, ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم:" الإنسان مدني بالطبع", أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران﴾ [49].

ينتج هذا الاجتماع عن ضرورة التعاون بين الناس كل حسب تخصصه, وبالتالي تظهر بوادر ذلك الاجتماع بتعدد النشاطات داخله, وبعد مرور الوقت يصبح لكل فرد من المجتمع ممتلكاته الخاصة به.

ولما تتكدسّ لدى بعضهم يحسدهم البعض الآخر(ممن فقدوا الإبداع وشحّت مخازنهم), وعندئذ يلجئون إلى محاولة انتزاع ما حصل عليه غيرهم بالقوة فيصدهم أصحاب الحق, فيُوشك أن تنشب الفتن أو تقع, هنا يصل عبد الرحمن إلى ضرورة **قيام الوازع**[50] الذي يصدُّ الظالمين ويحمي المظلومين.

و عليه نَخْلُص لما يلي:

1- الاجتماع الإنساني مفروض جِبِلّة وهو ضروري(مبدأ المتقدمين و المتأخرين) [51]

([49]) **عبد الرحمن بن خلدون, مقدمة ابن خلدون, ص.52.**

([50])بعد أن أكدّ عبد الرحمن على ضرورة الاجتماع للنوع الإنساني والذي هو العمران (موضوع علمه الجديد) , يضيف قائلا:" ثم إنّ هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرّرناه وتم عمران العالم بهم, فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض ,....., فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة, حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان, وهذا هو معنى الملك"

عبد الرحمن بن خلدون , نفسه,ص.53.

إلا أن بعضهم يرى أن ابن خلدون يرى في الوازع أنه هو العصبية فيقول:" وقد يغالي ابن خلدون –أحيانا– فيما يقدمه لنا من أفكاره, وبخاصة تلك التي ارتبطت بمفهوم العصبية التي تمثل في نظره أداة القوة القاهرة التي لا يستقر ملك أو عمران إلاّ بها لأنها تمثل ' الوازع' المادي المباشر والمؤثر في تحقيق الأمن, **النبهان محمد فاروق : الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,مؤسسة الرسالة لبنان ,ط1 1418ه-1998م,ص.124**, بالتالي يمكن أن نجمع بين ما سبق ونقول أن الوازع هو الحاكم الذي يكون من العصبية المتغلّبة والتي بدونها لا يكون له شأن.

([51]) يقول **ساطع الحصري** أن هذا الرأي ساد على أذهان جميع المفكرين– في الشرق والغرب– منذ عهد أرسطو, غير أن الفيلسوف الإنجليزي هوبز Hobbes الذي عاش في أواسط القرن السابع عشر اعترض على فكرة أرسطو في اجتماعية الإنسان وادّعى أن الحالة الطبيعية في الإنسان هي " الحرب والعدوان", وبما أن ابن خلدون جمع بين الرأيين (الاجتماع والعدوان) فيعتبر ساطع أن نظرية ابن خلدون خط واصل بين أرسطو و هوبز ويتفوق على هذا الأخير بعدم اعتبار الاجتماع الإنساني مناقضا للعدوان. **دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص282**

2- أن العدوان لا مناص منه, لأنه طبيعيّ في النفس البشرية.

3- نتيجة لذلك يتوجّب قيام ما يعرف بالوازع لحفظ ذلك الاجتماع والمحافظة عليه من أسباب التفكك[52].

و عليه يمكن القول:" إن الطبيعة البشرية تستلزم الحياة الاجتماعية, كما إنها تحمل على التعدّي وتؤدي إلى التنازع بين الأفراد, وهذه الحياة لا يمكنها أن تستمر إلاّ بوجود وازع يمنع التعدّي ويرفع التنازع, وهذا هو الذي يولّد الحكم والملك بوجه عام, والدولة بوجه خاص" [53].

أما **غاستول بوتول** فيرجع نقطة الانطلاق في نظرية ابن خلدون هو كون المجتمع عبارة عن ظاهرة طبيعية, ثم يأتي بالعلل الرئيسية التي تدفع الناس إلى الاجتماع, وأهم هذه العوامل: الأول عامل التعاون الاقتصادي الذي يدفع الناس إلى الاجتماع لتكميل بعضهم بعضا فيما يخص الحاجات المعيشية, والعامل الثاني: هو الوازع الذي هو واحد منهم) [54] .

أما **بوزيان دراجي** فيستنتج من نظرية ابن خلدون في الدولة أن سنة الله في الخليقة هو اجتماعهم, وهذا الاجتماع يفضي إلى العمران, وبما أن العدوان طبيعي في البشر توجّب التوفيق بين كل ذلك بقيام وسيط يمكن أن يسمى **حاكما** لتحقيق العدالة بين الناس, وهذا الحاكم هو الوازع الدنيوي أو المادي يختلف عن الوازع الأخروي أو الأخلاقي الديني الذي يعتبر مكمل له, إذن فالوازع أو الحاكم ضروري لبقاء النوع البشري, لكن لا يمكنه القيام بمهامه دون هيئة تسانده وتعاونه وهي الدولة[55].

([52]) **بوزيان دراجي: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص40**

([53]) **ساطع الحصري, دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص283**

([54])**ابن خلدون فلسفته الاجتماعية, ترجمة عادل زعيتر, المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت,ط2 1404ه-1984م,ص.47.**

([55])**العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.42.** ونحن نوضح قيمة الوازع (الحاكم) أكثر بهذا المثال: نلاحظ عبر التاريخ الإسلامي عامة وبلاد المغرب الإسلامي خاصة تكرّر حدث واحد في أغلب المعارك , فبعد دخول الجيش المنتصر مدينة من المدن يستبيحها لأيام وليالي عدّة, ثم بعد ذلك ينادي مناد من قبل الحاكم أن أعطوا الأمان, نحن نعلم أن هذه الفعلة لها عدّة مبرّرات لكن الذي يهمنا هنا هو أنّه لولا وجود الوازع لأفنى البشر بعضهم بعضا, وهذا مصداق قوله تعالى ," .....ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين" **سورة البقرة أية 251.**

يمكن للدولة أن تكون كاملة أو ناقصة على حسب قوّة العصبية القائمة عليها وعليه يمكن أن نضع المعادلة التالية:

مجتمع بشري←تصادم و تنازع←الوازع(الحاكم)←دولة .

العصبية(مصدر الوازع) [56].

إلاّ أن الدولة لا تقوم على عصبية ضعيفة بل يجب أن تحقق مبدأ هو المحور الحقيقي لنظرية ابن خلدون ألا وهو **مبدأ القوّة و الغلبة**[57].

(56) الوازع يكون من قبيلة العصبية الغالبة أو يكون طارئا وفي هذه الحالة أغلب الضّن أن يكون صاحب دعوة (مثل عبد الرحمن بن رستم و إدريس بن عبد الله), أو ينتزع الحكم (مثل المنصور بن أبي عامر و عبد المؤمن بن علي)

(57) **بوزيان دراجي :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.46**

الفصل الأول

عبد الرحمن بن خلدون المسيرة و المفاهيم

- أولا – الأوضاع السياسية في عصر ابن خلدون
- ثانيا – التعريف بابن خلدون وتتبع خطوات رحلته
- ثالثا – مفاهيمه الكبرى حول الدولة

تمـــهيد:

لا يهم البحث في حياة المؤرخين لمجرّد أنهم نقلوا إلينا وقائع تاريخية بطريقة مجرّدة, جامعين للوثائق من أجل تأليف قصة كاملة, فإلى هذا الحد تقلبات حياتهم لا تكتسي أهمية لسردها.

لكن ابن خلدون حتى قسمه التاريخي من مؤلّفاتهأُبهر به المؤرخين فقال فيه أحدهم:

(لولا أثر ابن خلدون التاريخيُّ لَجَهِلنا اليوم ما كان عليه تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي حتى القرن الرابع عشر ميلادي, ولولا ابن خلدون لاقتصر جميع من يَوَدُّونَ جعل اتصال هنالك بين آخر الإمبراطورية الرومانية والعهد البيزنطي والأزمنة الحديثة على فَرْضيات.....)[58].

غير أن مكانة ابن خلدون كان أعلى من مجرّد مدوّن للوقائع,فلقد حاول أن يُفَلْسِف[59] التاريخ الإسلامي إلى عهده, وهي طريقة تفرد بها عن غيره, بحيث أعطى تصورا خاصا به للتاريخ الإسلامي ومسيرته, وهذا التصور مستمد من تجربته هو في معترك الحياة, تلكم التجربة التي تشبّعت بوقائع عصره, المعطيات الاجتماعية والتاريخية التي عاش فيها ودرس أحوالها[60], وبالتالي أنتج تاريخا يجاوز نطاق البلد الذي عاش فيه, فألّف تاريخا عاما يعدّ عملا عظيما وحيدا في ذلك الزمان, على الأقل في دار الإسلام[61].

يقول **ايف لاكوست**[62]: (معلوم أنه في إفريقيا الشمالية, اسم ابن خلدون يعني حتى بالنسبة لعدد لا بأس به من الناس العاديين, العظمة لماضٍ مجيد, ولكن خارج البلدان العربية معظم الرجال المثقفين يجهلون اسم هذا العَلَم الذي هو ليس معروف إلا في أوساط المختصّين بماضي بلاد المغرب, أو بتطور العلوم الاجتماعية...الخ.

([58])**غاستولبوتول .ابن خلدون فلسفته الاجتماعية,ص.9** ,فقد نقل الرواية التاريخية من منهج الطريقة الكلاسيكية إلى منهج البحث والتحقّق من الحادثة التاريخية.

([59])أراد ابن خلدون أن يضع أثرا فلسفيا, بادئا بتركيب معارفه التاريخية, وكان هذا مشروعا فريدا لا مثيل له منذ عهد العظماء في الفلسفة اليونانية, وقد شعر بنقص التاريخ الذي كان يقتصر على سرد الوقائع والأسماء والأوقات, فارتقى إلى إدراك ما اصطلح عليه بالسُّنَن التاريخية, التي ترتكز على الفهم, حيث أراد الدلالة إلى أصل الأمم ومعرفة أسباب الحوادث, وما يمكن أن يكون بينها من تباين وتماثل " داخلا من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص , فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا...., وأعطى لحوادث الدول عللا و أسبابا". **غاستول بوتول. المرجع نفسه.ص.9-10**

([60])- **محمد عابد الجابري:فكر أبن خلدون .العصبية و الدولة,ص.11**

([61])- **غاستول بوتول. المرجع السابق. ص. 9**

([62]) YvesLacoste . IBN KHALDOUN.p.7-8

المؤرخون والفلاسفة الذين سمحت لهم الفرصة لمعرفة نتاج ابن خلدون, وصفوه بكل ما أجادت عليهم ملكاتهم الفكرية, فقال أحدهم:

" كان ابن خلدون أكبر فيلسوف ومؤرخ, الذي لم تعرف الأمة الإسلامية قبله مثله, وهو واحد من عظماء الأزمنة كلها", **هيتي**.

وقال آخر: " إن إنجاز ابن خلدون هو من المؤلفات الأكثر جوهرية والأكثر أهمية والتي أنتجها العقل البشري" **جورج مارسي**.

وأضاف آخر: " ابن خلدون صاغ فلسفة للتاريخ, هي بلا شك أكبر عمل ليس له مثيل من قِبل أي مفكر, في أي وقت, في أي من البلاد" **أرنولد توينبي**.

كل هذه الأحكام هي شرعية حسب **Yves Lacoste** وهو يزيد على ذلك حيث أقرّ أن إنجاز ابن خلدون هو الذي أظهر الحُلّة الجديدة للتاريخ باعتبار أنه علم تجريبي, وهذا يعتبر صفحة مشرقة في تاريخ الفكر العربي, أو بالأحرى المعجزة, ولكن في فترة بدأت فيها الحضارة العربية بالأُفُول, هذا ما تسبب في نسيان العلامة و ما أنتج لعدة قرون).

مما تقدم معنا من آراء حول هذا المؤرّخ العظيم, الذي هو عبد الرحمن بن خلدون, توجب علينا ونحن نبحث في فكره, من خلال تحديد أسس قيام الدولة في العصر الوسيط, أن نتعرّف على هذه الشخصية الفذّة, وذلك بدراسة سيرته الذاتية, وهذا ما نصبو إليه في هذا الفصل .

أولا- الأوضاع السياسية في عصر ابن خلدون:

عاش عبد الرحمن ابن خلدون في زمن عرف فيه العالم الإسلامي والمسيحي تغيرات جوهرية, وكان للصراع السياسي بين دول المغرب الإسلامي من جهة, وبينهم وبين النصارى من جهة أخرى[63], الأثر البالغ في نضجه وتطور معرفته بالحقيقة التاريخية, هذا ما ظهر جليا في كتابه "العبر " [64].

([63]) عاش المغرب فترة مزدهرة عهد المرابطين والموحدين,لكن سرعان ما تخبط في الفتن والمؤامرات وتجزأ إلى دويلات صغيرة تتحالف حتى مع النصارى ضد جيرانها من أجل الحفاظ على ملكها الزائل, **النبهان محمد فاروق : الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.40-41**

([64]) وهو مُؤلَف ابن خلدون المعروف ب " تاريخ ابن خلدون" , وهو ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر, والمقدمة جزء منه , كتبها في قلعة "بني سلامة" في المغرب الأوسط.

شهد المغرب الإسلامي سقوط دولة الموحدين[65], التي وحدّت لأول مرة بعد عصر الخلافة الإسلامية في دمشق بلاد المغرب والأندلس, وظهرت دويلات مستقلة عقب ذلك, ثلاثة في المغرب أو ما يعرف بالعدوة الدنيا والرابعة في الأندلس.

الثلاثة الأولى كانت على حساب الدولة الموحدية في مرحلتها الأخيرة التي تعرف بمرحلة الهرم[66],أما الدولة الرابعة فكانت تمثل مرارة صراع مسلمي الأندلس من أجل الحفاظ على ما تبقى من مجد الأندلس الإسلامي.

الدولة الحفصية مهد العلامة ابن خلدون عبد الرحمن ومسقط رأسه, جاء عند ابن الشمّاع قوله:" فأولهم في الولاية المولى المجاهد, أبو محمد عبد الواحد ,......, وهو المولى أبو محمد ابن الشيخ أبي حفص عمر ابن يحيى بن محمد بن والد بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن عمر بن وافتن بن محمد بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه" [67].

([65]) بداية هذه الدولة كانت سنة 514ه-1120م على يد المهدي محمد ابن تومرت, وكان سقوطها على يد المرينيين سنة 668ه-1269م, كما امتد حكمها إلى الأندلس من (540ه-1145م-609ه-1212م تقريبا) .

([66])هذا ما خلص إليه عبد الرحمن بن خلدون في كتابه المقدمة, من أن **العصابة أو القبيلة** إذا استحكم لها الملك وانفردت بالمجد, فإنها سوف تمر بأجيال حتى تبلغ مرحلة الترف والدّعة, فإذا تحقق فيها ذلك أقبلت الدولة على الهرم, فاستعانت **بأنصار وشيعة** سواء كانوا من العبيد أو من الجند المرتزقة, أو القبائل الحليفة التي تكون داخل نطاق حكمها, ثم ضرب مثلا عن الأولى بدولة المماليك بالمشرق, وعن الثانية بالدولة الموحدية بالمغرب التي استظهرت بجند زناتة والعرب.**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.177-178**, و نحن نضيف القبائل المستعصية عليهم, كالدولة الزيانية على عهد أبي حمو موسى الثاني, التي استظهرت بالقبائل العربية (بني عامر فرع من فروع بني هلال), فاستعان بهم لتأسيس دولته, وهم استفادوا من ذلك بأن حصلوا على السلطة داخل الدولة الزيانية, ينظر **لخضر عبدلي: التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان , ديوان المطبوعات الجامعية وهران1428ه-2007م ,ص 146-149**, ينظر كذلك **عبد الرحمن بن خلدون:العبر, ج7,ص.163 وما بعدها**

([67]) يؤكد محقق الأدلة البينة, أن ابن الشماع اختص بذكر نسب الحفصيين,**الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية,تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري,الدار العربية للكتاب1404ه-1984م,ص.48**

,وأما انتسابه إلى عمر بن الخطاب فاعتبره كثير من المؤرخين خطأ وتَوَهُّم, أنظر قول محقّق كتاب **عبد الرحمن بن خلدون, رحلة بن خلدون, عارضها بأصولها وعلق حواشيها, محمد بن تاويت الطنجي,دار الكتب العلمية بيروت-لبنان,ط1 1424ه-2004م, ص.32** كما أن المؤرخ الفرنسي **روبار برنشفيك** وهو من أهم المؤرخين الفرنسيين المختصين في تاريخ المغرب الإسلامي, ذكر الاسم الحقيقي لوالد أبومحمد عبد الواحد, أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي, وهو " فصكة و مزال أنتي", وهو اسمه البربري الحقيقي, وجاء في تهميش نفس الصفحة: يرجع تعريب هذا الاسم إلى المهدي ذاته الذي كان يعتبر نفسه, بمثابة الرسول محمد الجديد, فأرادأن يكون إلى جانبه أبو حفص جديد.**تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر, نقله إلى العربية حمادي الساحلي , دار الغرب الإسلامي, ط1 1408ه-1988م,ج1,.ص42,**

والشيخ أبو عمر من هنتاتة[68], وهم من قبائل المصامدة من جبل درنة, وقبيلة هنتاتة من أعظم قبائلهم, وأكثرهم جمعا وأشد قوة, وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي الموحدي, والممهدون لدولته,ودولة عبد المؤمن من بعده"[69].

وسبب تولي أبو محمد عبد الواحد حكم ولاية أفريقية بعد اختياره له من قبل الناصر ابن المنصور[70], هو ما كان لهذا الشيخ في نصرة الدولة الموحدية, وهزيـــمته لابن غانية[71] في تاجرة من جهة قابس.

إعتلى إمارة تونس سنة603ه-1206م[72], ثم كان استقلال المغرب الأدنى عن الدولة الموحدية سنة 634ه-1236م, حين عقد أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد البيعة لنفسه, وهو المؤسس الفعلي للدولة الحفصية[73].

تميزت الدولة الحفصية بصبغتها الموحدية رغم انفصالها عنها, وذلك راجع لعدّة أسباب, منها كون الحكام الحفصيين أحفاد صاحب المهدي(أبو حفص عمر الهنتاتي),وعليه عمل أبو زكرياء

و جاء عند **ابن خلدون** والبيدق, أن اسمه فارصكات أو فاصكات وفاسكات, أنظر على التوالي,**العبر, ج6, ص.370** , **أبي بكر بن علي الصنهاجي (المكنى بالبيدق): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين , دار المنصور , الرباط 1390ه-1971م, ص.31..**

إلاّ أن **ابن خلدون** ذكر نسبه وأرجعه إلى عمر بن الخطاب نقلا عن ابن نخيل و غيره,وفسّر ذلك بوقوع نسب قرشيّ في المصامدة واختلط بهم.**العبر,ج6 ص.371**

(68) سوف نشير إليه بشيء من التفصيل في الفصل الثاني

(69)**أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشمّاع, الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية, ص. 48**

(70) أنظر ترجمة الناصر, وكيف أنه خلّف أبو محمد عبد الواحد على إفريقية فاستقرت قدم بني حفص بهذه البلاد. (**ابن أبي دينار)أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية و تونس, المطبعة التونسية, الطبعة الأولى 1286ه-1869م, ص117.**

(71) أنظر شأن بني غانية وأحوالهم أثناء حكم الموحدين ,**عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب,تحقيق محمد سعيد العريان,المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, الجمهورية العربية المتحدة,ص.342-347**

(72)**عبد الرحمن ابن خلدون: العبر ,ج6, ص.334**, كذلك **ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب , قسم الموحدين, تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و محمد بن تاويت و محمد زنيبر و عبد القادر زمامة, دار الغرب الإسلامي , لبنان , الطبعة الأولى1405ه-1985م, ص.248-249**

(73) كان بداية الاستقلال عن الموحدين سنة627ه-1229م حين أسقط من الخطبة إسم الخليفة الموحدي, لكن استقلاله الفعلي كان بتركيز السلطة بيده سنة 634ه-1236م, ينظر **روباربرنشفيك: تاريخ أفريقية في العهد الحفصي,ج1, ص51**, كذلك **ابن الشمّاع:الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية, ص58**, كذلك **الزركشي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية, تحقيقي وتعليق محمد ماضود, المكتبة العتيقة, تونس,ص.27.**,كذلك **التَّنسي محمد بن عبد الله:تاريخ بني زيان ملوك تلمسان,مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان,حققه وعلّق عليه محمود أغا بوعيّاد, المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الجزائر1432ه-2011م,ص 116**

على إظهار الصبغة الموحدية على دولته, بحيث ظهرت صبغة العصبية في الحكم, كما تقلّد أعلى المناصب في الدولة بعض أقربائه وكذلك الموحدين[74], لاسيما من أبناء قبيلة هنتاتة[75].

أما في المغرب الأوسط فقد ظهرت دولة بني عبد الواد وهم من الطبقة الثانية من زناته[76], من ولد يادين بن محمد, إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد, وكانوا جَمِيعَهُم متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط, وهم تابعين لبني وامنوا وبني يلومي[77].

([74]) نصادف اسم الموحدين في عدد من المصادر والمراجع التي تتكلم عن الدولة الحفصية ويقصد بهم الطبقة الحاكمة من قبيلة هنتاتة, ولا يجب الخلط بين هؤلاء والموحدين الذين سماهم المهدي بن تومرت- أنظر عن سبب تسميتهم بهذا الاسم و مدلوله في كتاب , **علي محمد محمد الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين", دار البيارق , عمان, ج5 ص.36**- فهؤلاء دولة وأولئك دولة أخرى نتجت لضعف الأولى, و يمكن أن يجتمع المعنيين في مُؤلّف واحد .

([75])**روبار برنشفيك, تاريخ أفريقية في العهد الحفصي,ج1, ص.53** , ويقول **ابن خلدون:** " واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهنتاتي, وجعل شواره (أي مشورته) لعبد الله بن أبي تهدي, وجبايته لعبد الحق بن ياسين , وكلهم من هنتاتة), **العبر ,ج,6, ص.383**.

([76])يؤكد **عبد الرحمن ابن خلدون** أن نسب زناتة بين البربر, أنهم من ولد شنا, وشنا حسب أبو محمد بنحزم الذي أخذ عنه ابن خلدون, هو جنا بن يحيى بن صولات بن ورماك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر, و مادغيس هو مادغيس الأبتر وزناتة هم من ولده وعليه سموا بالبربر البتر وهم من ولد كنعان بن حام.

أنظر,**العبر: ج6, ص.117 و ج7, ص.4**.

أما علي بن أبي زرع الفاسي, **ويحيى بن خلدون** فيرجعان جنا أو(شنا) هذا إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وبالتالي دخولهم في النسب العربي,**الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية, دار المنصور الرباط 1392ه/1972م,ص15,و بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد, مطبعة بيير فونطانا, الجزائر 1321ه/1903م,ط1,ص.95** ,لكن ابن خلدون يخالف ذلك لما في هذا النسب من مزيّة.**المصدر السابق ,ج7,ص.6**.

كما أن زناتة طبقتين وتضمان عدة قبائل أهمها: مغراوة بني يفرن وجراوة و بني يرنان, ووجديجن, وغمرة, و بني يجفش, وواسين, وبني تيغرست وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني بارزال, وبني ورنيد وبني رانداك وغيرهم.**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ج7,ص.11**.

و بني عبد الواد يتفرع منهم عدّة بطون أهمها ستة: " بنو ياتكين, وبنو وللّوا, وبنو ورصطف, ومصوصة, وبنو تومرت, وبنو القاسم", ينظر **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ج7,ص97**, كذلك**يحيى بن خلدون:المصدر السابق,ص.95-96**,وفي سجيج أو(سجيح) يجتمع نسبهم ونسب بنو عمومتهم من بني مرين عند صاحب البغية, أما عند ابن خلدون فهم يجتمعون مع بني مرين في زحيك بن واسين بن وارسيك بن جانا,**يحيى بن خلدون:المصدر السابق,ص.95-96,عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ج7,ص.97**

انحصرت مواطنهم قبيل العهد الموحدي, فكانوا يترددون ما بين فكيك ومديونة إلى جبل بني راشد ومصاب.**لخضر عبدلي:التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان, ص.37**

([77])هاتان القبيلتان من قبائل زناتة ومن توابع الطبقة الأولى, وهما من أوفر بطون زناتة (أي أكثر عددا) وأشدّ بأسا, ومواطنهم بالمغرب الأوسط. **عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج7,ص74** ,**بوزيان دراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها, دار الكتاب العربي, ط4 1431ه-2010م,ج1,ص235-239** .

منهم من أرجع نسبهم إلى القاسم بن إدريس, ولكن يغمراسن بن زيان[78]أجاب حين سئل " إن كان هذا صحيحا, فينفعنا عند الله , وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا" [79].

كانت رياستهم في بني القاسم لشدة شوكتهم وقوّة عصبيتهم, ولما ملك الموحدون بلاد المغرب ,أقطعوهم عامة بلاد بني وامنوا فأقاموا في تلك المواطن[80].

تسبب هرم الدولة الموحدية من جهة, وقوّة عصبية الزناتيين من جهة ثانية, إلى تطاول بني عبد الواد واستيلائهم على تلمسان, وكان أمرهم جميعا في البداية إلى شيخهم جابر بن يوسف بن محمد[81], وهو ابن عم زيان والد يغمراسن, ثم وبعد تتابع أحداث يطول ذكرها آل حكم بني عبد الواد إلى يغمراسن بن زيان[82]المؤسس الفعلي للدولة الزيانية, الذي استقل بالملك على عهد الرشيد عبد الواحد بن إدريس المأمون, سنة 633ه/ 1235م[83].

كذلك كانت الدولة المرينية التي تأسست على أكتاف قبيلة مرين[84], وهم فخذ من زناته كما تقدم كانت الرّياسة فيهم لورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين, وكان له أربعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهما حمامة وعسكر.

---

[78]هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي , أمير المسلمين أبو يحيى , أول من استقل بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد, بويع له سنة 633ه-1235م. **ابن الأحمر إسماعيل: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان, تقديم و تحقيق وتعليق هاني سلامة, مكتبة الثقافة الدينية, ط1 1421ه-2001م,ص.59.**

[79]**عبد الرحمن بن خلدون: العبر ,ج7, ص.97**

[80]**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه ,ج7 ص.97-98**

[81] جابر هذا انتقم من كندوز من قبيلة بني كمين الذي قتل شيخ بني طاع الله , زيان بن ثابت بن محمد والد يغمراسن , أثناء الفتنة التي وقعت بين القبيلتين, وهو الذي استقل عن الموحدين سنة 627ه-1230م في عهد الخليفة المأمون إدريس بن المنصور (تولى الحكم من سنة 624ه/1227م إلى سنة 630ه/1232م) أنظر **عبد الرحمن بن خلدون: نفسه,ج7,ص98-100 ‘ كذلك يحيى بن خلدون, بغية الرواد, ص.104-106**

[82], يقول **عبد الرحمن ابن خلدون** حول يغمراسن بن زيان: " كان يغمراسن بن زيان بن ثابت من أشد هذا الحي بأسا, وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالا, وأعرفهم بمصالح قبيله وأقوامهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعا بالتدبير والرياسة,شهد له بذلك آثاره قبل الملك وبعده" **المصدر السابق,ج7,ص.106**

[83]**لخضر عبدلي: التاريخ السياسي لمملكة تلمسان,ص.40**

[84], أنظر نسبهم عند, **علي بن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية, ص.14**. كذلك لنفس المؤرخ **الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة و الوراقة الرباط ,1392ه-1972م,ص. 278**

– جاء **عند ابن خلدون** و هو يذكر الطبقة الثانية من زناتة, أنها تشتمل على بطون منها, بنو مرين وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة, ومنهم بنو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوة وبنو توجين من بعدهم وغيرهم.**العبر,ج7,ص.79و 97**

– نلاحظ هنا أن كلا من علي بن أبي زرع الفاسي و يحيى بن خلدون أرجعا نسب زناتة إلى عدنان, أي أنهم عرب, وهذا حسب رأينا راجع إلى أن كلا المؤرخين كتبا تاريخهما تحت طلب سلطاني الدولتين المرينية والزيانية.

لما مات ورزير خلفه ابنه حمامة, وكان أكبر أولاده ثم من بعده شقيقه عسكر ثم ابنه المخضب بن عسكر الذي مات سنة 540ه-1145ه, فقام بأمر مرين ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد, ثم آلت السيادة إلى ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر , وشارك هذا الأخير في غزوة الأرك[85], على عهد يعقوب المنصور الموحدي بالأندلس[86], توفى هنالك فخلفه ابنه عبد الحق بن محيو[87]وبقيت في عقبه الزّعامة.

ضعفت الدولة الموحدية بعد معركة العقاب 609ه/ 1212 م[88] بالأندلس, ومات الناصر خليفة الموحدين وهلك معه عدد كبير من جيشه مع حلول الوباء الذي زاد الطين بله, بالإضافة إلى إنتقال الحكم لابن السلطان المتوفى الصبي يوسف المنتصر.

في هذه الأثناء كان بنو مرين يستوطنون بلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة, ينتقلون بين القفار والصحاري, لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا يخضعون لدولة ولا يعرفون تجارة ولا زراعة, وإنما يمتهنون الصيد والغارات على أطراف البلاد[89].

و كانت طائفة منهم تلجأ إلى تخوم المغرب وتلولها زمن الربيع والصيف, لأجل الرعي ثم يرجعون إلى أوطانهم , ولما كانت سنة 610ه-1213م,وجدوا البلاد قد تبدل أحوالها فلا حامية لها كما عهدوا من قبل, فاغتنموا الفرصة واستقروا في الأراضي الخصبة وفرضوا سيطرتهم بالخيل والركب, وبالغارات والنهب, و يعتبر عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني أميرهم[90].أما يعقوب بن عبد الحق فهو المؤسس الفعلي للدولة المرينية, حيث قضى على أحلام

---

(85), المعركة التي جرت بين جيش الموحدين بقيادة الخليفة يعقوب المنصور والأدفنش(ألفونسو الثامن ملك قشتالة) سنة 591ه-1195م, و التي كان النصر فيها من نصيب المسلمين,**عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب, ص.357-358**, كذلك **لسان الدين بن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية,تصحيح البشير فورتي, مطبعة التقدم الإسلامي , تونس,ط1,ص.121.**

(86) أنظر ترجمته وأعماله عند **عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص.336-384.**

(87),أنظر ترجمته وأعماله عند **علي بن أبي الزرع الفاسي:الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية,ص.30.**

(88) وقعة العُقاب بين الجيش الموحدي بقيادة الخليفة أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن , الملقب بالناصر بن المنصور وجيش النصارى بقيادة الأدفنش, وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين, **عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق, ص401,ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب,ص. 263, عبد الرحمن: المصدر السابق,ج6,ص.335-336 , السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى, تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري,دار الكتاب الدار البيضاء,الجزء الأول1373ه-1954م, ص.193 و ما يليها.**

(89),هذا ما عرف عند **ابن خلدون** أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب على ممن سواها, وكذلك إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع, **المقدمة,ص.172 و ص.182**

(90), أنظر **علي بن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية,ص.22-27**, كذلكنفس المؤلف:**الأنيس المطرب ص.281, كذلك أبو العباس الناصري ,الاستقصاء, ج3,ص.4-5**

يغمراسن بن زيان في التوسع إلى ما وراء نهر ملوية[91], بل انقلب الوضع على دولة بني عبد الواد حيث حاصرها السلطان المريني يوسف بن يعقوب سنة 698ه-1299م لمدة سبعة سنوات[92]وضفر بها المرينيون فيما بعد[93] .

كما تمكن يعقوب بن عبد الحق من فتح مراكش سنة 668ه/1269م و مقتل آخر خلفاء الموحدين, أبي دبوس ابن عم الخليفة المخلوع المرتضى, بعدما صد المرينيون محاولة يغمراسن من مساعدة أبي دبوس ضدهم وهُزِم في معركة تلاغ من سنة666ه/1268م[94].

شهد المغرب الإسلامي في هذه الفترة صراع سياسي مرير بين تلك الدول التي تكونت بعد سقوط الموحدين ولعلّه صراع عصبيات بحد ذاتها.

- فالدولة الحفصية نتجت من صميم الدولة الموحدية, فكانت الزعامة فيها إلى قبيلة هنتاتة التي هي من أعظم قبائل المصامدة, حيث أراد زعماء هذا القبيل الاستفراد بالملك بعد ضعف الموحدين, بحيث تقوت عصبيتهم على عصبية الأسرة الحاكمة,وهذا ما عُرف عند ابن خلدون﴿أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية﴾ [95].

([91])حيث نجد أن يغمراسن بعد تأكده من عدم قدرته على بني مرين, بعد أن سقطت حاضرة الخلافة الموحدية تحت أيديهم (مراكش) يوصي ابنه عثمان بعدم التعرض لهم والانقلاب إلى جهة الشرق عسى أن يحقق ما عجز عنه جهة الغرب,**عبد الرحمن بن خلدون: العبر ,ج7 ص**.123.

([92])هذا الحصار يذكره محمد بن عبد الله التنسي بالحصار الطويل, حيث أنه وبعد خمس محاولات,أربعة باءت بالفشل وفي الخامسة استولى المرينيون على جميع أعمال تلمسان وبنيت المنصورة, دام الحصار ثماني سنين وثلاثة أشهر, وانفضّ سنة706ه-1306م دون سقوط عاصمة بني زيان, **محمد بن عبد الله التَّنسي:تاريخ بني زيان ملوك تلمسان, ص.** 130-134 , كذلك **يحيى بن خلدون: البغية,ج1, ص.** 120-121

([93])الحصار الأول كان من قبل السلطان المريني أبو الحسن ابن السلطان أبو سعيد الذي تولى الحكم سنة 731ه/1361م إلى 749ه/1348م, و ذلك سنة 737ه/1336م .أنظر**محمد بن عبد الله التَّنسي:المصدر السابق, ص.144-145.**

أما الحصار الثاني فكان على عهد السلطان المريني أبو عنان فارس ابن أبو الحسن , و ذلك سنة 753ه/1352م, **التنسي: نفسه,ص**.153-156

([94])**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج7, ص.115**

([95])يتحقق الملك بعد الغلبة على الأمم الأخرى, فإذا تحقق لهم ذلك توجبت الرّياسة لبعضهم ليس للكل, لكي لا يكثر الهرج والمزاحمة, وهذا البعض هم المباشرون لأمر تلك الدولة أي الذين ابتدءوا الدعوة وعزّزوها بسيوفهم, ثم ينغمس هؤلاء في النّعيم, فتظهر عصبية جديدة داخلة في القبيل تكون ذات قوة وشوكة لم يلمسهم ما أصاب الأولين من التّرف والدّعة. **عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص**.151-155

- أما الدولتين الزيانية والمرينية فهما أبناء العم من زناته, وكانوا منقادين دخلوا تحت حكم الموحدين بالغلبة رغم كون قبيلهم أكثر وحشية[96] من ذاك القبيل. فلما هرمت الدولة ظهرت عصبيتهم .

ننتقل إلى بلاد الأندلس حيث كان لعبد الرحمن بن خلدون نصيب فيها من حيث العزّة عند صاحب السلطان, كما كان له منافسين تسببوا في مغادرته[97].

بعد انصراف الموحدين بقيادة أبي العلاء إدريس المأمون من الأندلس, مع ما بقي من الجند أصبحت البلاد بدون حماية تحت رحمة الصليبيين في الشمال[98], في هذه الأثناء ظهر زعماء يحاول كل واحد منهم أن يتزعم ما بقي من الأندلس, ليقيم لنفسه دولة مستقلة من نهر الوادي الكبير وما يقع جنوبه, وأهم هؤلاء الزعماء ثلاثة هم : **بنو مردنيش** أصحاب بلنسية, **ومحمد بن يوسف بن هود الجذامي** الملقب بالمتوكل, و **محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر** الملقب بالشيخ .

أما بنو مردنيش فأسّسوا لهم إمارة بلنسية بقيادة أكبرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردانيش[99], الذي بدأ أمره كاتبا وقائدا لأمير الموحدين, توارثت هذه العائلة الحكم وهي في حالة ضعف حتى سقوطها في يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس[100].

([96]) ودليلنا في ذلك هو وصف ابن خلدون لزناتة, حيث قال: " هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد معروف العين والأثر, وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين, و تخطف الناس من العمران والإباحية عن الانقياد للنصفة". **عبد الرحمن بن خلدون.العبر ,ج7, ص.3**.

فقد شبههم بالعرب من حيث خشونة العيش أي سكنى البادية وما يرافق ذلك من مشقة مع كثرة الترحال, كما أنهم كانوا يغيرون على من هم أضعف منهم و خاصة أهل الحضر.

كذلك أنهم من البربر البتر , فهم أهل وبر وعيشهم الرعي والإغارة, على عكس مصمودة الذين هم من البرانس و يستوطنون الجبال والسهول, و يمتهنون الزراعة فهم أكثر استقرارا.

([97])نشير هنا ّإلى المكانة التي تمتّع بها عند السلطان محمد الخامس(755ه-760ه/1354م-1359م) الذي كان مجلا كذلك للعلماء ومقربا لهم بحيث أكرم ابن الخطيب, وفي عهده دخل عبد الرحمن بن خلدون (732ه-808ه/1332م-1407م) الأندلس فأكرمه السلطان وكان ابن الخطيب يجله, **بوحسون عبد القادر: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني (633ه-962ه/1235م-1554م), مذكرة ماجستير قسم التاريخ, جامعة تلمسان 2007-2008 , ص.25**. كذلك تعرضه إلى آفة قديمة مسته في هذا البلد(نعني بها الحسد), كما لم ينجوا منها في بلاد المغرب , ولكن في هذه المرّة كانت من أعزّ أصدقائه .

([98])**حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس , مكتبة الأسرة للأعمال الفكرية1425ه-2004م , ص.441**

([99])وابن ماردنيش من أصل إسباني وهو من المولّدين الذين اعتنقوا الإسلام, أصل لقبه من كلمة(martinez) , ثاروا على المرابطين في أيام ضعفهم ومنهم كذلك ابن قسي.

إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين , دار الطليعة بيروت ص. 43-45

([100])**حسين مؤنس:: المرجع السابق, ص.441**

وكان محمد بن يوسف بن نصر الجذامي بن هود الملقب بالمتوكل, الذي جمع حوله من كان همهم انقاد الأندلس من النصارى, وقد بدأ نشاطه سنة625ه-1228مفدخلت في طاعته مرسية وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وألمرية وعدد آخر من الحصون والمدن, لكنه كان يفتقر إلى خصال القائد حيث كان شجاعا طائشا فزجّ جيشه في معارك خاسرة[101], وكان مما يأخذه التاريخ على هذا الرجل تلك الخيانة التي أدت إلى سقوط قرطبة تحت حكم ملك قشتالة, فرناندو الثالث, بعد أن تنازل له ابن هود عن ثلاثين حصنا[102]لكن فرناندو زاد طمعه في استرداد قرطبة[103], ورغم استنجاد أهلها بابن هود إلاّ أنه تحجّج بإغاثة ألمرية فسقطت تحت رحمة القشتاليين سنة(633ه/1236م), وربما عاجله الله بالموت جزاء خيانته بحيث قتل من قبل عامل من عماله وهو عبد الله الرميمي خنقا[104] .

آل الأمر إلى الغالب بالله الشيخ " أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي ت671ه-1272م" من ولد أمير الأنصار "سعد بن عبادة "[105], وأصلهم من أرجونة من حصون قرطبة.نودي محمد بن نصر رئيسا بقريته أرجونة وأعلن نفسه أميرا على الأندلس من جِيَانْ بعد توافد الجند عليه, وتبعت له قرطبة لكن القرطبيين تنكّروا له وأعلنوا ولاءهم إلى ابن هود [106].

أعلن ابن الأحمر دخوله في طاعة ابن هود سنة (631ه/1234م)مكتفيا بإمارة أرجونة وجيان وضواحيها[107].

توجّه ما تبقى من ثغور الأندلس نحو ابن الأحمر لِما لمسوه من سفاهة ابن هود وسوء نيّته, وأعلنت غرناطة طاعتها له, فدخلها سنة (634ه/1237م) وجعلها عاصمة حاضرته بدل جيان المُهَدَّدة باستمرار من قبل النصارى, يعاونه في حكمه أصهاره بنو أشقيلولة الأشدّاء, ولما قتل ابن

([101])**حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس, ص. 442**

([102])**المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب , ج1, ص.448** كما بين المقري أن ابن الأحمر وصل في أول أمره يده بالطاغية أي الملك القشتالي , هذا ما دفع ابن هود أن يتنازل على هذه الحصون للقشتاليين.

([103])**شكري فرحات يوسف:غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية), دار الجيل, بيروت, ط1,1413ه- 1993م, ص.18**

([104])**حسين مؤنس: المرجع السابق, ص.443,كذلك شكري فرحاتيوسف:المرجع السابق ص.18**

([105])**ابن خلدون عبد الرحمن: العبر,ج4,ص.218 والمقري أحمد بن محمد: المصدر السابق,ج1 ص.447.**

([106])**المقري نفسه,ج1 ص.447.**

([107])**شكري فرحات يوسف:المرجع السابق , ص.18.**

هود في "ألمرية" دخل ابن الأحمر إلى المدينةسنة (635ه/1237م) أما مالقة فقد أعلنت ولاءها لابن الأحمر في السنة الموالية[108] .

ضمت مملكة غرناطة ثلاث ولايات:

غرناطة : و أهم مدنها غرناطة, لوشة , وادي اش[109]

مالقة: و أهم مدنها مالقة , رندة [110]

الجزيرة الخضراء[111], جبل طارق[112].

ألمرية : وأهم مدنها ألمرية, برجة, بيرة[113].

أصبحت غرناطة رابع قوة سياسية في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد مملكة قشتالة وأرغون والبرتغال, وشغلت ما يقدر بعشر مساحة البلاد, ورغم كونها أضعف هذه الممالك إلا أنها عاشت ما يزيد على القرنين ونصف القرن أي من (635ه-1238م إلى 897ه-1492م), ولهذا أسباب أهمها : النزاع بين الممالك النصرانية الثلاثة, كذلك تحالف غرناطة مع بني مرين أحيانا وأحينا أخرى مع المسيحيين وخاصة الأرغون حسب الظروف,بالإضافة إلى موقعها الجغرافي المطل على عدوة المغرب[114].

في هذه الفترة عرف المشرق الإسلامي ضعف الدولة العباسية, ونشوء دولة المماليك[115] البحرية في مصر على أنقاض الأيوبيين, فقد قام الظاهر بيبرس البندقداري

([108])**شكري فرحات يوسف: غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية), ص.20**

([109])واد آش : مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تَطَّرِد حولها المياه والأنهار. **الحميري محمد بن عبد المنعم:الروض المعطار في خبر الأقطار, حققه إحسان عباس , مكتبة لبنان,الطبعة الثانية1404ه-1984م, ص.604.**

([110])رندة : هي بالأندلس من مدن تاكرنّا وهي مدينة قديمة بها آثاركثيرة,**الحميري: نفسه,ص.269**

([111])وهي الجزيرة الخضراء ويقال لها جزيرة أم الحكيم, وأم الحكيم إسم جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير,كان حملها معه فتخلّفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها . **الحميري:نفسه,ص.223**

([112])جبل طارق : يسمى جبل الفتح , ينسب إلى طارق بن زياد الزناتي

([113])**بوحسون عبد القادر: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني, ص.15**

([114])**علي الحجي عبد الرحمان: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92ه-897ه/ 711م-1492م), دار القلم دمشق, الطبعة الثانية1407ه-1987م, ص.520**

([115])المماليك البحرية والبرجية : هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي, لاسيما في مصر والشام في صراعهم ضد بعضهم البعض, في خضم الفوضى السياسية التي نشبت عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي,**قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك, دار الشروق القاهرة,ط1,1414ه-1994م,ص7** ,

وقد ذكر **سعيد عبد الفتاح عاشور** , أنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة589ه-1193م, قُسِّمت الدولة على ورثته من الأيوبيين, وما لبث أن نشب بينهم صراع حول الحكم ترقّى إلى الحروب, كما دخل في هذا الصراع ورثة

بصد هجوم المغول في معركة عين جالوت سنة(658ه–1260م)[116], الذين تمكنوا قبل ذلك من إسقاط بغداد حاضرة الخلافة سنة(656ه–1258م), بعد ذلك نشأت دولة المماليك البرجية, على يد القائد قلاوون سنة(671ه–1273م),وجعل ولده برقوق مقر قيادته في أبراج القاهرة, وفي أيامهما استوطن عبد الرحمن بن خلدون مصر, ولعب دوره السياسي المعروف مع قائد المغول تيمورلانك حين استلائه على الشام[117].

كذلك ظهرت الدولة العثمانية بالأناضول وبرز فيها كثير من الملوك العظام, كأورخان الذي كان أول من نظم الجيش العثماني, وبايزيد الذي قضى على النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى, وواجه في نفس الوقت خطر الصليبيين الذين تجمعوا من دول أوروبا الغربية وبلاد البلقان, تحت رعاية الملك المجري سنة 736ه-1336م, فسحق جيوشهم بايزيد, إلاّ أنه هزم أمام الزحف المغولي حيث تمكنوا من اقتحام بلاده واعتقاله[118].

البيوتات الأخرى مثل آل زنكي, وبالتالي عمد كل طرف إلى **تقوية عصبيته** باتخاذ المماليك في جيشه, وبالتالي كانت البداية لعهدهم. **العصر المماليكي في مصر والشام: دار النهضة العربية, القاهرة , ط21396ه - .1976م, ص.3**

(116) هي بين المعارك التاريخية التي تبعث في المسلمين روح المجد, وعين جالوت هي بلدة بين بيسان و نابلس كما جاء عند **ياقوت الحموي: معجم البلدان, دار صادر بيروت, ج4,1397ه-1977م, ص.177**

دارت هذه المعركة بين جند المسلمين, متمثلة في الجند المصري بقيادة الملك "قطز" والأمير "ركن الدين بيبرس البندقداري" من جهة, والجند المغولي بقيادة القائدين "كتبغا" و "بيدرا", سنة (658ه–1260م) , أي بعد سنتين من سقوط الخلافة العباسية في بغداد (656ه–1258م), على يد هولاكو.أنظر : **تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك, تحقيق عمر عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية لبنان, ج1, ص.514–517**, كذلك , **قاسم عبد قاسم و علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري, عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية. مصر ,ص.137–171.**

كانت هزيمة التتار على يد الملك قطز وقائد جيشه الظاهر بيبرس,ثم انتقل الملك إلى الظاهر بيبرس الذي يتهم بقتل سيده, لكنه ورغم ذلك تمكن من توحيد الشام ومصر والحجاز وغيرها من الأقاليم تحت حوزة المسلمين ينظر, **عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام , المكتبة العباسية, دمشق , ط2,1392ه-1972م,ص.50 و51 و52, كذلك, قاسم عبد قاسم و علي السيد علي, المرجع السابق, ص.148**

(117)**إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ,دار الرشاد الحديثة,الدار البيضاء, ,ط1 1398ه-1978م,ج2,ص.8**

(118) مع نهاية القرن الرابع عشر هجري, تمكن أحفاد عثمان, وهو مؤسس للسلالة العثمانية من تأسيس دولة كبيرة تمتد من الدانوب إلىالفرات, و يعود الفضل في ذلك للسلطان بايزيد الأول (1389م–1402م)المعروف بلقب "يلدريم" الصاعقة بحيث هزم الجيش الصليبي في معركة "نيقوبوليس" (NICOPOLIS) سنة794ه–1396م, الذي كان يضم خيرة فرسان أوروبا آنذاك, وتحدى سلطنة المماليك التي كانت أقوى دولة إسلامية في ذلك الحين, كما تحدى تيمورلانك فَهُزِم, وفشلت محاولته في إنشاء دولة عثمانية تُحْيِ عظمة الدولة الإسلامية, بل كادت الدولة الناشئة أن تندثر مع السيطرة المغولية, إلا أنها انبعثت من جديد حوالي سنة 817ه–1415م, وفي سنة 857ه–1453م فتح محمد الفاتح القسطنطينية, وتحقق الحلم بتأسيس الدولةالعثمانية,**خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار, ترجمة.م.الأرناؤوط, دار المدار الإسلامي ليبيا, ط1 1422ه-2002م, ص.13, 29و30و31.**

عرفت أوروبا في هذه الفترة دولا تكونت وسارت إلى طريق الوحدة السياسية, كما بدأت تسودها مظاهر الحضارة التي تأثروا بها من خلال احتكاكهم بدول المشرق والمغرب الإسلاميين, وبلاد الأندلس, وكان للحروب الصليبية أثر بالغ في هذا الاحتكاك ونقل الحضارة من بلاد العرب إلى بلاد العجم[119].

هكذا ظهر في هذه الفترة ملوكاً كالقديس لويس التاسع[120] بفرنسا(1226م-1270م), وريتشارد قلب الأسد بإنجلترا(1133م-1157م), و تشكلت مملكة القبطيين وفيهم القديس المذكور

([119])تنوعت الصِلات الثقافية بين أوروبا الغربية ومراكز الحضارة الإسلامية ومن هذه المراكز :

- بلاد الشرق الأدنى : وهي تلك البلاد التي تعرضت للحملات الصليبية, وأهمها الشام ومصر والتي استمرت قرنين من الزمن, وذلك خلال العصور الوسطى المتأخرة, أو الفترة الانتقالية إلى العصر الحديث, في هذه الفترة كانت أوروبا تسير بخطوات بطيئة, وكان لتلك الحملات الأثر الوخيم على البلاد الإسلامية,

و بالعكس أخرجت أوروبا من غيبوبتها وساعدت في انفتاحها على حضارة المسلمين. **عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى. دار الفكر العربي. 1419ه-1999م-ص.7**

بدأت تلك الحملات في الربيع الثاني من سنة 491ه – 1098م , و انتهت في شعبان من سنة 690ه –1291م وتزامن معها الاجتياح المغولي على العالم الإسلامي, الذي أجهز على ما تبقى للأمة الإسلامية بإسقاط الخلافة العباسية في بغداد سنة656ه– 1258م , على يد هولاكو المغولي, ولم تنتهي تلك النكبات مع خروج الصليبيين من بلاد الشام, أو مع انحسار المد المغولي عنها, بل أستمرت حوالي قرنين من الزمن, بشكل متقطع إلى أن انتهت على يد الأتراك العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح857 ه– 1453م.

سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى, مكتبة العبيكان. ط1 . 1430ه–2009م, ص. 5

كما كان للعلماء المسلمين الفضل في حماية بقايا الحضارة اليونانية والرومانية وحتى الفارسية, وكان لنشاط حركة الترجمة على العلوم في العصر الأول للخلافة خاصة على عهد الخليفة المأمون, الأثر البالغ في ذلك.

- شبه جزيرة إيبيريا : بحيث حكم العرب شبه الجزيرة الإيبرية ما يقارب الثمانية قرون, فأصبحت قلعة علم ومنارة تتجه نحوها العقول والألباب, فامتلأت بالمدارس والمعاهد.
- صقلية: حكمها العرب مدة تزيد عن القرنين والنصف, ونقلوا إليها جوانب الحضارة الإسلامية حتى أصبحت منارة للعلم و ملأت أوروبا بضيائها.

عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين, التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى,ص.8.

([120]) لويس التاسع (1226م–1270م), تولى العرش و هو في الثانية عشر تحت وصاية أمه" بلانش القشتالية " وسمي بالقديس, فدفعته حماسته الدينية لشن الحملة الصليبية السابعة, توجه نحوة القاهرة حيث أنها مفتاح بيت المقدس في نظر الصليبيين, فاحتل دمياط سنة1249م, وتوجه إلى القاهرة لكنه هزم بالمنصورة وسقط أسيرا, ولم يطلق سراحه إلاّ بعد دفع فدية كبيرة تقدر بالملايين. **سعيد عبد الفتاح عاشور, تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, دار النهضة.1390ه-1976م.ص.230**,إلاّ أنه أصرّ وشن حملته الصليبية الثامنة نحو تونس هذه المرة, ولكنه في هذه الأخيرة فقد حياته. **عبد الرحمن بن خلدون. تاريخ ابن خلدون, المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر .ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة,ومراجعة سهيل زكار, دار الفكر لبنان1421ه–2000م .ج.6.ص.424–429**

- حكم فيليب الثالث الجريء من 1270م إلى 1285م , بعد أبيه لويس التاسع, واعتبر عهده قليل الأهمية , لكنه كان يمثل المرحلة الانتقالية بين الملكية الإقطاعية التي ميزت عهد أبيه, والملكية القومية التي ميزت خلفه فيليب الرابع(1285م–1314م),

وابنه فيليب الجسور أو الجريء أو الثالث(1270م-1285م).وظهرت دولة الفاليين (les Valois),التي امتد ملكها في فرنسا من1328م إلى 1483م.

ثانيا: التعريف بابن خلدون وتتبع خطوات رحلته:

تلكم هي الأحوال السياسية العامة التي تميز بها العصر الذي نشأ فيه عبد الرحمن, وما يلاحظه الباحث هو الطابع الذي ميز رجاله, من سياسيين واجتماعيين ومفكرين(121).

كان عبد الرحمن من جملة من تأثروا بذلك الواقع, إلاّ أنه فضل الرحلة والتنقل في ربوع المغرب الإسلامي خاصة الغربي منه على المكوث والاستقرار في بلد واحد, لما كان الدافع الرئيسي له هو حصوله على المناصب العالية حيث نجده يبحث عن المناصب العالية, غير مقتنع بالأدنى منها, وهذا أمر طبيعي تصبو إليه النفس البشرية,لكن هذا لَمْ يمنعه من اتخاذ العلم وطلبه غاية أخرى يرجوها و هذا جلي في تآليفه, فلو كان همه المنصب ما كان ليحصل هذا القدر الهائل من المعرفة, والتي اعترف له بها أقرانه و ذهل بها خلفه.

في خضم ذلك اكتسب عبد الرحمن خبرة سياسية كبيرة, كما تعرض لما يتعرض له كل من يتقرب من أصحاب البلاط من وشاية ومؤامرات ومكائد, فأكسبته كل تلك التجارب معرفة حقيقية للعالم الذي يعيش فيه, وربما زاده تميزا عن غيره, معاينته لجل شرائح المجتمع بعامل المناصب التي شغلها, والتي نقلته من بَحْبُوحَة القصور إلى خُشونة البداوة.

وبالتالي نحاول في هذا المبحث أن نسلط الضوء على هذه الشخصية من خلال دراستنا لسيرتها(122).

والقومية في هذا العصر ليست هي القومية التي نعرفها في عصرنا الحاضر, بل تعني انهيار نظام الإقطاع ونشأت المدن, وظهور الآداب واللغات الجديدة.**سعيد عبد الفتاح عاشور. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.ص234**

(121) نلمّح هنا إلى قضية الانفتاح العلمي الذي عرفته البلاد الإسلامية عامة والمغرب الإسلامي خاصة, وتنافس البلاطات في تحصيله, فأكرموا العلماء وقرّبوهم, نتج عنه توجّه ملحوظ في تآليف بعضهم أمثال يحيى بن خلدون مؤرخ الدولة الزيانية, وابن عذارى المراكشي أو ابن أبي زرع الفاسي مؤرخا الدولة المرينية ,وتاريخ ابن الرقيق لأفريقية والقيروان, وآخرون جمعوا بين العلم والمصلحة أمثال عبد الرحمن بن خلدون, و ابن مرزوق الخطيب , و لسان الدين ابن الخطيب .

أنظر ذكرا لذلك عند,**إسماعيل سراج الدين:ابن خلدون إنجاز فكري متجدد,إعداد وتحرير: محمد الجوهري, محسن يوسف, مكتبة الإسكندرية,مصر1429ه-2008م,ص.54.** .

(122)معظم ما سوف نورده ننقله عن ابن خلدون نفسه, حيث أنه تميز عن غيره بكتابته لسيرته الذاتية بأدق تفاصيلها في الجزء السابع من كتابه الضخم " تاريخ ابن خلدون" , تحت عنوان : التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب".

هذا المنهج لم يكن عبد الرحمن السباق إليه, فقد سبقه بعضهم لكن ما يميّزه هو منهجه الذي ينسجم مع المنهج التاريخي في التدوين والرواية بحيث أن القارئ لرحلة ابن خلدون يحسب نفسه يقرأ تاريخا لغيره وفي نفس الوقت يخبرنا بأحداث كان أولم يكن في خضمّها,**النبهان محمد فاروق: الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.94.**

1- أصـــل هذا البـــيـــت :

نســـــبـــه:

يذكر ابن خلدون عن نسبه فيقول: " أصل هذا البيت من اشبيلية, انتقل عند الجلاء وغَلَب ملك الجلالقة ابن أدفونش[123] عليها,إلى تونس في أواسط المائة السابعة".

وهو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون[124], يرجع نسبه إلى حضر موت من عرب اليمن,جدهم الأول هو وائل بن حجر[125] الذي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم, فأكرمه وفرح بإسلامه ودعا له ولعقبه [126].

استقرار سلفه في الأندلس:

ذكر ابن حزم أن بنو خلدون الاشبيليون من ولده- أي وائل بن حجر- وجدّهم الوافد إليها من المشرق هو خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد بن يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر,كان في جند اليمن أيام فتح الأندلس[127].

استقر جدهم خلدون بقرمونة[128] ثم انتقل إلى اشبيلية[129],وكان لهذا البيت الرّياسة العلمية والرّياسة السلطانية[130] أيام الأمويين ثم زمن الطوائف, إلاّ أنهم فقدوا مناصب

([123]) هو ملك قشتالةفرنانده(هرانده بن الهنشة), وهو فرناندو الثالث بن ألفونسو التاسع الذي سقطت على يديه إشبيليا سنة646ه-1248م ,وقد غادرها أكثر من أربعة مائة ألف إلى مدن الأندلس الأخرى أو العدوة المغربية .**عبد الرحمن علي الحجي: تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة,ص.482.**

([124]) حسب **عبد الرحمن** أن هذا النسب مبتورا من عشرين جدّا , **العبر,ج7,ص.503**

([125]) كان من ملوك قومه وله موقف مع معاوية بن أبي سفيان قبل خلافته تجده مذكورا عند:**ابن خلدون: نفسه,ج 2, ص.476-477**

في هذا الصدد ذكر طه حسين, بعد أن أورد الشك في نسبه, أن عدد الأجداد لا يتوافق وتلك القاعدة التي قررها ابن خلدون نفسه في مقدمته (يقصد لكل قرن ثلاثة أجيال **المقدمة,ص.179-180)**, ويضيف فيقول أنه مشروع

لنا أن نشك نحن كذلك من انتساب آل خلدون إلى وائل بن حجر, وتحجج في ذلك بعدم استعمال العرب الكتابة في فترة الفتح الإسلامي للأندلس إلا ناذرا, **طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد,ص.10.**

لكن وبرجوعنا إلى ما كتبه عبد الرحمن حول سلفه,نجده يشك في عدد الأجداد لا في النسب أنظر:**ابن خلدون عبد الرحمن, رحلة ابن خلدون,ص.27.**

([126])**ابن خلدون عبد الرحمن:المصدر نفسه , ص.27-28**

([127])**ابن خلدون عبد الرحمن,نفسه,ص.27-28**

([128])قرمونة هي مدينة في الأندلس في الشرق من إشبيلية ,..., وهي مدينة كبيرة قديمة,**الحميري محمد بن عبد المنعم:الروض المعطار في خبر الأقطار,ص.461**

([129])إشبيلية هي مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون,**الحميري محمد بن عبد المنعم: المصدر نفسه,ص.58.**

([130])**ابن خلدون عبد الرحمن: العبر,ج4,ص.175** ذكر ابن خلدون محاولة بني خلدون على يد كريب من الاستفراد بالحكم, مع ثلاث بيوت أخرى هم, بيت بني عبيدة, وبني الحجاج, وبني مسلمة, أنظر: **عبد الرحمن بن خلدون, المصدر نفسه,ج4,ص170-175,ج7,ص.505-506**

الإمارة لضعف شوكتهم[131], ثم كان لهم ظهور خلال عهد دولة بني العباد[132] بإشبيلية, حيث استوزروا من بني خلدون. وحضروا معهم في وقعة الزلاقة[133] التي استشهد فيها عدد كبير منهم[134].

نزوحهم إلى إفريقية:

لماّ وحّد الموحدون بلاد المغرب الإسلامي على عهد عبد المؤمن بن علي الكومي[135], عيّن أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي على اشبيلية وغرب الأندلس مرارا, ثم تولوا بنوه من بعهده, فكان لسلف عبد الرحمن اتّصال بهم, ومع ضعف الدولة الموحدية وتكالب النصارى على بلاد الأندلس, نزح آل خلدون من اشبيلية إلى المغرب, وكان جدّهم الحسن بن محمد قد ذكر حال سلفه بالأندلس ومكانتهم للأمير أبو زكرياء الحفصي فأكرمه وقرّبه, فكان لبني خلدون منم حينها مكانة وجاه وشغل بعضهم مناصب راقية في الدولة,دون والد عبد الرحمن محمد بن أبي بكر الذي نزع عن طريق السيف والخدمة إلى طريق العلم والرباط على حسب تعبير ابن خلدون[136].

2- نشأته وتحصيله العلمي:

وُلد بتونس سنة سبعمائة واثنتين وثلاثين هجرية, قرأ القرآن الكريم على الشيخ محمد بن سعد بن برّال الأنصاري, وتعلّم عليه علم القراءات والحديث والفقه[137],كما تعلم العربية على والده, وعلى مجموعة من الشيوخ ممن زخرت بهم الدولة الحفصية آنذاك [138],كمــــا تعلم الحديث[139]ونال فيه إجازة عامة[140]أما فيما يخص الفقه فأخذ عن جماعة من الفقهاء, انتاب

,كذلك **عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس, العصرالأولالقسم الأول(من الفتح إلى بداية عهد الناصر),مكتبة الخانجيالقاهرة,الطبعة الرابعة1414ه-1994م,ص.331-339**

([131])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر.ج7.ص.507**

([132]) أنظر عن تأسيس هذه الدولة, **عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ,ص.148, أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب,ج1,ص.438** و ما بعدها ,**العبر,ج4,ص.200** و ما بعدها , **ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب,ج3,ص.139**

([133]) الزلاقة : بطحاء الزلاقة من إقليم بطليوس من غرب الأندلس, فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمرابطين على الطاغية عظيم الجلالقة أدفونش بن فرذلند, بطلب من المعتمد بن عباد, وكان ذلك سنة تسعة وسبعين وأربعمائة للهجرة,**الحميري: الروض المعطار, ص.287-288, المقري: نفح الطيب, ج4,ص.354** و ما بعدها,**الناصري: الاستقصاء ,ج1,ص.111 وما بعدها.**

([134])**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.32,** كذلك **طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية,ص.10**

([135])**هو** المؤسس الفعلي للدولة الموحدي سوف يأتي الحديث عنه في الفصل الثاني من البحث

([136])**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون, ص.32-36**

([137])**عبد الرحمن بن خلدون: :المصدر نفسه ,ص.36-37**

([138]) يذكر من أساتذته في العربية : الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري, و أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي, وأبو العباس أحمد بن القصار, وأبو عبد الله محمد بن بحر,**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.36-37.**

([139]) وكان شيخه هو: عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي أو(الواداشي) (673ه-749ه) أنظر ترجمته عند**ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب, تحقيق محمد الأحمدي أبو النور, دار الثرات القاهرة,ج2,ص.299**, سماه ابن خلدون

مجالس آخرين[141], هذا فيما يخص علماء تونس الذين وللأسف هلكوا كلهم في الطاعون الجارف[142].

ثم إن ابن خلدون استفاد كذلك أيم إفادة من العلماء الذين وفدوا مع غزوة أبو الحسن المريني[143] على تونس عام 749ه/1349م[144],فبيّن شيوخه منهم, ولم يكتف بذلك بل ذكر حتى من لم يأخذ عنهم من باب الفائدة, مبينا فضلهم وذاكرا سيرتهم بطريقة تفيد القارئ وتعطيه نظرة عن الجانب السياسي والعلمي في تلك الفترة[145].

أخذ عبد الرحمن ما يشفيه من العلوم ونبغ فيها وهو لم يتجاوز العشرين من عمره, ولم يكتف بذلك بحيث كانت بداية رحلته إلى المغرب الأقصى لحاقا بشيوخه.

صاحب الرحلتين, الذي قرأ عليه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس, وجزءا كبيرا من كتاب مسلم بن الحجاج (صحيح مسلم), و شيئا من الأمهات الخمس, **عبد الرحمان بن خلدون: رحلة بن خلدون, ص.39**.

([140])يقول **روبيبربرانشفيك**" يمكن لأي شيخ في أي مكان أن يمنح تلميذه عند ختم درس من الدروس, رخصة كتابية تسمح له بأن يقوم مكان الشيخ و باسمه, بتدريس كتاب معين أو جميع المواد التي كان يدرسها, و يمكن أن تكون تلك الرخصة المعروفة في العربية باسم " الإجازة" خاصة أو عامة حسب الحالات".**تاريخ أفريقية في العهد الحفصي,ج2,ص.379**.

([141])أهمهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني, وأبو القاسم محمد القصير, و تعاهد في نفس الوقت مجلس عبد الله محمد بن عبد السلام , ومن أهم المؤلفات التي درسها على أيديهم : كتاب التهذيب لأبي عبد سعيد البرادعي, و مختصر المدونة, وكتاب المالكية , بالإضافة إلى موطأ الإمام مالك,**عبد الرحمان بن خلدون:رحلة بن خلدون, ص.39**.

([142]) اكتسح أوروبا انطلاقا من آسيا الوسطى الذي ظهر بها سنة746ه/1346م, ووصل إلى شمال إفريقيا سنة749ه/1349م و عرف بعدة تسميات منها: الطاعون الأكبر, و الطاعون الأسود, و الموت الأسود, والشر الأسود والفصل الكبير وسنة الفناء.

-**خالد بلعربي:المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني, دورية كان التاريخية, العدد الرابع, جويلية1430ه-2009م,ص.23** , كذلك أنظر **الرحلة, ص40, وابن الشماع: الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ,ص.97-98**

([143])هو أبو الحسن بن أبي سعيد, ولد سنة (693ه-1293م) وعرف بالسلطان الأكحل, لأن أمه كانت حبشية أخذ منها سمرة , **إسماعيل بن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين,تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية, الرباط1381ه-1962م,ص.25**, كذلك حول بيعته و بداية حكمه أنظر: **محمد ابن مرزوق التلمساني الذي قال** : كانت تقرأبين يديه العلوم المختلفة, كما انه كان ورعا وقصّة خاتم الذهب الذي كان يلبسه على خلاف العلماء في ذلك فلمّا عرف حكمه طرحه أرضا دليل على ورعه,ينظر**المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن, دراسة وتحقيق ماريا خيسوسبيغيرا,تقديم محمد بوعياد,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع1401ه-1981م,ص.124 و ما بعدها**, ولم تمنع المصاهرة بين البيتين المريني و الحفصي من توسع أبو الحسن على حساب الحفصيين,**محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني(610م-1213م,869ه-1465م),دار القلم,ط2 1407ه-1987م,ص.116 وما بعدها.**

([144]) عن حركة السلطان أبو الحسن المريني إلى أفريقية واستيلائه عليها , راجع , -**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج7,ص.354 و ما بعدها** , كذلك- **أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء,ج3 ص.157**

([145]) من بين الذين أخذ عنهم العلم: أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي, شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك كما وصفه عبد الرحمن, كذلك كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته, أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي, الذي أخذ عنه إجازة في جملة من الكتب, كذلك محمد بن إبراهيم الآبلي, الذي أخذ عنه الأصلين [ربما يقصد بهما الكتاب والسنة, لكن هذا كلام جامع يحتاج إلى تفصيل] والمنطق وسائر الفنون الحكمية, وشهد له بقوة تحصيله لكل ذلك بالإضافة إلى مجموعة من العلماء يطول ذكرهم.- **رحلة بن خلدون,ص.40-64**

3- بداية حياته السياسية ورحلاته:

عرفت حياة ابن خلدون انعطافا كبيرا, حيث انتقلت من مرحلة التحصيل العلمي إلى دخول معترك الحياة السياسية, وكان ذلك راجع لعدة عوامل أهمها:

- الطاعون الذي اجتاح العالم في ذلك الزمان, والذي عرف بالطاعون الأسود الذي سماه عبد الرحمن " بالطاعون الجارف", والذي حصد أرواحا في الشرق والغرب, ومنهم عدد كبير من العلماء والأعيان .

- وفاة والديه في هذه الجائحة, بالإضافة إلى رحيل شيخه أبي عبد الله الآبلي[146], الذي كان له العوض عن الوالدين وأدفأه بعلمه وحلمه[147].

بداية الرحلة :

كان أول اتصاله بعالم السياسة,استدعاؤه من قبل الوزير أبو محمد ابن تافركين[148] المستبد بالحكم, لكتابة العلامة[149],كان ذلك في عهد السلطان أبي إسحاق[150].

إلاّ أن عبد الرحمن كان كارها لهذا المنصب[151] لفقدانه شيوخه[152]وانقطاعه عن العلم.

---

[146]هو أعلم خلق الله بفنون المعقول كما سماه أحمد بابا التمبكتي, وقال فيه المقرّي:هو نسيج وحده ورحلة وقته في القيام على الفنون العقلية وإدراكه وصحة نظره أخذ عنه فقهاء تلمسان, أبي الحسن التنسي وابني الإمام , ومن شيوخه ابن ا لبنّاء المراكشي, ينظر**التمبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج,إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله هرامة,كلية الدعوة الإسلامية طرابلس,الجزأينالأول والثاني,الطبعة الأولى1398ه-1989م,ص411 -ص412 , كذلك القرافي بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر(ت1008ه): توشيح الديباج وحلية الإبتهاج, تحقيق علي عمر, مكتبة الثقافة الدينية القاهرة, ط 1 1425ه-2004م**

[147]**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون , ص.65**

[148] هو أبو محمد عبد الله بن تافركين أو تافرجين حاجب البيت الحفصي, وبنو تافركين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل من الخمسين, ولَّى عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين, كبيرهم على فاس, **الزركشي: تاريخ الدولتين الموحديةوالحفصية ,ص.91**

[149] يقول **ابن خلدون** في المقدمة " هي وظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة, التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع, وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية, شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد,....., وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيلته" **المقدمة, ص.253**

أبرز خطط ديوان الكتابة ووظائفه "كاتب العلامة " وهو الكاتب الذي يكتب بخطه نيابة عن السلطان في المراسيم , و يضع علامته على الكتب الرسمية.

[150] تولى الخلافة بتدبير من الوزير ابن تافركين وهو لا يزال غلاما- هذا ما عرّفه عبد الرحمن بما يعرض للدول من حَجْر السلطان والاستبداد عليه- توفي بما يعرف بموته الفجأة عام 770ه-1863م, **ابن الشمّاع أبو عبد الله محمد ابن أحمد: الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ,ص.101 و106**

[151] كانت هذه أول وظيفة تقلدها من وظائف الدولة, **إسماعيل سراج الدين: مع ابن خلدون في رحلته, كتاب اليوم, دار أخبار اليوم , العدد489,ط11427ه-2006م القاهرة, ص.26**

[152]**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.65**,كذلك **طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية,ص.13**إلا أن طه حسين يريد أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن عبد الرحمن كان ينزع للمنصب دون العلم فاستعمل كلمة (زَعَمَ: زَعْمًا وزُعْمًا وزِعْمًا, أي قال وقيل, وهو القول يكون حقا ويكون باطلا, **ابن منظور محمد بن مكرم بن علي(ت711ه-1311م): لسان العرب, تحقيق: عبد الله علي الكبير,محمد أحمد حسب الله,هاشم محمد الشاذلي, دار المعارف, القاهرة,ص.1834)** و زاد بقوله" على أنه يسوغ لنا أن نرتاب من ذلك التعليل" .

فلما تسنت له الفرصة بعد أحداث أدّت إلى هزيمة صف بن تافركين وسلطانه مع سلطان قسنطينة[153], التحق ببلاط أبي عنان بفاس وعين في منصب الكتابة على كره منه.لكنه رجع إلى طلب العلم وتحصل على بغيته من ذلك على يد مجموعة من المشيخة الوافدين من المغرب والأندلس بغرض السفارة[154].

النكبة الأولى في بلاط بني مرين:

تحصل ابن خلدون على مراده من لقاء أهل العلم بالمغرب الأقصى,إلا أنه لم يسلم من آفة البلاط ألا وهي الوشاية, حيث اتهم بالتآمر[155] مع الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية[156] ضد السلطان أبي عنان,فتعرض من أجل ذلك للسجن سنة 758ه-1357م[157].ثم ما لبث أن دخل في صف الأمير أبو سالم حين عاد من الأندلس لاسترجاع ملكه من يد القائم على ملك بني مرين, الذي تجبّر وأراد السيطرة على الحكم[158].

لقد عمل عبد الرحمن بن خلدون سَوِيًّا مع الخطيب ابن مرزوق التلمساني[159] لرد الأمر إلى

([153]) تمكن السلطان أبي زيد عبد الرحمن ابن عم السلطان أبي إسحاق من هزيمة ابن تافركين وسلطانه, لكنه سرعان ما استسلم للسلطان المريني أبي عنان الذي كان يحاول إنجاز ما أنجزه والده أبو الحسن من توحيد المغرب الإسلامي تحت حكم قبيلهم.أنظر,**العبر,ج7,ص.392-393**,**بيير برنشفيك: تاريخ أفريقية في العهد الحفصي,ج1,ص.207-208**

([154])**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون, ص.67-72, إسماعيل سراج الدين:ابن خلدون إنجاز فكري متجدد, ص.13**

يوحي لنا هذا حرص العلماء على بث العلمدون مراعاة حدود الدولة التي ينتمون إليها, حتى ولو كانوا في مهمات رسمية .

([155]) يقول في هذا الصدد **محمد فاروق النبهان**,أن هذا الاتصال كان سببه الحميمية بين العائلتين الخلدونية و الحفصية لسالف علاقتهما في الماضي كما أن عبد الرحمان لم يكن ساذجا للتآمر ضد أعظم دولة مع مسجون. **الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.43-44**

([156]) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء , ولاّه أبو عنان إقليم بجاية ليقف دونها في وجه ملوك تونس, **عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج7,ص.282**

([157]) قضى عبد الرحمن عامين في السجن , حتى أفرج عنه الوزير " الحسن بن عمر" القائم بأعمال الدولة بعد وفاة السلطان أبي عنان سنة759ه-1358م, تحجج ابن خلدون بأنه حافظ على علاقته مع صاحب بجاية تأسيا بسلفه في ذلك, **عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.73**

([158]) هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق, الذي شغل له عبد الرحمن خطة الكتابة بعد أن تغلب على الوزير الحسن بن عمر وصار الأمر له إلى حين, **عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.74**, يعاب على عبد الرحمن دخوله في خدمة الغالب ويجيب النبهان على ذلك أن عبد الرحمن ليس شخصا عاديا بل هو من المقدمين في الدولة,بالإضافة إلا أنه لم يعمل إلاّ على إرجاع الحكم إلى مستحقيه الشّرعيين, **محمد فاروق النبهان:الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.48-49**

([159]) أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق, سماه ابن خلدون بالصاحب, من أَجَلِّ علماء تلمسان, وهو سليل أسرة عالمة, حول هذا العلم وأسرته أنظر: **نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من ق7ه/13م إلى القرن ق10ه/16م ,أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط,قسم التاريخ جامعة تلمسان,2009-2010, ص.104 وما بعدها**

الأمير أبو سالم وتمّ لهم ذلكسنة760ه-1359م, فاستعمله الأمير لكتابة سره والإنشاء, ثم في آخر دولة أبي سالم تولى خطة المظالم(160).

النكبة الثانية ورحلته إلى الأندلس:

آل أمر دولة بني مرين إلى الوزير عمر بن عبد الله الذي انقلب على السلطان أبي سالم بمساعدة قائد الجند, فتفردوا بالحكم مع الإبقاء على شكله المتمثل في السلطان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن, ذرا للرماد على العيون(161).

خاف ابن خلدون على نفسه مع تلك الأحداث فطلب السماح له بالرحلة إلى مسقط رأسه دون أن يكون له ذلك, إلاّ أنه خيّر غيرها فاختار الأندلس سنة 764ه–1363م, والذي دفعه إلى هذه الوجهة العلاقة الجيدة التي كانت تربطه مع سلطانها محمد الخامس(162), ولقي هناك المنزلة الرفيعة في الأندلس, كما عين سفيرا للدولة إلى اشبيلية(163), فنجح في توقيع معاهدة السلام بين الدولتين,حتى أن ملكها عرض عليه المكوث عنده لكنه أبى(164).

---

(160)هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة, **الماورديأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ت450ه–1058م:الأحكام السلطانية والولايات الدينية, تحقيق أحمد مبارك البغدادي,مكتبة دار ابن قتيبة, الكويت,ط1 1409ه–1989م,ص.102**, يقول **ابن خلدون:** (النظر في المظالم وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونَصَفَةِ القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين و تزجر المعتدي, وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه).**مقدمة ابن خلدون, ص.230**

هذا الديوان ذو أهمية بالغة في الدولة, لأن الظلم يذهب بالأمل في الأمة, و يثبّط همتها في العمل وتنقبض أيدي الناس عن الكسب و بالتالي يؤدي هذا إلى خراب الأمصار التي هذه حالها, **عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.294**

(161) **ابن خلدون: العبر ,ج7,ص.413–416**, يرجع **عبد الرحمن** هذا الانقلاب إلى وشاية من ابن مرزوق الخطيب عليه و على أمثاله من قبل الغيرة والمنافسة, **الرحلة,ص.80**

(162) هو الغني بالله محمد بن يوسف الأول, له ولايتين: الأولى "755ه–760ه/1354م–1359م" و الثانية"762ه–794ه/1361م–1392م"أنظر **: يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر(دراسة حضارية),ص.37** .

كذلك ينظر**لسان الدين بن الخطيب:اللمحة البدرية في الدولة النصرية,صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب,المطبعة السلفية القاهرة 1347ه–1928م,ص.100**

و ملابسات هذه العلاقة, هو أن ابن خلدون هيأ للسلطان النصري الإقامة الحسنة في عهدة السلطان المريني أبي سالم حين خلع من ملكه فنزل إلى العدوة مع وزيره ابن الخطيب , أنظر في ذلك:

لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق,ص.108, المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج5,ص.84–85, لسان الدين بن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة, تحقيق محمد عبد الله عنان,مكتبةالخانجي القاهرة,ط1 1394ه–1974م,ج2,ص.27 وما بعدها, **يوسف شكري فرحات, المرجع السابق,ص 38.**

ننبه أن ابن تاويت محقّق الرّحلة اختلط عليه الأمر بذكره للسلطان النصري الخامس المخلوع أبو عبد الله أحالنا إلى تهميش صفحة سابقة في بحثه تعرّف بالسلطان الثالث محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (655ه–712ه) وهو الذي لم يكن في عصر بن خلدون, ربّما تعرّض السلطانين للخلع هو الذي عمل عملته, أنظر حول السلطانيين,**لسان الدين بن الخطيب:اللمحة البدرية,ص.47 كذلك الإحاطةفي أخبار غرناطة,ج1,ص.544, يوسف شكري فرحات,المرجع السابق,ص.30**

(163) كان ملكها هو: بيدرو المعروف بالقاسي, **إسماعيل سراج الدين:ابن خلدون إنجاز فكري متجدد,ص.14**

(164)**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.86**

رحلته إلى بجاية:

بعد أدائه لمهمته في اشبيلية, طلب من السلطان النصري أن يسمح له بالمغادرة إلى بجاية بطلب من حاكمها عبد الله محمد(165), بعد أن أحس بغيرة ابن الخطيب, وكان رحيله سنة 766ه-1365م, على كره من سلطان بني النصر,فاستقبل من قبل أمير بجاية بحفاوة حتى يقول ابن خلدون عن ذلك اليوم,أنه كان يوما مشهودا, فتقدم للخطابة بجامع القصبة, كما عيّن حاجبا للسلطان بالإضافة إلى تدريسه للعلم بنفس الجامع(166).

إلا أن القدر كان يدسّ لابن خلدون مزيدا من التعب والشقاء, بحيث لم يدم استقراره طويلا حتى نشبت حرب بين سلطان بجاية عبد الله محمد, وابن عمه سلطان قسنطينة أبي العباس(167)كان لابن خلدون دور الجَابِي والعسكري فيها, حيث عمد إلى قبائل البربر بجبال بجاية وأرغمهم على دفع الجباية, بعد أن منعوها لعدة سنين ليدعم أميره(168), لكن هذا لم ينفع بحيث قتل أمير بجاية في حربه ضد ابن عمه أمير قسنطينة, فاضطر عبد الرحمن الدخول في طاعة المنتصر(169).

لقي عبد الرحمن بن خلدون الإكرام من قبل السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة, إلا أن الدسائس ما فتأت تقصف به ,فلما أدرك خطورة المكوث , طلب الإذن من السلطان أبي العباس بالانصراف فأذن له , ثم بدا له في مصادرة أملاك أسرته في بجاية وأملاك أخيه المؤرخ يحيى بن خلدون, وسجن هذا الأخير(170),اتجه ابن خلدون بين أحياء العرب بمنطقة بسكرة مدة من الزمن, وكان له صحبة هناك (171).

الالتحاق بأبي حمو موسى الثاني(172) صاحب تلمسان:

كان بين أبي حمو موسى وصاحب بجاية المقتول أبي عبد الله علاقة مصاهرة, فلما قتل هذا الأخير زحف أبا حمو على أبي العباس المستبد على بجاية لكنه هزم, وكان قد حاول أن يستعمل

---

(165) هو ابن عم سلطان تونس أبو إسحاق الذي كان تحت كفالة ابن تافركين كما تقدم.

(166)**عبد الرحمن بن خلدون:رحلة بن خلدون,ص.90-91,**

(167) هم أحفاد السلطان الحفصي أبو بكر بن أبي زكرياء يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ولد 692ه- 1293م. **ابن الشمّاع: الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية,ص.87**

(168)حيث يقول " فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية الممتنعين من المغارم منذ سنين, فدخلت بلادهم واستبحت حماهم, وأخذت رهنهم على الطاعة, حتى استوفيت منهم الجباية " , **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.96**

(169)**عبد الرحمن بن خلدون:مصدر سابق,ص.96**

(170)**عبد الرحمن بن خلدون:مصدر سابق, ص.96**

(171) تسنت لابن خلدون دراسة أحوال القبائل عن كتب فكانت له الفرصة في المقارنة بين البدو والحضر,

عبد الأمير,ز,شمس الدين:الفكر التربوي عند ابن خلدون و ابن الأزرق,الشركة العالمية للكتاب لبنان,ط1 1416ه-1996م,ص.16

(172) تولى الحكم سنة 760ه-1359م إلى سنة 791ه-1389م, **محمد بن عبد الله التَّنسي:تاريخ بني زيان ملوك تلمسان,ص.157**

عبد الرحمن لصالحه ففشل[173], أما عبد الرحمن فاستقرّ ببسكرة عند أصدقائه العرب وتكفّل بتمرير الرسائل بين أبي حمو والسلطان الحفصي أبي إسحاق, ثم ما لبث أن عبأ له عرب الدواودة الذين كانت تجمعه بهم مودّة, وزحف الجميع على معقل أبي زيان [174] الذي اعتصم بجبل التيطري.

هنا تدخل أبو العباس بمساعدة ما بقي من أحياء رياح بالإضافة إلى المخالفين من زغبة(بني عامر, وبني سويد), فكانت الهزيمة مرة أخرى حليفة أبي حمو, فرجع قافلا إلى تلمسان.

دخوله في طاعة المرينيين ومشاركاته العسكرية والسياسية في دولتهم:

بلغ أبا حمو أن السلطان المريني عبد العزيز[175] عازم النهوض إلى تلمسان, فرجع إلى عاصمته لحمايتها,هنا طلب عبد الرحمن الإذن بالعبور إلى الأندلس فسمح له السلطان بذلك وكلّفه بنقل رسالة إلى سلطانها وفرّ هو إلى الصحراء, قبض على عبد الرحمن وهو يحاول المرور للأندلس ومعه الرسالة فاتُّهم بالتآمر مع الزيّانيين إلاّ انه تمكّن من النجاة بصدقه ومساندة من كبار مجلس السلطان المريني, فلقي العفو السلطاني وعزم على ترك السياسة والتفرغ للعلم[176], يظهر أن دور ابن خلدون وحنكته السياسية لا يُستغنى عنها,بحيث أن السلطان المريني عبد العزيز استدعاه من خلوته في العباد, مكان ضريح الولي أبي مدين شعيب[177], وكلّفه- بعد أن آنسه و قرّبه- بأن يُجَيِّش له قبائل العرب ويصلح بين المتخاصمين منهم[178], وذلك بغية القضاء على حالة عدم الاستقرار والفتن بالمغرب الأوسط الذي كان في هذه الفترة تحت حكم بني مرين.

نجح عبد الرحمن في هذه المهمة وبقى بعضا من الوقت في بسكرة عند أشياخ العرب, وفي هذه الأثناء سمع بمقدم زميله السابق لسان الدين ابن الخطيب سنة 772ه-1370م إلى المغرب

([173])أراد أبا حمو من عبد الرحمن أن يعبأ له أحياء رياح, وحفزه باستدعائه للحجابة والعلامة,**عبد الرحمن بن خلدون:رحلة بن خلدون, ص.98**

([174]) هو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن وكان مناوئا لأبي حمو موسى الثاني ,**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج7 ص.169** وما بعدها, **ابن خلدون أبي زكرياء يحيى: بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد , ج1,ص.122** و ما بعدها

([175]) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي سالم المريني, توفى سنة 774ه-,وهو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها, و أعاد إليها شبابها بعد هرمها, **السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج4,ص.52**

([176])**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون, ص.97-121.**

([177]) أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي ,صوفي يعرف بأبي مدين الغوث من ناحية إشبيلية أنظر ترجمته في: **أبو العباس الغبريني أحمد بن احمد بن عبد الله:عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابع ببجاية, حققه وعلّق عليه عادل نويهض,منشورات دار الأفاق الجديدة ,بيروت,ط2 1399ه-1979م, ص.22**

([178]) بحيث ألّف بين الدواودة و قبائل رياح, و نجح في إقناعهم بالدخول في طاعة المرينين وهم الذين كانوا من قبل في شِيعَة أبي حمو موسى الثاني , أما قبائل بنو عامر فقد أجلب عليهم المرينيون بقيادة الوزير أبو بكر الغازي فخرب قصورهم ففر أبا حمو مرة أخرى .

الأقصى, محتميا بسلطانها من سلطان بني الأحمر[179]بسبب الوشاية[180], أثناء رجوع ابن خلدون بأهله من بسكرة سنة 774ه-1372م, إلى المغرب الأقصى وصله خبر وفاة السلطان المريني عبد العزيز, واستبداد وزيره أبو بكر بن غازي على الحكم الذي كان كفيل ابن السلطان المتوفى, والذي كان لا يتجاوز الخمس سنوات[181], في نفس الأثناء ارتحل أبو حمو موسى راجعا من قفر تيكورارين[182] إلى تلمسان لاسترجاعها وتم له ذلك بمعونة القبائل العربية [183].

كان عبد الرحمن يعلم خطأه مع أبي حمو بتأليبه العرب عليه, لذلك عمل جاهدا من أجل وصوله إلى فاس[184], في هذه الأثناء كان هناك صراع بين سلطان غرناطة والوزير المريني أبي بكر بن غازي بسبب ابن الخطيب,استعان السلطان الغرناطي بأمراء بني مرين من أجل الانتقام من الوزير المستبد بالحكم وكان له ذلك[185] .

ثم يشاء الله أن يلاقي عبد الرحمن الوشاية بعد القبول من قبل السلطان الجديد أبو العباس أحمد المريني, بعد أن أصبح سلطان الدولة المرينية, فقبض عليه ثم أطلق سراحه فعزم العبور ثانية إلى الأندلس[186] .

عبوره الثاني إلى الأندلس ثم الفيئة إلى المغرب الأوسط:

رحل عبد الرحمن ابن خلدون إلى الأندلس سنة 776ه-1374م,فلقي القبول في البداية, إلا أنه أسيء به الضّن بعد وصول الفقيه ابن زمرك[187]ـــ الذي ذهب سفيرا من قبل السلطان النصري

---

(179) هو الغني بالله محمد بن يوسف الأول (محمد الخامس) ,**بوحسون عبد القادر: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط و الأندلس خلال العهد الزياني (633ه-962ه/1235م-1554م),ص.25.**

(180) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.124, الناصري: الاستقصاء ج4,ص.58,عبد الرحمن بن خلدون: العبر, ج7,ص.440**

(181) هو السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن, وهو الذي ألف فيه ابن الخطيب كتابه " إعلام الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام" ,راجع ذلك عند **الناصري:المرجع السابق ,ج4,ص.60**

(182) هي جمع لكلمة تاجرارت البربرية, تقع في الجزء الشمالي الشرقي لواحات توات, وهي مجموعة قصور تفوق المائة, وكانت مركزا تجاريا هاما تربط بين السودان والمغرب,**عبد الرحمن بن خلدون: رحلة بن خلدون,ص.180**

(183) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه ,ص.180. ولنفس المؤلف:العبر,ج7,ص.440,كذلك الناصري: الاستقصاء, ج4,ص.58,**

(184) أثناء سفره للعودة إلى فاس تعرضت قافلته للهجوم من قبل عرب المعقل أشياع أبي حمو, فتاه في الصحراء لمدة يومين ثم أدرك العمران.**عبد الرحمن بن خلدون:رحلة بن خلدون,ص.180.**

(185) نريد هنا أبناء العم الأميرين عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأبو العباس أحمد بن أبي سالم عم السلطان المريني الصبي,اللّذَيْن اجتمعا على تقاسم الحكم بينهما , **الناصري:المصدر السابق,ج4,ص.61 و ما بعدها**

(186) هنا يشير **ابن خلدون** إلى أن أخاه يحيى استأذن السلطان المريني الجديد باللحاق بتلمسان فأذن له, فأعاده أبو حمو لكتابة سره, فكتب له كتابه المشهور" بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " .**الرحلة,ص.186.**

(187)عن ابن زمرك أنظر **التمبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج , ص.478- 479, المقري:نفح الطيب ,ج7, ص.155** و ما بعدها, وحول حقد ابن زمرك على ابن الخطيب **أنظر المقري: نفح الطيب ,ج7,ص.160-162.**

لإلحاق عائلة ابن خلدون من فاس إلى غرناطة إلى المغرب الأقصى, فوجد عبد الرحمن نفسه بين المطرقة والسندان, بحيث اتهم من الجانبين[188].

وجد ابن خلدون نفسه منبوذا من البلاطين فاتجه صوب المغرب الأوسط,عند السلطان أبا حمو على وَجَلْ مما صدر منه في تأليب العرب عليه لمّا كان في خدمة السلطان المريني أبي العباس كما أسلفنا,إلاّ أن أبا حمو كان كريما معه, فاستقر بالعبّاد ولحق أهله به من فاس في نفس السنة.

تفرغ ابن خلدون للعلم والتعليم, إلى أن ظهر للسلطان الزياني أن يبعثه مرة أخرى إلى الدّواودة, فأجابه على كره منه, لكنه في الطريق عدل إلى منداس, فلحق بأحياء أولاد عريف فأكرموه, ثم بعثوا بمن يحضر أهله بعدما اعتذروا من السلطان الزياني[189].

استقراره بقلعة بني سلامة[190]:

نزل ابن خلدون بقلعة بني سلامة من بلاد توجين[191], ومكث بها لمدة أربعة سنوات متفرغا للعلم والتـــأليف, فأكمل بها مقدمته المشهورة[192].

رجوعه لمسقط رأسه:

يقول ابن خلدون أن مقامه بقلعة بني سلامة مكنه من التفرغ للتأليف وإنهائه كتابة المقدمة, إلا أنه كان يفتقر إلى الكتب والدواوين التي لا توجد إلا في الأمصار, وهو الذي كان حتى هذا الوقت يعتمد على حفظه, ثم شاء الله أن تعتل صحته ففكر في الرجوع إلى مسقط رأسه تونس التي كان يحن لها[193], فاستأذن السلطان الحفصي أبو العباس فأذن له فدخلها سنة 780ه-1378م.

([188]) من الجانب المريني اتهم عبد الرحمن بمناصرة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ضد السلطان أبو العباس,و من الجانب النصري اتهم بمساعدة ابن الخطيب في تحقيق مسعاه ضد الدولة النصرية.**عبد الرحمن بن خلدون: الرحلة,ص.186- 187**

اتهم لسان ابن الخطيب بالخيانة من قبل سلطانة غرناطة, وتدخل في ذلك بالوشاية علماء من بينهم تلامذته , مثل ابن زمرك , حاول ابن خلدون التوسط له دون نتيجة, قتل من قبل العامة خنقا في سجنه بتهم دينية مُوَارِين انتقام السلطان والعلماء الحاقدين. أنظر**المقري,نفح الطيب,ج5,ص.7** وما بعدها, كذلك **ابن الخطيب: الإحاطة ,ج4 ,ص.438** و ما بعدها, بالإضافة إلى **التمبكتي:المصدر السابق, ص.445.**

([189])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق, ص.187**

([190]) قلعة بني سلامة أو ابن سلامة, وتسمى قلعة تاوغروت, تقع في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر, قريبة من فرندة ومن تيهرت , وسلامة بن علي بن نصر بن سلطان رئيس بني يدلتن من توجين, سكن المنطقة واختط بها القلعة,**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.187**

([191]) وهم قبائل بُتْرِيَة فرع من فروع زناتة,**عبد الرحمن بن خلدون: العبر ,ج7,ص.11**, أنظر أهم زعمائها وأحوالهم مع الزيريين والموحدين بعدهم ثم الدويلات الثلاثة التي خلفت الموحدين, **بوزيان دراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها, ص. 260-261**

([192])**عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة, ص 186-188**, **طه حسين**, يؤكد أن المقدمة نقحت كم من مرة خاصة في مصر,**فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد,ص.15-16.**

([193]) حيث قال:(فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس, والرحلة إلى تونس,حيث قرار آبائي و مساكنهم, وآثارهم و قبورهم),**عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة, ص.187**

بطبيعة الحال سبقت سمعة الرجل شخصه فانهال عليه طلبة العلم, وفي المقابل فرغت مجالس غيره من العلماء, ومنهم محمد ابن عرفة[194] زميله السابق في الدراسة فحقد عليه ووشى به لدى السلطان[195], لكن هذه المرة غفل عن ذلك وأمره بإكمال كتاب العبر وكان ذلك فرفع لسلطانه نسخة منه.

لكن ما زال الوشاة تأخذهم عزة أنفسهم فيسهبون في الوشاية به, حتى ضجر منهم وطلب من السلطان السماح له بالسفر لأداء فريضة الحج, فأذن له سنة 784ه-1382م[196].

رحلة الحج واستقراره بمصر:

وصل مصر بعد عشرة أيام من اعتلاء الملك برقوق[197] الحكم, كان مراده أداء فريضة الحج لكنه لم يتمكن فغيّر وجهته صوب القاهرة التي انبهر بها ووصفها بأحسن الأوصاف[198], لم يطل مقامه حتى أقبل عليه طلبة العلم يَنْهلون من علمه وتجربته, فجلس يدرس بجامع الأزهر,لا ريب أن يلقى الإكرام كعادته من سلطان مصر, بل حتى أنه توسط لديه عند سلطان تونس ليبعث بأهل عبد الرحمن[199].

شغل ابن خلدون عدة مناصب, لكن هذه المرة في مجال العلم والفتيا والقضاء, فمن التدريس بالمدرسة القمحية [200], إلى اعتلاء منصب قاضي المالكية[201].

([194]) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة أبو عبد الله الورغمي,التونسي المالكي عالم المغرب , ولد سنة 716ه-1316م,أتقن المعقول والمنقول إلى أن صار المرجوع إليه في الفتوى ببلاد المغرب,**السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع,دار الجيل,بيروت.ج9,ص.240-242**,كذلك **ابن مريم الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد:البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان, وقف على طبعه واعتنى به محمد بن أبي شنب , المطبعة الثعالبية الجزائر1326ه- 1908م,ص.191**

([195]) مما وُشِيَبه عدم مدح ابن خلدون للسلطان الحفصي. كأنه حسب زعمه لا يُجِلُّه كما كان يجل غيره من السلاطين,**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.190**

([196]) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق, ص.199**

([197]) جركسي الأصل من المماليك اعتلى سدة الحكم في مصر سنة 784ه-1372م, و باعتلائه انتهى ملك بني قلاوون, كما انتهت دولة المماليك الترك وبدأت دولة المماليك الجراكسة, حتى الفتح العثماني سنة923ه-1517م, **سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام,ص.152 و 158**

([198]) بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في العصر الوسيط, بحيث كان لها التفوق في كل الجوانب الحياتية (فكرية , تقنية وعلمية) , فنمى الاقتصاد الإسلامي ونمت معه المدن التي كانت كمدن العالم الحديث في الشهرةمثل(نيويورك, باريس,لندن, طوكيو)- من باب التشبيه لا غير- , ولذلكِبهر ابن خلدون عند وصوله إلى مصر , وأكد انه من لم يرى القاهرة لا يمكنه أبدا معرفة قوة وعظمة الإسلام. **jacquesbrasseul. le déclin du monde musulman a partir du moyen age.revue région et développement n° 19-2004 ; P 20-21**

([199]) **عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة,ص.203**

([200])سميت بالقمحية لأنها كانت تشمل على أراضي وقفية لإنتاج القمح, **عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.204**

([201]) هناك في مصر أربعة قضاة, على حسب المذاهب الأربعة المشهورة,(حنفي, مالكي, شافعي و حنبلي), عرف هذا كذلك عند الدولة العثمانية.

كعادته ابن خلدون يتعرض للوشاية من قبل الأقران, لكن هذه المرة أصابه مصاب جلل, وهو غرق عائلته أثناء لحاقهم به من قبل البحر, فأصابه حزن عظيم وهَمّ َبالتنازل عن المنصب, لكن فطنة السلطان حالت دون بدايته هو بالطلب, بحيث أشفق عليه وعزله[202].

تسنّت الفرصة لابن خلدون لأداء فريضة الحج سنة 789ه–1387م.بعد اعتزاله عن السياسة ثلاثة سنوات[203],وبعد رجوعه من الحج انكب على العلم والتعليم, حيث اختص بتدريس الحديث النبوي الشريف سنة791ه-1389م, وكان للمذهب المالكي المنزلة الكبيرة في تدريسه للحديث, بحيث أعطى تفصيلا كاملا لطرقه [204].

فقد عبد الرحمن منزلته في الدولة المصرية, بعد فتنة الناصري[205], خاصة بعدما أفتى جماعة من الفقهاء ومنهم عبد الرحمن بعد الإكراه بقتل السلطان برقوق بحجة استعماله للنصارى في قتال المسلمين,وهي حجّة لُبِّسَ بها على العلماء وأُوهِمُوا, فأفتوا بناءا على ذلك[206].وما لبث ابن خلدون أن استرجع مكانته لدى السلطان برقوق.

دور ابن خلدون في تحسين العلاقة بين بلاد المغرب ومصر:

بدأت العلاقة على عهد السلطان الأيوبي صلاح الدين بن أيوب[207] مع السلطان الموحدي يعقوب المنصور[208], حيث طلب صلاح الدين من يعقوب أن ينصره ويقطع مدد الفرنجة بحرا عن سواحل الشام, فما كان من يعقوب الموحدي إلا أن أكرم الرسول وامتنع عن النصرة, لأنه لم

---

(202) **عبد الرحمن بن خلدون: الرحلة, ص.199–209**

(203)لايعتبر منصب القضاء منصبا سياسيا, وكما نعلم أن النظم تنقسم إلى:نظام الحكم, و نظام إداري و نظام عسكري ونظام اقتصادي,ثم نظام اجتماعي,وخطة القضاء تابعة للنظام الإداري عند الغالب من أهل الاختصاص.

رغم أن **النُبَاهِي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن**يعتبرمنصب القضاء من المناصب الهامة في الدولة لذلك هو يأتي بعد منصب الخلافة , يقول " فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء", **تاريخ قضاة الأندلس(كتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا), تحقيق لجنة التراث العربي في دار الآفاق الجديدة, دار الآفاق الجديدة, بيروت, ط5 1403ه–1983م,ص.2**

(204) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق, ص.234–244**

(205) هي فتنة نشبت بين الرفقاء, أي أمراء اليلبغاوية بعد أن تسلط تقي الدين برقوق على حكم مصر من يد بني قلاوون, وكانت الحرب بين يلبغا الناصري و برقوق انتهت بانتصار برقوق سنة 791ه–1389م. أنظر **سعيد عبد الفتاح عاشور:العصرالمماليكي في مصر والشام,ص.161–164**

(206) راجع ذلك عند**عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة,ص.259**

(207) صلاح الدّين يوسف بن أيوب ابن نجم الدّين أيوب, ولد بقلعة تكريت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة, وكان والده واليا عليها, هو الذي تولى قيادة الجبهة الإسلامية بعد وفاة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي قائد الدولة السلجوقية, وحرر بيت المقدس أثناء الحملة الصليبية الثانية583ه–1187م, ينظر**قاسم عبد قاسم وعلي السيدعلي:الأيوبيون والمماليك تاريخ سياسي وعسكري,ص.17**وما بعدها, كذلك **المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك,ج1,ص.148**

(208) هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي, **الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.148, علي بن أبي زرع الفاسي :الأنيس المطرب روض القرطاس, ص.216**

ينعته بصفة أمير المؤمنين,فاعتبر ذلك انتقاصا له, وكانت هناك كرة أخرى مع السلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق, الذي أهدى لصاحب مصر الناصر بن محمد بن قلاوون هدية ضخمة سنة700ه-1300م.

ثم كان الدور الكبير لعبد الرحمن في معاودة تلك العلاقة بين مصر ودول المغرب, ذلك أنه كاتب بعد وصوله مصر, سلطان تونس وأخبره لما لسلطان مصر من حب للجياد المغربية, لِمَا تتميّز به من مُجَالدة وصبر على المتاعب خلاف جياد المشرق التي دأبت على الدعة والراحة[209],وبهذا العمل توطدت العلاقة بين سلاطين المغرب وسلطان مصر[210].

تولى مرة ثانية منصب قاضي المالكية سنة 801ه-1398م بعد أن كان قد عزل عنه في المرة الأولى كما رأينا, إلا أن السلطان برقوق توفى وخلفه ابنه (فرج),في هذه الأثناء انتقل عبد الرحمن بن خلدون في رحلة إلى بيت المقدس ثم رجع سنة 803ه-1400م, فتعرض للوشاية فعزل عن منصبه ورجع إلى التدريس[211].

إتصاله بتيمورلانك حين حصاره لدمشق:

لما علم السلطان مصر الجديد(فرج) بالمصيبة العظيمة التي حلّت بالمسلمين, بزحف جيش التتر على البلاد العربية[212]وهو الآن يقصد الشام, أجمع مع قادته على مسابقته إلى دمشق,وأخذ معه من جملة من أخذ عبد الرحمن بن خلدون, ولما وصلوا دمشق تحصنوا بها وتراء الجمعان, وكانت المعارك الحربية بين الطرفين سجالا, إلا أن أتى للسلطان المصري خبر التمرد في بلاده فقفل راجعا للوقوف دون ذلك.

حينها ظهر لأهل دمشق أنهم وحيدون في وجه الطاغية تيمورلانك, فعقد معه طائفة من أعيان المدينة الولاء فقبل منهم وأمّنهم,ثم سألهم عن ابن خلدون فأجابوه بتواجده في

([209]) يشبه ما يذكره هنا ابن خلدون عن الجياد المغربية والمصرية, ما ينظّر له في مسألة البداوة والحضارة, فما يصيب البشر في حالة البداوة من خشونة ينعكس على حيواناتهم من مجالدة وصبر, والعكس صحيح.

([210])**عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة,ص.263-271**

([211])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.271-275**

([212])هنا نودُّ أن نشير إلى حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم:" لا إله إلاّ الله, ويل للعرب من شرّ قد اقترب..."الذي رواه البخاري في صحيحه من كتاب الفتن, **البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل(ت194ه-256م):صحيح البخاري, ضبطه مصطفى ديب البغا, دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع, عين مليلة الجزائر, الجزء السادس 1412ه-1992م, ص.2589.**

يقول علماء الإسلام أن هذا الشر كان يقصد به شعوب المغول وأنها سوف تغير على البلاد العربية خاصة دون غيرها, وبالفعل الذي يتتبع تاريخ البلاد الإسلامية يجد أن التتر أغاروا عدّة مرات خاصة على المشرق, عن هذا الموضوع ينظر: **الوابل يوسف بن عبد الله بن يوسف: أشراط الساعة, دار ابن الجوزي,ص.368.**

المدينة[213]وكان ابن خلدون عازم الخروج إليه إلا أنه اضطر إلى تسلق أسوار المدينة خفية,كما فعل ذلك الأعيان والعلماء بعدما أصبح هذا العمل شنيع وتخاذل عند الأمة.

وصل عبد الرحمن مخيم تيمورلانك وجلس أمام السلطان, وكان هنالك فقيه من خوارزم اسمه عبد الجبار بن النعمان المعتزلي[214],مترجم الملك تيمور, استغل الملك الفرصة فسأل عبد الرحمن عن مجموعة من الأسئلة كان أغلبها عن بلاد المغرب, ثم طلب منه أن يكتب له عن" بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها" حتى كأنه يشاهدها[215].

فأجابه عبد الرحمن لطلبه[216]وأكرمه تيمورلانك إكراما كبيرا لما عرف من مكانته وعلمه, وقبل منه مطالبه, وكان أهمها الصفح عن أهل دمشق, فقبل منه تلك المطالب, فانصرف كريما شامخا.

وفـــــــاته:

لما وصل إلى مصر وصل بعده رسول السلطان من عند تيمورلانك, يحمل رسالة الصلح وكذلك ثمن بغلة ابن خلدون كان تيمور طلب منه بيعها له فأهداها له عبد الرحمن فحمد الله وأثنا عليه لِمَا أنقذه من هذا الملك[217].

لما رجع عبد الرحمن إلى مصر سنة803ه-1400م, أعيد إلى منصب القضاء, ثم عزل لما كان يصدع بالحق, وولي رجل من المالكية يقال له جمال الدين البساطي, يقول ابن خلدون انه بذل لأجل ذلك قطعة من ماله ووجوها من الأغراض, وهو يقصد رشوة, ثم عين مرة رابعة سنة 804ه-1401م وعزل سنة 806ه-1403م, ثم خامسة سنة 807ه-1404م وعزل في نفس السنة لنفس الأسباب[218].

---

(213)هذا دليل على انتشار سمعة ابن خلدون

(214)أنظر ترجمته في ,**عبد الرحمن بن خلدون: الرحلة,ص.289.**

(215) نتوقّع هنا انه كان على إطلاع بمؤلف ابن خلدون المقدمة والعبر, وغالب الضن أن تيمورلانك كان يريد التعرف على بلاد المغرب الإسلامي بغية غزوها. أما إيف لاكوست فيرجع اهتمام تيمورلانك بابن خلدون كون نمط معيشة المغاربة يشبه نمط معيشة المغول وهذا ما نمّى الرغبة في الإطلاع لدى تيمور.

Yves Lacoste :IbnKhaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde .p.40

أعطى بالمناسبة تاريخين في نفس الوقت لتيمور,أولهما عن الدولة العباسية, حين أتى احدهم عند تيمور وعبد الرحمن حاضر عنده, فادعى انه من سلالة العباسيين, وله الأحقية في الخلافة فبين ابن خلدون للملك خلاف ذلك , فصرفه الملك, وثانيهما انه بعث لصاحب المغرب ــ كما سماه هوــ بقصة هؤلاء التتر بعد أن أنجاه الله منهم, وفي الغالب أن هذا الحاكم هو سلطان الدولة الحفصية. **عبد الرحمن بن خلدون:الرحلة:ص.297-299.**

(216)**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه, ص.290.**

(217)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.297**

(218)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.300**

توفى عبد الرحمن سنة808ه-1406م, وكانت حياته كلها حركة ونشاطا من طلبٍ العلم وتعليم وتــــأليفٍ, كما كان له حظٌّ عظيم في مجال السياسة وحظوة السلطان,وبطبيعة الحال أن يكون لرجل هذا شأنه حسّادٌ من كل البلاد, وهذا ما نغّص عليه حياته إذ هذا ثمن الاحتكاك بالسلاطين, لكن الغريب في الأمر أنّ آفة الغيْرة تبعته حتّى بعد وفاته,فنجد جمع من المؤلفين المعاصرين يكتبون عن حياته ويتعمّدون الإساءة له, همّهم الوحيد تفضيل المشرق على المغرب,في حين نجد أن مفكّرين من الغرب المسيحي يُشيدون بهذا المؤرّخ الفذّ ويرجعون له الفضل في علم الاجتماع.

ثالثا: مفاهيمه الكبرى حول الدولة:

يبين الجابري في سياق حديثه عَنِ البِناء الهرمي لعلم العمران الخلدوني, مسألة بحوث ابن خلدون الأصلية منها (التي هي في صلب الموضوع) والاستطرادية (التي تعتبر تمهيدية أو إتمام للفائدة), أنّ هذا خلاف الواقع, لأن جميع جوانب المقدمة ترتبط ترابطا منطقيا وهذا ما يكوّن لنا **الهرم العمراني الخلدوني**, رغم أننا نعلم أن عبد الرحمن أضاف عدّة إضافات إلى مقدمته بعد مغادرته قلعة ابن سلامة, لأنه كان ملتزما بما سطره لنفسه من منهج في تفكيره وتحليله واستنتاجه, فحرص أشدّ الحرص على وضع كل فقرة مكانها, ولم يكن عائق الوقت مطروحا لديه, ويضيف أنه مما يثير الإعجاب هو ذلك التماسك المنطقي الذي يسود المقدمة من أولها إلى آخرها, حيث أن كل فكرة هي نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها كما أنه حرص على الأسبقية الزمنية والمنطقية للحوادث التاريخية[219], ونزيد نحن أنه كان على علم بما يفعل حيث قال:﴿ وقد قدّمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعدُ, وكذلك تقديم الملك على البلدان والأمصار[220], وأما تقديم المعاش فلأنّ المعاش ضروريٌّ طبيعيٌّ, وتعلُّــم العلم كماليٌّ أو حاجيٌّ[221], والطبيعيٌّ أقدم من الحاجيِّ, وجعلت الصّنائِع من الكَسْبِ لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران﴾ [222].

([219])**محمد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.113-116**

([220])إن الملك حاصل قبل اختطاط المدن والأمصار وسابق عليه, "فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرّفه واتساع الأحوال," **عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.181**

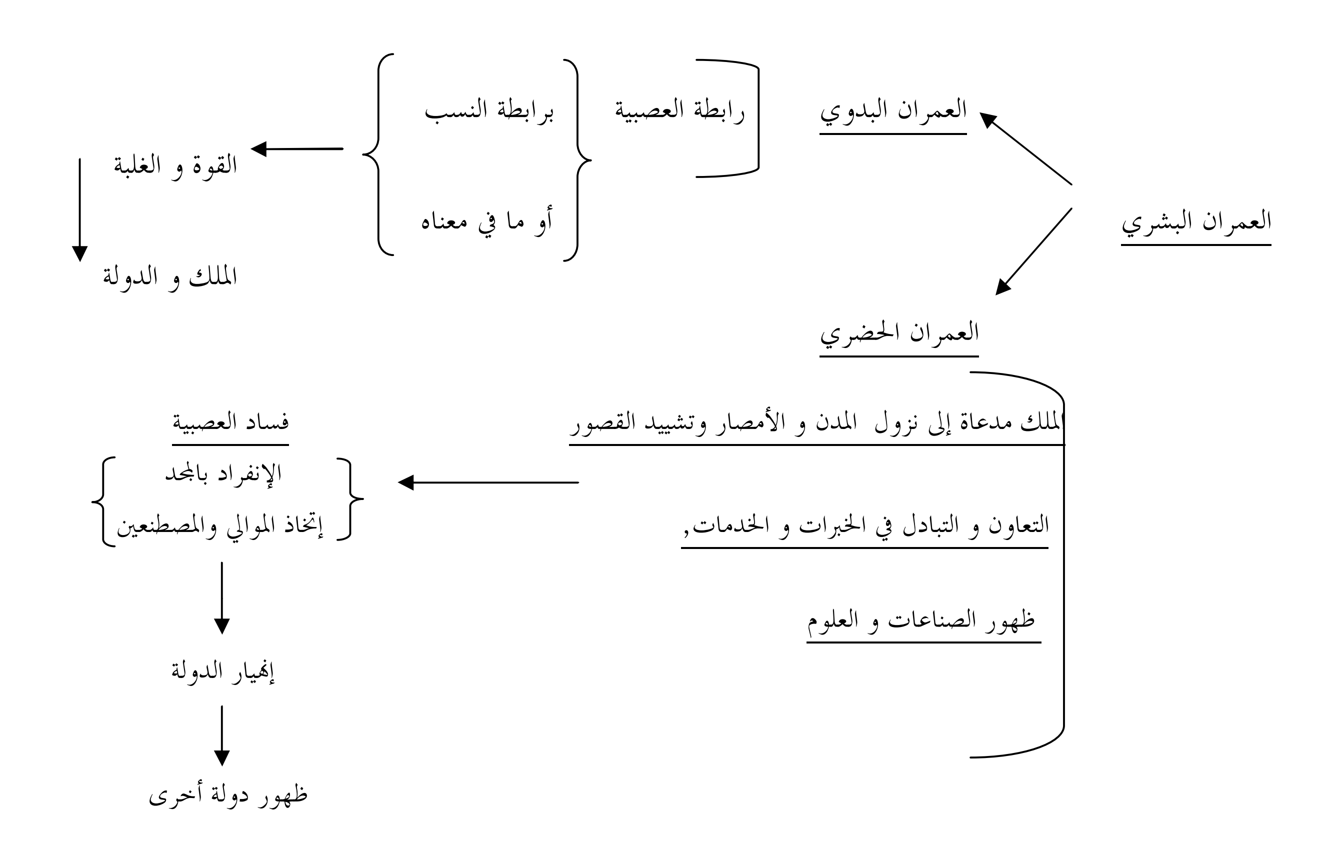
يقول كذلك" أنّ البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدّعة كما قدمناه, وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها, وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير, ..., فلا بد من تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدّولة والملك" **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.356**فهو بذلك يقرر دور الدولة في تأسيس المدينة, **مؤتمر عبد الرحمن بن خلدون قراءة معرفية ومنهجية, كلية الآداب –قسم علم الاجتماع جامعة عين شمس,المنعقد في 5-6 أوت ,2000م-1420ه,ص.16**

يقول **رياض عزيز هادي**,أن معظم الدول التي حلّل تاريخها وتطورها ابن خلدون هي كلها تقريبا وليدة المجتمع البدوي, **مفهوم الدولة ونشوؤها عند ابن خلدون,مجلة العلوم القانونية والسياسية ,عدد خاص بالذكرى الخمسين لتدريس السياسية في العراق عدد37, العدد الثالث ,1977م-1397ه,العراق ,ص.88**

([221]) يراجع تفصيل ذلك عند **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.129**

([222])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.51**

من هنا يتجلى لنا هذا المخطط[223] أو ما يعرف ب(Organigramme) للعمران البشري وهو كالتالي:



السلم أو المؤشر: تقديم (السابق زمنيا على المتأخر- البسيط على المركب)

1- ماهية العمران البشري:

➢ لُـــغة:

عَمِرَ الرَجُلُ يَعْمُرُ عَمْراً و عَمَارَةٌ وعَمْراً, وعَمَرَ يَعْمُرُ و يَعْمِرُ, أي عاش و بقي زمنا طويلا.و يقال, عَمَرَ الله بك منزلك يَعْمُرُهُ عِمَارَةً وأَعْمَرَهُ, جعله آهلاً.

وأَعْمَرَهُ المكان واستعمره فيه, جعله يَعْمِرُهُ, قال تعالى﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[224]أي أذن لكم في عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عُمَّارَهاَ[225].

---

[223] **مخطّط مستوحى من مقدمة ابن خلدون**

[224] **سورة هود,الآية 60**

[225] **إبن منظور: لسان العرب,ص.3100-3101**

واستُعْمِلت كلمة العمران في مقدمة ابن خلدون مصدرا وهو بالألف واللاّم لكي يشمل الجانب المادي والمعنوي على عكس كلمة "عِمَارة" التي تشمل الجانب المادي المقصود منه البنايات, أما المصدر فيفيد الشمول والعظمة والمقصود من كلمة" العمران" في المقدمة ظاهرة "الاعتمار"[226].

➢ إصطلاحا: والعمران البشري[227] هو اجتماع الناس وتكتلهم جماعات, بطبيعةٍ جِبِلَّةٍ[228] فيهم هي الميل إلى الاجتماع ونفرة الافتراق.

ظهر هذا المفهوم منذ القدم وتكلم عليه الفلاسفة والمفكرون حيث قال أرسطو" الإنسان كائن سياسي بالطبع" وهو يقصد السياسة المدنية.

وقال الفرابي"والإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم لها الضروري من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا بالاجتماع"[229] .

إلاّ أن مفهوم العمران البشري[230]عند ابن خلدون كان أوسع وأشمل بحيث جاء فيه: موضوع ومسائل ومستويات وغاية وأشكال (بدوي وحضري).

➢ **موضوعه:**

في الكتاب الأول من المقدمة تكلم عبد الرحمن حول فضل التاريخ وتحدّث عن ما سماه بالتشيّعات للآراء والمذاهب حيث بيّن مسألة الذاتية والموضوعية في الكتابة التاريخية وأسباب كلّ منهما, ثم ركّز على خطأ الذاتية وما ينجرّ عنها من كذب وخلط في الأحداث.

ثم خلص أن العمران البشري هو المقياس المثالي لفهم التاريخ وفهم المجتمعات, والتنبؤ بمستقبلها بالإضافة إلى دراسة التاريخ دراسة علمية[231], ثم أتى صراحة على ذكر موضوع هذا العلم ألا وهو– العمران البشري والاجتماع الإنساني– [232]فقال:

([226])**نادية كحلوش: مصطلحات العمران في مقدمة ابن خلدون – دراسة مقارنة لترجمتي ويليام ماك دوسلانوفانسان مونتاي– مذكرة ماجستير في الترجمة,قسم الترجمة, جامعة منتوري قسنطينة, السنة الجامعية (2008–2009)م,ص.43–44**

([227])يقصد به الاجتماع البشري التساكن والتعاون على شؤون الحياة, كذلك الحياة الاجتماعية وما ينتج عنها من مظاهر اجتماعية وسياسية واقتصادية وعلمية, ومصطلحه أدق من مصطلح علم الاجتماع. **محمد العبدة: نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون,ص.50** كذلك **النبهان محمد فاروق:الفكرالخلدوني من خلال المقدمة,ص.114**

كما أن العمران البشري أكمل في الإقليم الأكثر اعتدالا, **النبهان محمد فاروق: نفسه,ص.115** و عن الأقاليم أنظر**عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة,ص.54–95**

([228])**النبهان محمد فاروق: المرجع السابق , ص.114**

([229])**بوزيان دراجي :العصبية القبلية, ص.38**

([230]) استعمل عبد الرحمن هذا المصطلح للدلالة على مجموعة مجالات النشاط البشري المؤدية إلى قيام الدولة , **العربي قلايلية: التفكير العلمي عند ابن خلدون وأبعاده الحضارية, مجلة التراث العربي, تصدر عن إتحاد الكتاب العرب, العدد المزدوج 93–94,دمشق,ص.177**

([231])**عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة,ص.45**

([232])**عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.48**

﴿اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم, وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال, مثل التوحّش والتّأنّس والعصبيّات وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض, وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها, وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم, والصنائع, وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال﴾[233].

➢ **مكانـــته:**

هو علم جديد يختلف عن العلوم الأخرى من حيث القضايا التي يبحث فيها وطريقته المتبعة في البحث وما يلحقه كل ذلك من عوارض[234] تابعة لجنسه[235], قال ابن خلدون:﴿ واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة, غريب النّزعة, غزير الفائدة, أعثَرَ عليه البحث وأدّى إليه الغوص,......, و كأنّه علم مُستنبط النّشأة﴾[236].

➢ **مســـائله:**

﴿وذو مسائل,وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد الأخرى, وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا﴾[237].

لا ينكر عبد الرحمن أن هذا العلم الذي تجلّى له بعد النظر والتمحيص, منه مسائل وردت عَرَضًا عند أهل العلم في براهين علومهم وذكر أمثلة لذلك, إلاّ أنهم لم يستوفوا هذا العلم حقه على حسب قوله[238].

ثم يبين فحوى علمه فيقول: ﴿ ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما, وأَعْثَرَنَا على عِلمٍ جعلنا سنّ بكره وجُهينة خبره- أي جعلنا المخبرين عن حقيقته وما فيه- , فإن كنت قد استوفيت مسائله وميّزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله و هداية....ونحن الآن نبيّن في هذا

عنون **غاستول بوتول** فصله الثالث بالغرض الذي قصده ابن خلدون حين كتابته للتاريخ ولخّص ذلك في ثلاثة مسائل وهي:1- النقد التاريخي لما سبق من تآليف2- إيضاح الحوادث التاريخية بنظرة جديدة تأخذ بالاعتبار كل جوانب المؤثرة على المجتمع 3- ثم العامل السياسي الذي هو وعاء المجتمع المحافظ على تماسكه.وكل هذه المسائل هي التي ترسم نظريته لعلمه الجديد في العمران البشري. **ابن خلدون فلسفته الاجتماعية ص.35-36.**

([233])**عبد الرحمن ابن خلدون:المصدر السابق,ص.45.**

([234]) جاء في تعريف العوارض الذاتية أنها الخواص التي تميّز العلم عن غيره, فعوارض الاجتماع الإنساني هي الظواهر الاجتماعية بمعناها الواسع, أي أنها لا بد أن تعرض للعمران البشري, فهي من خواصه الملازمة له, وقد يستعملها أحيانا بمعنى القانون الذي يحكم الظواهر الاجتماعية. **محمد العبدة: نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون, ص.50.**

([235])**نادية كحلوش: مصطلحات العمران في مقدمة ابن خلدون,ص.45.**

([236])**عبد الرحمن بن خلدون,المقدمة, ص.48.**

([237])**عبد الرحمن بن خلدون,نفسه , ص.48.**

([238])**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه, ص.49.**

الكتاب ما يَعْرُضُ للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية, يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة, وتندفع به الأوهام وتُرفع الشكوك﴾[239].

لا يكتفي عند هذا الحد بل يضع خطة لمقدمته والتي تتكون من ستة فصول:

1- الأول : في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

2- الثاني : في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.

3- الثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

4- الرابع: في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

5- الخامس: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

6- السادس: في العلوم واكتسابها وتعلُّمها.

يظهر لنا هذا الترتيب في تناسق علمي رائع, فمثلا جعل العلوم آخر الستة, فَلِلْوَهْلَة الأولى يطرح القارئ على نفسه سؤالا يتبادر لذهن حتى العوام من الناس, وهو: ألا تعتبر العلوم الحجر الأساس في بناء الحضارة؟

الجواب هو, نعم, ولا خلاف في ذلك, إلاّ أن عبد الرحمن يوضّح لنا أن التعلُّم يُأْتِي ثِماره كاملة في العمران الحضري, دون أن ينفي إمكانية تواجده في العمران البدوي, ودليلنا في ذلك من عدّة وجوه نذكر منه اثنين مخافة الإطالة.

معلوم لنا في الأثر المقولة التالية: (من بدا جفا ومن سكن البادية ذهب علمه), وهذا أمر معلوم بالبديهة, لأن البادية عادة تتميّز بالخشونة, وكما قال ابن خلدون أن أصحابها يقتصرون في معاشهم على المقدار الذي يحفظ لهم حياتهم[240],وعليه قلّ أن تجد عالما يسكن في البادية إلاّ من وراءه سبب.

الدليل الثاني ما حدث لابن خلدون نفسه حين اعتزل في قلعة بني سلامة وكتابته لمقدمته, ثم سفره إلى تونس بغية تنقيحها لِمَا كان يفتقره من الكتب والدواوين التي لا توجد إلاّ في الأمصار حسب تعبيره.

---

[239] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.50.

[240] عبد الرحمن بن خلدون: نفسه,ص.129.

➢ **غـــايـــته:**

هي انتقال المؤرخ من السّرد التاريخي الكلاسيكي إن صح التعبير, دون التأكد مما نُقِل إليه من أخبار إلى التحقق من الحادثة التاريخية قبل سردها وتوثيقها, وذلك بواسطة آليات هذا العلم الجديد.

حيث بين حسن الساعاتي في كتابه"علم الاجتماع الخلدوني", أن عبد الرحمن(أضاف إلى سابقيه مهمة البحث عن العلل والأسباب, وهو ما يؤكد بُعْد نَظَره ورغبته في الوصول إلى الموضوعية عند الحُكْم على الأشياء وهي سِمَةٌ أيضا سبق بِهَا غيره من العلماء)[241].

➢ **وسيلته:**

اعتمد ابن خلدون في دراسته للمجتمع البشري على أسس وقواعد اكتشفها هو من خلال تجربته وقراءته لتاريخ الخليقة, ومن أهمها: معرفة طبائع العمران والموجودات والعلم بالقواعد السياسية واختلاف الأمم والبقاع والأعصار.

حيث قال حين سرد مجموعة من الأخطاء يرتكبها المؤرخون: ﴿ وإذًا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم و الأعصار في السِيَرْ والأخلاق والعوائد والنِّحل والمذاهب وسائر الأحوال, والإحاطة بالحاضر من ذلك, ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بَوْنِ ما بينهما من الخلاف, وتعليل المتّفق منها والمختلف, والقيام على أصول الدول والمِلَل ومبادئ ظهورها, وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم, حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث,واقفا على أصول كلِّ خبر, وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول,فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا,وإلاّ زيّفه واستغنى عنه﴾[242].

ويقول أيضا: ﴿ وتمحيصه إنّما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تشخيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها, وهو سابق على تعديل[243] الروّاة,ولا يُرْجَعُ إلى تعديل

([241])مجموعة مؤلفين: دراسة مصرية في علم الاجتماع مهداة إلى روح الأستاذ حسن الساعاتي, مركز البحوث و دراسات الاجتماعية جامعة القاهرة,القاهرة 1422ه-2002م,ص.84.

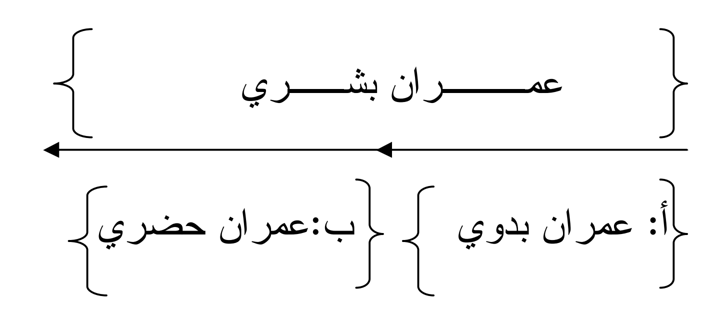
([242]) عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.37.

([243]) وهو ما يرف بعلم الجرح والتعديل

الرُوّاة حتى يُعلم أن ذلك الخبر في نفسه مُمْكن أو مُمْتنع, وأماّ إذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح﴾[244].

2-أشكال العمران البشري[245]:

تقدم معنا أن عبد الرحمن قسم مقدمته إلى ستّة فصول وبيّنا منطقه في ترتيبها,حيث أن مجموعها يمكن أن نطلق عليه العمران البشري,



أ : هو مجال بداية نشوء الدولة

ب : هو مجال تطور الدولة

قمنا بمحاولة معالجة الشطر الأول من المخطط وهو العمران البشري في بداية هذا المبحث, ونحاول فيما يلي أن نعالج شقيه العمران البدوي والعمران الحضري[246].

([244])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.47**, (لا بدّ للمُؤرّخ أن يعي طبيعة العمران البشري قبل تدوين التاريخ ,.... من هنا كان التمحيص والوقوف على طبيعة العمران البشري هو أحسن الوجوه وأوثقها في الكشف عن الأخبار وتمييز صدقها من كذبها, وممكنها من مستحيلها), **عبد الأمير ز,شمس الدين:الفكر التربوي عند ابن خلدون و ابن الأزرق,ص.26-27**

أماّ **علي أومليل** فيقول: (إن لهذا الفصل المنهجي- يقصد به الفصل بين الأخبار الشرعية والأخبار عن الواقعات من الطبيعة أو التاريخ-نتائج هامة كَفِيلة بأن تُغيِّر من النظام المعرفي المعتاد,...وفيما يخص علم التاريخ فإن هذا الموقف العقلاني يعني أن العمران نفسه هو المرجع لكل خطاب عنه),**الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون,المركز الثقافي العربي, المغرب,ط4 1426ه-2005م, ص.54.**

ذكر حسن الساعاتي أهم القواعد التي تساعد في بناء الحادثة التاريخية بناء صحيحا وهي: - قاعدة الشك و التمحيص- قاعدة التشخيص المادي -قاعدة تحكيم أصول العادة وطبيعة العمران- قاعدة قياس بالشاهد وبالغائب-قاعدة السبر والتقسيم-التعميم الحذر,**مجموعة مؤلفين: دراسة مصرية,ص.84-95**

([245]) يقول **إيف لاكوست** أن هاتين المجموعتين من البشر,يقصد بهم البدو والحضرلم يراهما صاحب المقدمة يسيران بنمطي عيش متعاكسين,أي لم يرى الصراع بينهما بل هما متكاملين بحيث يشكلان بتكاملهما العمران الذي هو مفهوم واسع يشمل الجانب الجغرافي والاجتماعي,

Yves Lacoste : IbnKhaldoun naissance de l’histoire passé du tiers monde.p124

([246]) يميز ابن خلدون بين العمرانين البدوي والحضري باختلاف شروط تشكلهما, وهما شرطين رئيسين : الأول بيئي مناخي والثاني مادي اقتصادي , فتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم – وفق تقسيمه – لكل إقليم مناخه وبالتالي عمرانه الخاص به , كذلك العامل الاقتصادي الذي له دور هام في التفرقة بين البيئتين, فلكلٍ واقعه الاقتصادي ويتفاعل الكل مع البيئة وبالتالي تظهر أربعة أنواع من المجتمعات:1- سكان البادية 2- سكان المناطق الخصبة السهلية والجبلية 3- سكان المدن و الأمصار و القرى 4- سكان العيش الرغيد, **محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى,ص.138-142**

فرّق عبد الرحمن المجتمعين البدوي والحضري أساسا على اختلاف نحلتهم في المعاش وأكد على الاجتماع لتحصيل ذلك, فالبدو يقتصون على ما يقيم صلبهم فيسعون إلى﴿ ما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي﴾[247],وبالتالي فالبدو حسب رأيه ثلاثة أصناف: القائمون على الفلح والزرع والقائمون على تربية الحيوان (من غنم وبقر وماعز ونحل ودود,..), وهاذين الصنفين مضطرون إلى سكنى البادية لاتساعها لما يحتاجون إليه في نحل معاشهم.

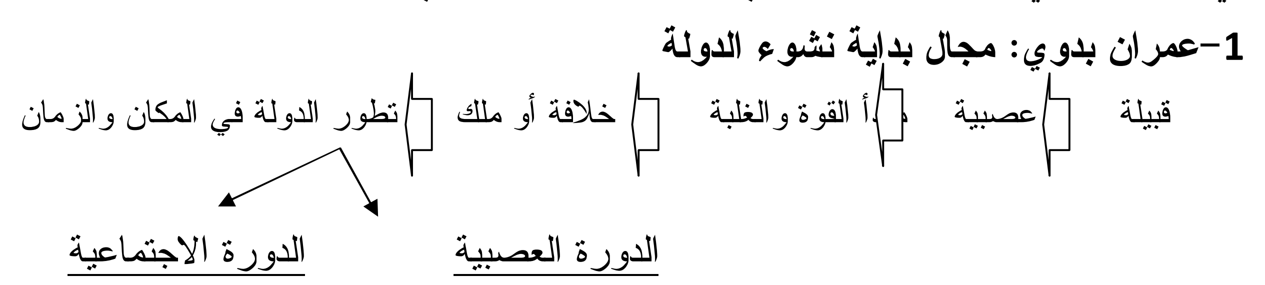
ثم في موضع آخر يعطي أمثلة لهذه الأصناف,فالصنف الأول هم سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم, والصنف الثاني يطلق عليهم الشاوية أي القائمون على الشاة والبقر, وهم لا يُوغِرون في القفر مخافة فقدان مسارحهم, ومنهم البربروالترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

ثم الصنف الثالث وهم من كان معاشهم في الإبل, فهم أكثر ضعنا وأبعد في القفر لطبيعة نحلتهم, وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق,إلاّ أن العرب أبعد نجعة وأشدّ بداوة[248].

وعليه وبما أن العصبية لا تكون إلاّ للقبائل التي تسكن البدو, وأن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك[249],فهذا هو مجال العمران البدوي.

ثم إن القبيل إذا تغلّب بالعصبية شارك أهل النعمة وأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس,واستكثر من التأنق والترف, فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية[250], وهذا يدخلنا في الشطر الثاني من العمران البشري وهو العمران الحضري.

1-عمران بدوي: مجال بداية نشوء الدولة



([247]) **عبد الرحمن بن خلدون :المقدمة,ص.129**

([248])**عبد الرحمن بن خلدون :نفسه,ص.130-131**,أنظر **الفكر الواقعي عند إبن خلدون ,ص.238 وما بعدها** للتفصيل أكثر حول المجتمع البدوي.

([249])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.136و148,**

([250])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.149**

➢ **القبيلـــــة:**

القبيلة من الناس :بنو أب واحد.التهذيب : أما القبيلة فمن قبائل العرب وسائرهم من الناس. ابن الكلبي:الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذُ...., ويقال من كل جَمْعٍ من شيء واحد قبيلٌ.

والقبيل, الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى, كالزنج و الرّوم و العرب(251).

والقبيلة هي تركيبة بشرية اجتماعية مكونة من عدّة وحدات صغرى قد تكون أُسَرًا أوعشائر أو أفخاذ(252), ..., و الكل يتلاحم بفضل الانتماء الدموي (النسب) وهذه الوحدات تؤمن بان نسبها واحد وقد تكون القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والسياسية الكبرى في بلاد المغرب(253).

إذا رجعنا إلى مقدمة ابن خلدون نجده يربط القبيلة بالعصبية بشكل ملحوظ, فيقول:﴿ في أن سكنى البدو لا يكون إلاّ للقبائل أهل العصبية﴾(254),﴿ في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل وبالعصبية﴾(255),﴿في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة﴾(256)

و بالتالي نستنتج أن القبيلة إذا لم تمتلك عصبية قوية تميّزها وتعلو بها على باقي العصبيات فليس لها أي أهمية, وكم في التاريخ من قبائل عريقة وكبيرة لكن قَصُرَتْ بها عصبيتها عن الملك(257).وعليه الكلام عن القبيلة دون عصبية ليس له معنى في مفهوم ابن خلدون للعمران البشري.

➢ **العصبية(258):**

يعتبر بوزيان دراجي القبلية ظاهرة بارزة من ظواهر السلبية, فالعصبية القبلية حسب رأيه انحدرت بالمجتمعات المغربية إلى منتهى التعفن والتفكك, حتى وإن ظهرت ملامح في بعض الأحيان إيجابية للقبيلة, لكن سرعان ما تنهار الدولة المؤسسة بفعل العصبية ذاتها(259).

---

(251)**ابن منظور : لسان العرب,ص.3519.**

(252)**بوزيان دراجي: ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية سلسلة العصبية القبلية ,دار الأمل 2010م-1431ه,,ص.163,**

إن التقسيم القبلي العربي يكون إماّ في ستة مراتب أو عشرة مراتب وأصحاب الرأي الأول يعتمدون على أبيات نظمها محمد بن عبد الله الغرناطي, (الشعب ثم قبيلة وعمارة ~بطن وفخذ والفصيلة تابعة) .**بوزيان دراجي: نفسه, ص.179-180**

(253) **بوزيان دراجي: نفسه. ص.182**

(254)**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.136**

(255)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.163**

(256)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.173**

(257) يؤكد **ابن خلدون** على اشتراط العصبية الغالبة في الحكم, " ولمّاً كانت الِّرياسَة إنما تكون بالغَلَبْ, وجب أن تكون عصبية ذلك النِصَاب أقوى من سائر العصائب, لِيَقَعَ الغَلَبُ بها وتتم الرّياسة لأهلها"ينظر:**المصدر نفسه: ص.141**

(258) هي موضوع بحثنا في الفصل الثاني

يقول **علي الوردي** أن العصبية عند عبد الرحمن هي تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط أبناء القبيلة. أو أية جماعة أخرى بعضهم إلى بعض وتدفعهم إلى التعاون في كل أحوالهم[260], وهذا ما يبين خصوصية العصبية بالعمران البدوي,لأنها تربط أبناء القبيلة,حيث ﴿ أن سكنى البدو لا يكون إلاّ للقبائل أهل العصبية﴾ كما تقدم معنا كذلك, ﴿أما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة,.......,وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض,......., وأما حِلَلُهُمْ فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم,ولا يصدق دفاعهم وذِيَادُهُمْ إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد﴾[261]

يرى بعضهم أن العصبية هي المحور الذي تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية و تتصل به جميع مباحث الاجتماع السياسي في المقدمة[262], ويضيف آخر أن العصبية هي عبارة عن عصب رئيسي في المقدمة, وأنه لا يمكن لقبيلة ما أن تستولي على الحكم ولا يمكن لها أن تتحضّر إلاّ إذا زُوِّدت بالعصبية[263].

➢ **مبدأ القوة و الغلبة:**

سبق أن وضّحنا في مدخل هذا البحث اختلاف المؤرخين وأهل الاجتماع حول جوهر نظرية ابن خلدون في العمران البشري, فمنهم من حصرها في العصبية ومنهم من قال إنها الدولة وآخرون ذهبوا إلى الصراع بين البدو والحضر,لكن المتفق عليه هو كون مبدأ القوة والغلبة محرّك رئيسي لطلب الملك وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بحالة العصبية[264]

والعصبية لا يمكنها أن تصل إلى الملك إلاّ بالقوة والغلبة على غيرها من العصبيات, فإذا كان لها ذلك تحقق لها الملك إذ أن الملك هو غاية العصبية[265].

([259]) **بوزيان دراجي, العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.5-6**

([260]) **منطق ابن خلدون,ص.79**

([261])**عبد الرحمن بن خلدون:مصدر سابق,ص.137**,يرى**الجابري** أن العصبية عند ابن خلدون باعتبارها وازعا هي ظاهرة خاصة بالبدو أما وازع المدينة فهو الدولة و نظمها الدفاعية.**فكرابن خلدون العصبية والدولة,ص.172**

([262])**ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.33**

([263])**عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون,ص.143**

يمكن أن نجمع بين ذلك فنقول أن العصبية القبلية وسيلة ضرورية لقيام الملك في العصر الوسيط لكن وبمجرّد تأسيس الدولة يكون من الضروري صهر تلك العصبية تحت سلطة الدولة, لكي لا تنقلب معول هدم لأسسها.

([264]) تنشأ الدولة حسب ابن خلدون نتيجة القوة أو التغلب القائم على العصبية التي تعتبر القوة المحركة لسير التاريخ فعلى أساسها تنشأ الدولة وبضعفها تضعف . **بسيوني رسلان صلاح الدين: السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون,ص.70**

([265]) **عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.148**

➢ **الملك و الرئاسة:**

بعد تحقق مبدأ القوة والغلبة لعصبية من العصبيات على كل العصبيات الأخرى, تتحقق بذلك الرّياسة والملك , ﴿والرِيّاسَة فيهم إنما تكون من نِصابٍ واحد منهم ولا تكون في الكلِّ, ولما كانت الرياسة إنّما تكون بالغلب وَجَبَ أن تكون عصبية ذلك النِّصاب أقوى منسائر العصبيات, ليقع الغَلَبُ بها وتتم الرِّياسة لأهلها....,فلا تزال – أي الريّاسة- في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع, ولا تنتقل إلاّ إلى الأقوى من فروعه,لما قلناه من سرِّ الغلَب, لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكوِّن, والمزاج في المُتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر,فلابد من غَلَبة أحدهما وإلاّ لم يتم التكوين, فهذا هو سرّ اشتراط الغَلَب في العصبية,ومنه تعين استمرار الريّاسة في النصاب المخصوص بها كما قرّرته﴾[266].

إذن هنا وهنا فحسب يكون بمقدور هذه العصبية أن تأسس لها دولة بإسقاط الدولة القائمة,هذه الدولة التي هي حاضنة العمران ومستقرّه, فهي المحور الذي يدور حوله الاجتماع البشري[267].

إذن ومن هذا المنظور فالدولة هي تحقيق للغاية التي تجري إليها العصبية أي الملك, ﴿ في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية﴾[268].

([266])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.141**

عرفت القبائل البربرية في بلاد المغرب الحلف حيث كانت تتجمع على شكل إتحاد يعيّن على رأسه زعيما والذي يكون من القبيلة التي تملك السيطرة على باقي القبائل.

Ernest Mercier ; Histoire de L'Afrique Septentrionale (BERBERIE) Depuis Les Temps Les Plus Reculés J'jusqu'a La Conquête Francaise1830 ; Ernest Leroux Editeur ; Paris ; Tom 1.1888 ,p.180-181

([267]) **أمحمد مالكي: ابن خلدون و العمران البشري, ندوة تطور العلوم الفقهية فِي عمان " الفقه الحضاري، فقه العمران".المنعقدة خلال الفترة: (18-21) ربيع الثاني 1431هـ / (3-6) إبريل 2010م,وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.سلطنة عمان.تحت مبحث الحاجة إلى الدولة لانتظام العمران.**

بدأ عبد الرحمن الباب الثاني في العمران البدوي بمسألة ' أن أجيال البدو والحضر طبيعية ' ويركز على مسألة المعاش الذي ينقل البدوي من شظف العيش إلى رفهه, فيختط المنازل و المدن, ثم ينتقل إلى مسألة ' أن البدو أقدم من الحضر و سابق عليه, وان البادية أصل العمران, والأمصار مدد لها' فمن هذه المرحلة يركز على وجود العمرانيين البدوي والحضري ,فيبحث تأسيس الدولة انطلاقا منهما.وبالتالي هو إن تحدث عن عصبية غالبة تطلب الملك فهنا يتوقف الأمر على حال الدولة القائمة , فإن كانت في آخر طور هرمها غُلبَت وحلّت محلها العصبية الجديدة,أما إذا كانت لا تزال متمسكة فإنها تستظهر بهذه العصبية وتتقوى بها إلى حين, فيكون لهذه العصبية ملك ناقص.**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.148-149**, أنظر كذلك تحليل **علي أومليل** حيث خلص إلى ثلاثة أنواع من التوازن الذي ينتج عنه التنافس القبلي:1- توازن قائم على تكافؤ عصبيتين قويتين2- توازن تضمنه هيمنة عصبية على العصبيات الأخرى ,ثم تتجح فبانتزاع الأمر من الدولة الهرمة 3- تتجح العصبية بهزم كل العصبيات الأخرى إلاّ أنها تصطدم بدولة لا تزال قوية هنا يكون توازن بين هذه العصبية و الدولة,**الخطاب التاريخي,ص.195**

([268]) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.163**

تكون الدولة في هذه المرحلة قوية بعصبيتها وفي نفس الوقت فتيّة, فتتميّز بقوّة حاكمها وتلاحم أفرادها, ومن هنا تبدأ الدولة في تطورها التطور الذي يجري بها إلى التفكك والانحلال.

➢ **تطور الدولة (امتداد الدولة في المكان وفي الزمان):**

الدولة عند ابن خلدون هي الامتداد المكاني والزماني لحكم عصبية ما[269], بمعنى أن الدولة تتسع حصتها من الممالك والأوطان التابعة لها, ويطول أمدها وكل هذا متوقف على مدى قوّة عصبيتها وقوة التلاحم والانسجام داخل أفرادها[270].

أ- امتداد الدولة في المكان (من الناحية الأفقية):

فالدولة نوعـــان: **دولة خاصة ودولة عامة**

الدولة الخاصة: وهي حكم عصبية خاصة في إقليم معين, وهي تابعة ولو نظريا لحكم عصبية عامة, مثل الدولة البويهية التي هي دولة خاصة في الدولة العامة التي تشملها وهي الدولة العبّاسية.

الدولة العامة: هي حكم عصبية عامة لأقاليم عديدة ممكن أن تنطوي تحتها دول خاصة (تحكمها عصبيات خاصة), مثل الدولة العباسية[271].

وبالتالي فالدولة العامة لا تخضع لغيرها فملكها تام, على خلاف الدولة الخاصة التي ملكها ناقص[272], وعليه تطور الدولة في المكان يخص رقعة الدولة وهو ما عرّفه ابن خلدون بقوله: ﴿في أن كلّ دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها﴾[273], وهذا التطور يرتبط

([269]) **محمد عابد الجابري, العصبية والدولة,ص.211**

([270]) **محمد عابد الجابري, نفسه,ص.214**

([271]) يضرب **بوزيان دراجي** مثالا في بلاد المغرب الإسلامي للدولة الخاصة بالدولة الزيرية داخل الدولة الفاطمية, والدولة العامة الدولة الفاطمية و دولة الموحدين, **العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.103-104**.

([272]) **محمد عابد الجابري: المرجع السابق,ص.211-212**

جاء عند ابن خلدون في الفصل الثالث والعشرون في حقيقة الملك وأصنافه, بيان لذلك فقال: (وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعيّة ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور, ولا تكون فوق يده يد قاهرة, وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور, فمن قصرت به عصبيته عن بعضها,مثل حماية أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك لم تتم حقيقته,كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة بالقيروان, ولملوك العجم صدر الدولة العباسية, ومن قصرت به عصبيته أيضا عن الاستعلاء على جميع العصبيات و الضّرْبِ على سائر الأيدي, وكان فوقه حكم غيره, فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته, وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة). **عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.197**

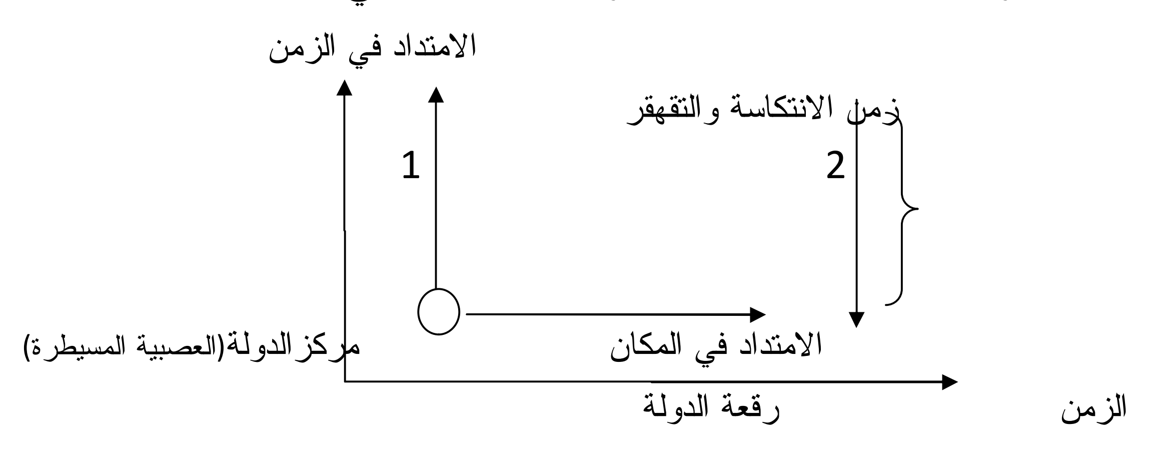
ويشيرمحمد **فاروق النبهان** أن هذا التفسير يتوافق مع مفهوم السيادة في وقتنا الحاضر, فهناك سيادة مطلقة فهو ملك تام كامل, وهناك سيادة مقيّدة فهي ملك ناقص. **الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.123**

([273])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.170**

بعاملين,حال عصبيّتها وحال العصبيات في المناطق التي تحكمها أو تريد بسط سلطانها عليها, فكلما كانت عصبية الدولة شديدة الالتحام والقائمون بها كثيرو العدد وكانت العصبيات التي يراد إخضاعها أو استتباعها (بالحلف) ضعيفة(لقلّة عددها أو عدم اللُّحْمَة), فإن ملكها سيكون أكثر اتساعا والعكس صحيح,وفي كل الأحوال يجب أن تقف رقعة الدولة عند حد تنتهي إليه(274).

ب- امتداد الدولة في الزمان:

إذا كان المبحث السابق يتحدث عن امتداد الدولة في المكان أي اتساع رقعتها, ويرتبط ذلك كذلك بقوة عصبيتها وضعف العصبيات الأخرى,فإن هذا الامتداد له تأثير هو الآخر في طول أمد الدولة (أي امتدادها في الزمان), وكل ذلك مرتبط بقوة عصبيتها ونسبة القائمين عليها في القلّة والكثرة, حيث ﴿أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة﴾(275), و تفسير ذلك أنه كلما قويت عصبية على غيرها من العصبيات وصارت الغالبة عليهم,فإن الدولة التي أقامتها تلك العصبية تتوسع على حساب أوطان العصبيات المغلوبة والحليفة,وبالتالي تكثر ممالكها, ثم لا يمكن لهذا التوسع أن يستمرّ دون نهاية, فحين تتوقف الدولة عن التوسّع ,ثم يبدأ نقصها يكون من الأطراف لا في وسطها الذي هو مركز العصبية الحاكمة, وهذا النقص يكون تدريجيا لكثرة الممالك, فإذا جُمِع وقت هذا النُّقص حتى يصير إلى مركز الدولة نجده طويلا, أما إذا كانت الدولة ضعيفة بضعف العصبية الحاكمة فإن رقعتها الجغرافية تكون صغيرة وفقا لذلك,ومثال على ذلك دولة العباسيين و الدولة الأموية بالأندلس ودولة العبيديين ودولة الموحدين, امتدت فترة حكمها لقوّة عصبياتها وكثرة القائمين عليها في العدد.



1- يعتمد على قوة العصبية الحاكمة و مدى القائمين عليها في القلة والكثرة وضعف العصبيات الأخرى

2- مرتبط بضعف العصبية المسيطرة والعصبيات التابعة لها .

---

(274) محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية و الدولة,ص.212-213

(275)عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.172

إنّ امتداد الدولة في الزمان ينتج لنا نوعين من الدول: **دولة شخصية ودولة كلية** اعتمادا على الأشخاص الذين يحكمون هذه الدولة. ﴿أنّ الدولة لها أعمار [276] طبيعية كما للأشخاص﴾[277],أما **الدولة الشخصية** فهي حكم شخص واحد من أهل العصبية الحاكمة, مثل دولة هرقل, ودولة معاوية, ودولة يزيد, دولة المأمون, ودولة عبد المؤمن..الخ, وهي محدودة زمنيا بمدّة حكم هذا الشخص.

و**الدولة الكلية** هي مجموع الدول الشخصية التي ينتمي أصحابها إلى عصبية واحدة خاصة كانت أو عامة, إذن هي مدّة حكم عصبية ما, مثل الدولة الأموية هي دولة كلية, إذ هي دولة عصبية خاصة من العصبيات العربية.

والدولة العربية سواء كانت أموية أو عباسية هي كذلك دولة كلية باعتبارها دولة عصبية عامة واحدة, هي عصبية العرب, بمعنى أن الدولة الكلية هي أعم من الدولة الشخصية[278].

- **مفهوم الدورة العصبية والدورة الاجتماعية:**

مما سبق أن العصبية نوعان عامة وخاصة, وأن الرياسة والملك, هي رئاسة إحدى العصبيات الخاصة على باقي العصبيات التي تشكّل معها عصبية عامة واحدة(**عصبية خاصة متغلبة + عصبية خاصة+ عصبية خاصة+....= عصبية عامة**)

وابن خلدون يقرّ بأن﴿ الرّئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في مَنْبت واحد تعيّن له الغَلَبُ بالعصبية﴾[279]و﴿لا تنتقل إلاّ إلى الأقوى من فروعه﴾[280], وكذلك ﴿ فإذا انقرضت الدولة فإنما يتناول الأمر منهم(أي من أصحاب العصبية الحاكمة) من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عُرِف لها التسليم والانقياد, وأونس منها الغلب لجميع العصبيات, وذلك إنما يوجد في النسب القريب

---

[276] يقصد ابن خلدون بالأعمار المراحل التي يجتازها الشخص في حياته من طفولة و شباب وشيخوخة, والدولة مثل الشخص تنتقل من الطفولة (طور التأسيس) إلى الشباب(طور العظمة) إلى الشيخوخة(طور الهرم), **محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية و الدولة,ص.215**.

شبه عبد الرحمن الدولة بالشخص وذلك راجع إلى أن أساس الدولة هو العصبية, والعصبية تسعى إلى الملك كما سبق معنا,قال:(أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك), ولا بدّ للملك من الحاكم وهذا الحاكم يكون من العصبية المتغلبة يُختار منهم بالخصال الحميدة وشرف النسب وبالتالي فالدولة تتطور في الزمان حسب تطور العائلة المالكة(النظام الوراثي), وهو ما ذكره في أعمار الدولة وأطوارها, ويتضّح لنا أن النظام الوراثي وإن كان له كفل في ضعف كيان الدولة, إلاّ أن المعيق الأساسي لديمومة الدولة هو العصبية القبلية التي تمنع من ترسيخ هذه الدولة وتعزيز مؤسّساتها.أنظر حول النظم القبلية وتعارضها مع نظم الدولة, **بوزيان دراجي :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية,ص.12-16**

[277]**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.179.**

[278]**محمد عابد الجابري: المرجع السابق,ص.212, كذلك بوزيان دراجي:العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية, ص.104-105**

[279]**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.141.**

[280]**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.179,**

منهم﴾[281], فحسب الجابري أن تطور الدولة أو أطوارها (التطور الزمني) لا تعني في ذهنه إلاّ هذه العملية ذاتها, عملية انتقال الرياسة و الملك من فرع إلى آخر داخل العصبية الغالبة[282].إذن تطور الدولة في الزمان هو ما يعرف { **بالدورة العصبية**} وهو أي ابن خلدون لا يُعْنى {**بالدورة الاجتماعية** }.

وبالتالي فالدورة العصبية تعني استمرار الحضارة والعمران داخل حكم العصبية العامة, بحيث أن انتقال الحكم والملك من عصبية خاصة إلى أخرى خاصة مثلها لا تؤثّر في الحضارة والعمران, فغالب الأمر هو تواصل في البناء والتعمير على وتيرة متشابهة,أمّا إذ انتقل الحكم من عصبية عامة كبرى إلى عصبية عامة مماثلة لا ترتبطان برابطة العصبية, هنا يكون الخلل الذي يصيب العمران عظيما وكبيرا, حيث قال: ﴿ وهذا الخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم..﴾ [283]

وهذه الحركة للدولة تدخل في إطار **الدورة الاجتماعية** بمعنى انتقال الحضارة من أمة إلى الأخرى, وعليه فابن خلدون يحصر نظريته بالدورة العصبية[284] مع معرفته بوجود الدورة التاريخية أو الحضارية أو الاجتماعية حيث قال:﴿حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملّة, أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته, فحينئذ يخرُج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأْذَنُ الله بقيامه بذلك التبديل, كما وقع لمضر حين غلبوا الأمم والدُّولِ وأخذوا الأمر من أيدي أهل العلمِ, بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقابا﴾[285].

2- <u>**العمران الحضري: مجال تطور الدولة**</u>

إن العصبية الغالبة بتأسيسها للدولة تكون قد وصلت إلى مفترق الطرق بين البداوة والحضارة, ولا تدخل في مرحلة التحضّر إلاّ بالرّفه واتساع الأحوال, ﴿ فالدولة من أوّلها بداوة, ثمّ إذا حصل الملك تبعه الرّفه واتساع الأحوال ﴾[286].

([281])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.115-156**

([282]) **محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية والدولة,ص.216**

([283]) يذكر **الجابري** أن عبد الرحمن يضيف إلى هذا المعنى الدولة العباسية التي خلفت الدولة الأموية, وذلك راجع إلا أن عصبية الدولة الأموية عربية محضة, أما الدولة العباسية هي عصبية فارسية في الغالب(ما يعرف بالمراحل الأربعة للنفوذ) فالعصبيتان لا تَمُتّان بصلة, **نفسه,ص.216**

([284]) تمكن عبد الرحمن من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه, فكان المؤرخ الأول الذي بحث في هذا المنطق, وكان بإمكانه صياغة قانون الدورة التاريخية لولا أن مصطلح عصره وقف به عند ناتج من منتجات الحضارة ألا وهو الدولة.**مالك بن نبيّ: شروط النهضة, ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين,دار الوعي الجزائر, ط11 1433ه-2012م ,ص.69**

([285])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.156**

([286])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.181**

كما أن ابن خلدون يؤكد أن تأسيس الدولة يسبق دائما تأسيس المدينة,وبظهور الدولة يكون لزاما الانتقال إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة العمران الحضري[287],والكلام عن مرحلة العمران الحضري يعني مجال تطور الدولة,حيث أن الدولة من أولها بداوة,ثم يتبع ذلك الرّفه واتساع الأحوال, وتفسير كل ذلك حسب ابن خلدون هو

التغيّر في نحل المعاش وانتقالهم من ﴿ خشونة البداوة إلى رقة الحضارة﴾[288]و الحضارة كما عرفها﴿إنّما هي تفنّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه في المطابخ والملابس والمباني والفُرُشْ والأبنية, وسائر عوائد المنزل...,فصار طور الحضارة في المُلك يتبع طور البداوة ضرورة,لضرورة تبعية الرفه للملك﴾[289].

إلاّ أن هذا الانتقال بين المجتمعين يكون تدريجيا, وكي لا يجعل الهوّة واضحة بين العمرانين استعمل عبد الرحمن مفهوم **المصر**, والمصر غير القرية أو المدينة, و الفرق بينه وبين القرية هو أنّ نشوءه يكون نتيجة حصول ما فوق الضروري لحفظ الحياة, والمدينة تنشأ من اتساع المصر وتكاثر سكانه[290].

من هذا كله نستخلص أن العمران البشري عند ابن خلدون عبارة عن حلقة متصلة, وأن الدولة سابقة للمدينة والمصر[291], كما أن الملك يدعوا إلى نزول الأمصار وذلك لأمرين أولها ,لأن الملك يدعوا إلى السكون والراحة[292], والثاني لعدم ترك ذلك المصر أو المدينة شاغرة فيلجأ إليها من يبتغي انتزاع الأمر ممن هو في يده فيتحصّن به ويستعص على العصبية الغالبة, ثم إن لم يوجد مصر وجب استحداثه ضرورة لنفس الغرض[293].

والسؤال المطروح هل هناك صراعا بين البدو والحضر؟

([287]) **عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون,ص.167**

([288]) **عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.181**

([289]) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه, ص.181**

([290]) **عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون,ص.254**

([291]) فتكون الدولة نتاج عمل العصبية وهذا يؤدي حتما إلى العمران الحضاري, **عبد الغني مغربي: نفسه,ص:167**

([292]) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.176**

([293]) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.357** حول كيفية اختطاط المدن و سبب ذلك أنظر,**ساطع الحصريدراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.525 وما بعدها.**

3- العلاقات بين البدو والحضــــــر:

إختلف الباحثون في هذا الموضوع باختلافهم في موضوع العلم الجديد, هل كان يدرس ويهتم بالدولة أم بالعصبية أم بالصراع بين البدو والحضر[294]

التمدن والأمصار علامة للملك:

إذا بدأت الدولة والقائمين عليها باختطاط الأمصار والمدن, فهنا يمكن القول أنّ الأمة التي هذا حالها دخلت مجال الحضارة وتأخّرت عن البداوة[295].

إلاّ أن هذا التمدّن يحصل تدريجيا وحتى ذلك الحين– أي حتى يُستوفى الغرض من ذلك– يبقى هَمُّ الناس الضروري في المعاش, ﴿ فإذا تمدّنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه, صُرِفَ الزائدُ حينئذٍ إلى الكماليات من المعاش ﴾[296], وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنّق فيها حينئذ.

إنّ أنواع الصنائع في المدينة متوقفة على مدى تَرَفِها وغِنَاها, ﴿ مثل الدهّان و الصفّار والحمّاسي, والطبّاخ والشمّاع والهرّاس, ومعلّم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع﴾[297], وعلى حَسَبِ حضارة المصر أو المدينة تتنوّع فيه الصناعات حتى تصل إلى حال العجب, مثل ترويض الطير والمشي على الخيط في الهواء وغيرهن من الصنائع التي لم تكن معروفة حسب ابن خلدون في بلاد المغرب,لأن عمرانه لم يبلغ عمران مصر والقاهرة[298].

وبالمِثْل تَشْيِّيد المباني والآثار لأن﴿ المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير﴾[299], وكلما اتسعت الدولة في المكان كلّما ضمّت إليها عَدَدًا هائلا من الصنعة والحرفيين والمهندسين بالإضافة إلى وفرة اليد العاملة, وبالتالي يكثر التشييد ويعظم, حيث أن عبد الرحمن يُنَبِهُنا إلى حقيقة المدن والهياكل العظيمة مثل ما هو معروف في اليونان وروما من أبنية وصروح

([294]) يرى الجابري أن الدولة هي المحور الأساسي الذي تدور حوله أبحـــاث ابـــن خلـــدون و نظريتـــه وليســـت العصـــبية أو الصـــراع العصبي, كذلك طه حسين اتجه نفس الاتجاه أما ســـاطع الحصـــري فيـــوعز ذلـــك للعصـــبية , إلاّ أن علـــي الـــوردي فَيَـــرُدُّ ذلـــك إلـــى الصراع بين البدو والحضر.أنظر **محمد عابد الجابري: فكـــر ابـــن خلـــدون,ص.120**, **علـــي الـــوردي: منطـــق ابـــن خلـــدون,ص.74 وما بعدها.**

إلاّ أن أيًّا منهم لم ينكر العلاقة بين المجتمعين البدوي والحضري, وهي داخلة في حركة التاريخ سواءٌ كانت ساكنة)Statique (أو متحرّكة (Dynamique.

([295]) **عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.356.**

([296])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه, ص.415**

([297]) **عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.416.**

([298]) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه,ص.416.**

([299]) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه.ص.357.**

ضخمة, وكذلك أهرامات مصر العظيمة, إن هذه الإنجازات العظيمة لم تنجز إلاّ بكثرة العاملين وتعدد الحِرَف بالإضافة إلى طول مدّة بقائها.

ومن علامات الحضارة خوض المجتمع في العلوم لتميّز البشر عن سائر المخلوقات, وعن الفكر تنشأ العلوم والصنائع[300],إلاّ أن إِعْمَالَ العقل في العلوم ليس مقتصرا على أهل الحضر, بل حتى البدو لهم من ذلك نصيب لكن دون أن يرتقي إلى ما هو موجود في المدن, وذلك لما أسلفنا أن البادية يعتمد أهلها على الضروري دون الحاجي, ومن ذلك ما نلاحظ كثرة الرحلة العلمية وغالبا ما تكون من البادية والأمصار القليلة العمران إلى المدن, وقَلّ أن تجد عكس ذلك ولو وجدته فَلِعِلَّةٍ أغلب الضَّنِ فيها طَلَبُ عُزْلَةٍ أو مخافة بطش سلطان, ولنا أُسْوَةٌ بعبد الرحمن نفسه إذ اعتزل في صحاري العرب كما أنه ارتحل إلى مصر لطلب المزيد, وقد بُهِرَ بها وبعمرانها وأثارها, فنقّح مقدمته وتاريخه بها لكثرة المكتبات بها.

نكون حتى هذا الحد قد حاولنا أن نوجز أهم مفاهيم ابن خلدون في العمران البشري ومن ذلك الدولة معتمدين في ذلك على منهجه في تصنيف مقدمته.

---

(300) عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه,ص.448

الفصل الثاني

دور العصبية في نشأة الدولة الموحدية

- أولا: هدف العصبية المصمودية تحقيق الملك
- ثانيا: مستويات نشوء الدولة وفق نظرية القوة والغلبة
- حقيقة تطور الدولة الموحدية باعتبارها ملوكا متعاقبين
- مظاهر العلاقة بين عصبية مصمودة والعصبيات الأخرى

تمـــــهيد:

حاولنا فيما سبق أن نسلّط الضوء على قضية هامة تعتبر حجر الزاوية في نظرية ابن خلدون ألا وهي مفهوم تأسيس الدولة[301], ثم خلصنا إلى أن عبد الرحمن اعتمد مبدأ القوّة والغلبة كمحفّز رئيسي لنشوء الدولة, وقبل ذلك بيّنا أن هذا المبدأ غير ممكن الوجود دون اجتماع إنساني يّفضي إلى ظهور ملكيات فردية ينتج عنها تطاول الأقل حظّا على غيرهم بطابع العدوان المتواجد جبِلّةً في البشر, هنا يستلزم ظهور ما يعرف بالوازع الذي يردع الظالم وينصف المظلوم, وبالتالي يحفظ للمجتمع تماسكه, إلاّ أن هذا الوازع يختلف حسب العمران البدوي والحضري وما يهم هنا هو الوازع الخارجي في البادية الذي يعتمد بدوره على عصبية قوية, وكلما تقوت تلكم العصبية أمكنها ليس حماية والمحافظة على أمن واستقرار القبيلة التابعة لها وحسب بل يتعدى ذلك إلى المطالبة ومحاولة الاستحواذ على ما عند الغير من موارد تحفظ للقبيلة المتغلّبة الاستمرارية وترتقي بها حتى إلى المطالبة بالرياسة والملك[302].

إذن ما هي هذه العصبية التي هي محور الدولة والتي بدونها تنعدم الدولة أو الملك في العصر الوسيط ؟

ننطلق مما انطلق منه ابن خلدون حين اكتشافه لفكرة العصبية كأساس لقيام الدولة.

فبعد أن أكد ما ذهب إليه سابقوه حول ضرورة الاجتماع الإنساني بفعل أن هذا الأخير مدني بطبعه, ولا يمكن الاستمرار إلاّ بالاجتماع مع بني جنسه لتحصيل المعاش[303] الذي هو المحرّك الرئيسي في المجتمع وحوله تدور الصراعات والنزاعات ومن أجله تقوم دول وتسقط أخرى, وهذا الاجتماع وطلب المعاش والرزق يميّز أفراد المجتمع من حيث كثرة أو قلّة الجمع, فينتج عن هذا الاقتتال الذي هو من قبيل " الطبع العدواني الذي في البشر",﴿...ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض, فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلاّ أن يصدّه وازع﴾[304], ولكي تستقيم حياة البشر يتوجّب عليهم الاحتكام إلى سلطة يخضع لها الكل تحفظ للمجتمع تماسكه وتعمل على تقوية التعاون بين أفراده وكبح عدوان بعضهم على بعض سواء كأفراد أو جماعات[305]وهذا ما عرّفه عبد الرحمن بالوازع, ومن المعلوم أن طرق العيش والكسب تختلف من البادية إلى المدينة, فبالتالي فالوازع نفسه يختلف باختلاف العدوان (داخلي وخارجي),

---

(301) يعتبر تأسيس الدولة من قبل عصبية معيّنة منعطف هام في تاريخ تلك القبائل صاحبة العصبية

(302) **عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.52**

(303) **عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه,ص.129**

(304) **عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.136**

(305) **محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية والدولة,ص.163-164**

حيث يقول عبد الرحمن: ﴿ فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة- **وازع داخلي**- فإنهم مكبوحين بِحكَمةِ القهر والسلطان عن التظالم, ... وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار...., أو يدفعه ذيادُ الحامية من أعوان الدولة -**وازع خارجي**- وأمّا أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض, مشايخهم وكبراؤهم- **وازع داخلي**- وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج الحامية الحيّ من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم- **خارجي**- ولا يصف دفاعهم - هنا الشاهد على أن العصبية خاصة بالبادية وهي من الوازع الخارجي- وذِيادُهم إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد,لأنهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم﴾[306].

وبالتالي يفسّر الجابري الوازع عند ابن خلدون أنه بدوي وحضري حسب نحل المعاش والرزق, كما أنه داخلي وخارجي حسب طبيعة العدوان, إلاّ أن عبد الرحمن لا يهتم إلاّ بالعدوان الخارجي على الدولة وعلى القبيلة وبالتالي (إنّه يُعنى بالعصبية فقط من حيث أنها رابطة دفاع أو قوّة مواجهة تنظم العلاقات الخارجية للمجموعات المتساكنة في البادية, علاقاتها بعضها ببعض وعلاقاتها مع الدولة) [307].

نحن نعلم أن ابن خلدون توصّل إلى نظريته من خلال مجتمعه الذي عاش فيه, والذي بدوره كان قبليا صرفا بحيث شكلت القبيلة الوحدة الاجتماعية الأساسية التي يقوم عليها المجتمع, وبالتالي فالأسرة الحاكمة تكون ذات طابع قبلي, ومن ثمّ فالوازع التي تستند عليه هذه الأسرة يستند بدوره على قوة تُعِينه لاستلائه على السلطة والحفاظ عليها ولا يمكن أن تكون هذه القوّة إلاّ العصبية[308].

- **أولا: هدف العصبية المصمودية تحقيق الملك**

1- العصبة والعصبية:

تعدّدت الآراء حول مفهوم العصبية,أتعود إلى القبيلة أم إلى الدّين أم إلى مفهوم آخر[309].

مفهوم العصبية:

- **تعريفها لغة:**

العصبية في اللغة مشتقة من " العَصْب" و" العَصَبُ" وهو الطيّ والشدّ, وعَصَبَ الشيء يعْصِبُهُ عَصْبًا,طَوَاهُ ولَوَاهُ, وقيل شدّه والتعصّب المحاماة والمدافعة.

---

(306) عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.137

(307) محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية والدولة,ص.165

(308)الجابري: المرجع نفسه,ص.165

(309)العربي قلايلية: التفكير العلمي عند ابن خلدون و أبعاده الحضارية,ص.178

والعَصَبَةُ: الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم, وعَصَبَةُ الرجل قومه الذين يتعصّبون له, والعُصْبَةُ والعِصابَةُ جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين[310].

- **في الاصطلاح :**

قال الأزهري في تهذيب اللغة:" والعصبة: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته, و التألّب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين" وعرّفها ابن خلدون بأنها ﴿النُعْرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكةٌ ....,ومن هذا الباب الوَلاَءُ والحِلْفُ,إذْ نُعْرة كلِّ أحد على أهل ولائه وحلفه..﴾[311]ويؤكد بعضهم أن جميع الشراح يتفقون على أن العصبية تعني"التماسك الاجتماعي" أو"روح التضامن"[312].

والعَصَبَةُ تعني الجماعة, ولكن ليس مطلق الجماعة, بل تلك التي تتكون من "أقارب الرجل الذين يلازمونه", وبالتالي هي تقوم على (جماعة ملازمة) و(قرابة), وتظهر عندما يكون داعٍ للتعصُبْ كخطر يتهدّد تلك الجماعة أو فردًا منها[313].

والعَصَبِيَّةُ هي رابطة قرابة, تَتَوَسَّع حتى تكون وحدة إرادية بين مجموعة كبيرة من الناس, يشعرون معا بمشاعر الانتماء إلى نسب واحد أو إلى جدٍّ أعلى واحد, ولو كان ذلك قبل أجيال طويلة قد تمتد قرونا [314]

من داخل القبيلة تجد كل فردٍ له شخصيته المستقلة الخاصة, أما من الخارج هناك شخصية واحدة هي شخصية القبيلة التي تعرف باسم " الأنا العصبي", ونشاط هذا الأخير سواء كان لصالح القبيلة أو فرد من أفرادها يعرف(بالعصبية) [315], والعصبية عند ابن خلدون تعني أساسا القوّة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة, سواء كانت المواجهة مطالبة أو دفاعا[316].

([310]) **ابن منظور ص.2965-2966**, وردت العصبة في القران الكريم في الآيات التالية, قال تعالى: (إذ قالوا لَيوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة)**سورة يوسف الآية8**,وقوله تعالى:(قالوا لَئِن أكله الذِيبُ ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون)**سورة يوسف الآية 14**,(إنّ الذين جاءوا بالإِفْكِ عصبة منكم)**سورة النور الآية 11**,(وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتيحه لتنوء بالعصبة}**سورة القصص الآية. 76**

([311])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.138**

([312])**عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون ,ص.144**, كذلك ينظر

Yves lacoste:Ibn khaldoun .p144

([313])**الجابري: فكر ابن خلدون, العصبية و الدولة,ص.168**

([314])**النبهان محمد فاروق : الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.156**

([315])بحيث تعتبر القبيلة كوحدة واحدة تمثلها العصبية

([316])**الجابري: المرجع السابق,ص.170**

حال العصبية المصمودية قبل مطالبتها بالملك:

﴿المصامدة[317]هم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم ومن بطونهم : برغواطة وغمارة وأهل جبل درن﴾[318].

قويت عصبية برغواطة قبيل الإسلام وصدره, ثم انتقلت الرياسة إلى مصامدة جبل درن إلى عهد عبد الرحمن, كانت شعوبهم كثيرة وقامت فيهم دول ولعل أهمها التي قامت على يد مصامدة جبل درن, حيث كانت جماعتهم موفورة وبأسهم قويٌّ[319].

حدّد المراكشي مجال استيطانهم فقال:(فَحَدّ بلادهم النهر الأعظم الذي يصبُّ في جبال صنهاجة وينتهي إلى البحر الأعظم, بحر أقيانس, يُدعى هذا النهر أم الربيع, وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لمتونة ومسوفة وسَرْطة,....,هذا حد بلاد المصامدة عرضا, وحدها طولا من الجبل المعروف بدرن إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس[320]..)[321].

أما مصامدة جبل درن[322], فهم بطون أهمها:هرغة وهنتاتة وتينملل وكدموية, وكنفيسة ووزيكة وركراكة, وهزميرة ودكالة وحاحة وامادين وازكيت وبنومـــــاكر وإيلانة ويقال هيلانة...﴾[323].

شكلت هذه القبائل تجمعا بشريا ضخما حتى أن الجبل المذكور نُسِب إليهم وكان عبد الرحمن بن خلدون يجزم أنه: ﴿لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا﴾[324]

([317]) اتفق المؤرخون والنسّابة وغيرهم على تقسيم البربر إلى فرعين رئيسين: البتر والبرانس ويقول ابن خلدون(وأمّا شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس, ويلقّب مادغيس بالأبتر, فكذلك يقال لشعوبه البتر, ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا ابنا بُرٍّ) **عبد الرحمن بن خلدون: العبر ,ج6ص.117**

([318])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه,ج 6,ص.275**

([319])عبد **الرحمن بن خلدون: نفسه,ج 6,ص. 300**

([320]) بحر أقيانس وهو البحر المحيط, أو البحر الأخضر, والبحر الأعظم, وبحر الظلمات , وهو بحر لا عِمَارة بعده, كما لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم.**الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار,ص.32**

([321])**عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب,ص.424-425**

([322])جبال الأطلس, **عبد الواحد المراكشي, المصدر نفسه,ص.424**

هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمورة, **عبـــد الرحمـــان بـــن خلـــدون:تـــاريخ ابـــن خلـــدون,ج 6,ص.298**,ومـــن الواضح أن ابن خلدون لم يكن على علم بأن المعمورة بها جبال أعظم من هـــذه الجبـــال بكثيـــر . وهـــذه الجبـــال معروفـــة فـــي كتب المسالك والجغرافيا بالأطلس وكذلك بالكلاوي أو العيّاشي, **ابن زيدان: عبـــد الـــرحمن بـــن محمـــد السجلماســـي : إِتْحـــاف أعـــلام النـــاس بجمـــال أخبـــار حاضـــرة مكنـــاس, تحقيـــق علـــي عمـــر, مكتبـــة الثقافـــة الدينيـــة القـــاهرة, ط1 1429ه – 2008م,ج1,ص.91** , وعُرِف كذلك الجبـــل بإســـمآزور, ينظـــر**العبـــدري أبـــي عبـــد** الله(**ت700ه-1300م**)**:رحلـــة العبـــدري, تحقيق علي إبراهيم كروي, دار سعد الدين , دمشق. ط2 1426ه-2005م,ص.339**

([323])**عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون,ج 6,ص.299**

([324])**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين,ص.28-29**

يوحي لنا هذا أمرين: أولهما تحقق مبدأ مهم هو الاجتماع البشري لهذه القبائل , والثاني عدم كونهم غائرين في البداوة كالعرب ولكن وعورة مناطقهم الجبلية أكسبتهم عنصرا آخر يمكن أن نسميه **الحامية الطبيعية لمواطنهم**, وهو الأمر الذي جعل إخضاعهم من قبل المرابطين[325] يتم بصعوبة .

إذن تحقق في شعوب المصامدة خاصة منهم أهل جبل درن القوّة والبأس[326] وتعدّد العصبيات الخاصة مع قوتها, وهذا ما منعهم من تعيين زعيما عليهم[327] , فلو كانت فيهم عصبية خاصة ظاهرة على غيرها لأخضعت الباقين تحت سلطانها تحقيقا لقول عبد الرحمن: ﴿اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النّسب العام.. ﴾[328], ثم قال في موضع آخر ﴿ ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعدّدة ,فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها, تغلبها وتستتبعها .. ﴾[329].

جاء عند ابن خلدون حول مصامدة جبال درن: ﴿ كان لهؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوّة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم..., كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء, ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي ..... ﴾[330].

([325]) الذين هم أوغر منهم بداوة – رغم أنهم من البربر البرانس – إذ اعتمدوا في الغالب أسلوب الرعي والترحال, **إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**,ص. 12

([326])هناك قصة أوردها **عبد الواحد المراكشي** أن الإسكندر (لم يذكر من هو)أهديت له فرس ببعض بلاد المغرب من أجود الخيل إلاّ انه لم يُسْمع لها صهيل, فلما حل الإسكندر في مسيرته بجبال درن وهي بلاد المصامدة, وشربت تلك الجياد من مياهها صهلت صهلة إصطكّت منها الجبال, فكتب الإسكندر يستشير حكيما له حول الأمر فقال له:(إنّها بلاد شرّ وقسوة فعجّل الخروج منها),**المعجب:ص.259** .

([327]) نقصد هنا خاصة على عهد الدولة المرابطية بحيث كانوا في نزاع دائم فيما بينهم كما سوف نوضّح ذلك.

([328])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.140.**

([329])**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه,ص.148.**

([330])**عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون,ج6,ص.299** و نقل عنه ذلك **السلاوي: الاستقصاء ,ج1,ص.130**.نستنتج من هذا القول أمورا منها: أنها عصبية قوية قبل الإسلام وبعده كذلك طاعتهم للدّين الإسلامي فلم يكونوا كبرغواطة في نحلة كفرهم, عرفوا الملك والإمارة قبل الإسلام, ولم تقبل عصبيتهم التبعية والاستكانة بعد أن استولى المرابطون على مواطنهم , بل انتظروا الفرصة المواتية لقلب الموازين .

يقول **إبراهيم القادري بوتشيش**,(عند بداية الاجتياح المرابطي تم **إخضاع مصامدة درن بصعوبة**..ولم يتم التوغل في هذا الجبل إلاّ أن كان عبد الله بن ياسين (الزعيم الروحي للمرابطين) ,قد اختبر أحوالهم وأدرك نقاط ضعفهم, وعرف الصراعات التي كانت تحدث بينهم, ورغم خضوعهم لسلطة الحكم المركزي فإنه كان خضوعا رمزيا,..., وحرصوا على كسب ودهم, فمنذ أول وهلة بعث عبد الله ابن ياسين بقدر ما تجمع لديه من أموال الزكاة والأعشار إلى طلبة المصامدة و قُضاتها في محاولةٍ لاستمالتهم), **مباحث في التاريخ**

وعليه يمكن القول أن المصامدة على عهد الدولة المرابطية اختلّ لهم شرط الغلب, حيث أن كل العصبيات الخاصة أو على الأقل مجملها متكافئة القوة نسبيا فكان مثالها كالخليط الذي تكافأت فيه عناصره, فأصبح غير متجانس[331].

وبالتالي ضلّوا في قتالهم ضد بعضهم حتى جمعهم داعية من قبيل آخر وهو عبد الله بن ياسين بعامل رئيسي هذه المرّة وهو عامل الدّين, وهذا ما يذكرنا بقبيلتي الأوس والخزرج من أهل يثرب اللتين كانتا في صراع متواصل مرير حتى جاء الإسلام فتوحدتا تحت لوائه بدعوة رجل من غير قبيلهم وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مهما يكن فسرعان ما عادت قوة المطالبة لدى العصبية المصمودية حيث يوضح ذلك بوتشيش قائلا:(غير أن المرابطين لم يؤثروا كثيرا على الحياة الاجتماعية لمصامدة جبل درن, ولم يغيّروا شيئا من أماكن استقرارهم..., ولا مِراء في أن مصامدة درن لم يستسيغوا قيام دولة مركزية تراقب كل مناحي النشاطات الاقتصادية أو تجعلهم يعيشون في ضائقة اقتصادية ....., وإذا كانوا قد عاشوا هادئين خلال المرحلة الأولى من الحكم المرابطي, فإنهم بدؤوا في المرحلة الثانية في إظهار ما تضمره صدورهم من سخط تجاه الحكم المركزي) [332].

2- أساس الرابطة العصبية(النسب وفي معناه):

تكلمنا عن العصبية معناها اللغوي والاصطلاحي وبيّنا أنها تقوم على الجماعة المترابطة بربط النسب, يبدأ ذلك بالوازع الذي يختلف من المدينة إلى البادية, ولا يصدق هذا الوازع إلاّ بالعصبية القوية, وتزداد قوة هذه العصبية إذا كانت من أهل نسب واحد ﴿ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم و يخشى جانبهم﴾[333]

الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ص.29 ,كذلك حول إكرامه لطلبة المصامدة أنظر, **علي بن أبي الزرع الفاسي:الأنيس المطرب,ص.126** , أنظر أحوال المصامدة لما مرّ عليهم عبد الله بن ياسين عند, **ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب,ج4,ص.10**.

وما يؤكّد على قوّة عصبية المصامدة وخاصة أهل جبل درن, أنّهم كانوا ضمن جيش يوسف بن تاشفين وابنه علي حيث قال **لسان الدّين ابن الخطيب:**" وعظم ملك يوسف بن تاشفين وضم من جزولة ولمطة, وقبائل زناتة ومصمودة جموعا كثيرة وسماهم بالحَشَم":**الحلل الموشية :ص.20**, نلاحظ هنا ذكر بالإضافة إلى قبائل صنهاجية ,قبائل زناتة ومصمودة, وذلك راجع حسب رأينا لقوّتهما وكذلك لمذهبهما السنّي, ثم يقول ابن الخطيب:" ولما قربت وفاته– أي يوسف بن تاشفين– أوصى ابنه ولي العهد بعده أبا الحسن علي بثلاث وصايا أحدها, ألاّ يُهَيِّجَ أهل جبل دَرَن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة" **لسان الدّين ابن الخطيب: المصدر نفسه,ص.60**.

([331])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.141**,لكنتجدر الإشارة أن مصمودة كانت واقعة بين عدّة صراعات أهمها الدولة الأموية في الاندلس و الدولة العبيدية في المغرب. أما القبائل البربرية فكانت إماّ في حالة تحالفات مع الإثنين مثل زناتة وصنهاجة الشمال أو محايدة نسبيا مثل مصمودة.

([332])**مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين**,ص.30.

([333])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص:137**,

الإلتحام بالنسب القريب أو البعيد وفائدته في العصبية:

يأتي عبد الرحمن ليبين لنا أن العصبية ناتجة عن الالتحام بالنسب أو ما يقوم مقامه فيقول: «في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه », ويشرح ذلك «أن صلة الرحم طبيعيّ في البشر إلاّ في الأقل, ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة, فإن القريب يجد في نفسه غضاضة [334] من ظلم قريبه أو العداء عليه...»[335].

إن أساس الرابطة العصبية وفق ابن خلدون هو تلك الحمية الصادرة عن الفطرة والتي تدفع الشخص إلى نصرة قريبه في الدم, « وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي الأرحام وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية»[336],وبالتالي التلاحم بالنسب أمر طبيعي في البشر ملازم للاجتماع البشري فهو أحد العوارض الذاتية لهذا الاجتماع[337].

هذه النعرة والتناصر تكون قوية بين أفراد النسب الواحد القريب, لكنها لا تنعدم في النسب البعيد أو غيره من وجوه الانتساب كالولاء والحلف إلاّ أنها تنقص حدّتها«و النعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام, إلاّ أنها في النسب الخاص أشدّ لقرب اللحمة»[338].

لكن عبد الرحمن يريد أن يوسِّع نظريته في هذا المجال, لأن النسب الخاص أو ما يسمّيه بصريح النسب« إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم»[339], وهو يبين أن هذا الأخير ليس ضروري كأساس للعصبية فيقول: «وإذا بعُدَ النّسب بعض الشيء فربما تونسي بعضها ويبقى منها شُهْرة فَتَحْمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه,...., ومن هذا الباب الولاء والحلف, إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للأنفة التي تلحق النّفس من اهتضام (ظلم) جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب »[340].

---

[334]من غضّ وإغتضّ أي وضَع ونقُص, ذلّة ومنقصة, **ابن منظور: لسان العرب,ص.3265**

[335]**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص: 137**

[336]**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه, نفس الصفحة**

[337]**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.171**

[338]**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص: 140**,يرى **بوزيان دراجي** أنه استقر عند ابن خلدون شكلين من النسب: النسب الصريح و النسب الخليط , فالنسب الصريح نادر الوجود إلاّ عند المتوغّلين في البادية, أو من يطلق عليهم بالمتوحّشين الذين يتميّزون بطبيعة معيشية أبعدتهم عن التطوّر والحيوية وبالتالي عن الاختلاط,**العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية:ص.238-239**

[339]**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص139**

[340]**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.138**

وبالتالي فالنسب بشقيه القريب والبعيد ضروري في العصبية فهو موجب للالتحام الذي هو فائدته,حيث أن﴿ النسب أمر وهميّ[341] لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الصلة والالتحام﴾[342].

قوة العصبية في ثمرة النسب:

يحاول ابن خلدون (بعد أن بيّن لنا وهمية النسب أي بمفهومه القديم المتمثل في الروابط العائلية, إلاّ في المناطق المتوحشة من المعمورة بسبب انتفاء احتمالية **اختلاط الأنساب** فيهم) **أن يوضح لنا كيف يقع الاختلاط بين الأنساب؟** حيث يقول أن﴿ بعضًا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء, أو لفرارٍ من قومه بجناية أصابها, فيدعى بنسب هؤلاء ويُعَدّ منهم في ثمراته من النعرة والقَوَدِ [343]وحملِ الدّيات وسائر الأحوال, وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنّه وجد,....﴾[344].

من هذا النص نستخلص أن أهم أسباب اختلاط الأنساب هي : القرابة, الحلف والولاء, الفرار والاحتماء, وبالتالي لا يمكن أن تعتمد العصبية على النسب الصافي النقيّ لوحده لأنه وهمي, بل يجب أن تتعزّز بظواهر الجوار والحلف والولاء , وحتى أنّه يمكن أن يلتحق بها المصطنعين والعبيد[345], فيكون لهم ما لها وعليهم ما عليها, فالرابطة ليست دموية بالضرورة, هنا نصل إلى النتيجة التي وصل إليها ابن خلدون والتي تخلص إلى أن **الارتباط داخل العصبية يكون على أساس ثمرة النسب.** [346]

حيث ﴿ أنّ المقصود في العصبيّة من المدافعة والمغالبة, إنما يتم بالنّسب, لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى, والتخاذل في الأجانب والبُعَدَاءِ كما قدّمناه, والولاية والمخالطة بالرِّقِّ أو

([341])النسب الصريح لا يوجد إلى في القفر, حيث أن أهل المدن اختلط بعضهم ببعض (فكثر الاختلاط و تداخلت الأنساب), ثم إن هذا الاختلاط وقع في المدن مع العجم وغيرهم, "وفسدت الأنساب بالجملة وفُقِدت ثمرتها من العصبية فاطّرِحت", **عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.139.**

([342])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه, ص.139.**

([343])القَوَدُ : القصاص في القتل,**ابن منظور: لسان العرب,ص.3771.**

([344])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.140.**

([345])هناك نوعين من المصطنعين ,قبل الملك ويتنزّلون- من أصحاب العصبية- منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم,وإذا اصطنعوا بعد الملك كانت مرتبة الملك مميّزة للسيّد عن المولى,**بوزيان دراجي:العصبية القبلية,ص.253.**

([346])يقول **بوزيان دراجي:** (إذن ابن خلدون- في هذه الحال-لا يعترف بصحة النسب وكل ما يهمه فيه هي ثمراته أو نتائجه المتمثلة في الوصلة والالتحام والتناصر والنعرة, أي العصبية ,على أن يحدث -طبعا- بالانتساب إلى عصبية معينة إما عن طريق القرابة لأهل العصبية أو بواسطة الحلف و الولاء ,...., وعلى هذا يتضح بأنه يمكن للعصبية أن تكون قوية في حالات أخرى غير حال النسب أو القرابة)**,نفسه,ص.149-251**, كذلك **لساطع الحصري** تفسير ينبع من نفس المشكاة فارجع إليه,**دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.334-339**, يعطي **طه حسين** تفسيرا أدق عن طريقة اختلاط الأنساب وما ينجر عليه من اتصال النسب الصريح بغيره الدخيل , وذلك من خلال مثال الموالى في الدولة الإسلامية , وكيف يتعذّر على النسابة التفرقة بين الموالي وحُمَاتهم لأنهم تسموا بأسماء أسيادهم, ومن جهة أخرى يعتبر المولى نفسه جزء من عصبية سيده, **فلسفة ابن خلدون,ص.90-91**

بالحلف تتنزّل منزلة ذلك, لأن أمر النّسب وإن كان طبيعيّا فإنما هو وهميٌّ,...., واعتبر مثله في الاصطناع, فإنه يُحدث بين المصطنع ومن أصطنعه نسبة خاصة من الوُصلة تتنزّل هذه المنزلة وتُؤكّد اللُحمة, وإن لم يكن نسب , فثمرات النسب موجودة ﴾[347].

لأجل كل ذلك يؤكد الجابري أن النسب عند ابن خلدون , ليس الانتماء إلى جدٍّ مشترك, سواء كان هذا الانتماء حقيقيا أو وهميا, بل المقصود بالنسب هو الانتماء الفعلي إلى جماعة معيّنة,أي إلى عصبية ما,حيث أن النسب بهذا المفهوم لا يعنيالقرابة الدموية وحدها, بل كل ما يكون باعثا﴿للأنفة التي تلحق النفس من اهتضام(ظلم) جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب﴾[348].

يخلص الجابري أن الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه العصبية هو شيء آخر أوسع من النسب حقيقيا كان أو وهميا, إنه **المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة**[349].

وعليه فإن أساس العصبية هو النسب(حقيقي كان أو وهمي) ومحرّك كل هذا هو المصلحة المشتركة التي تدعو إلى التلاحم والتناصر, حيث ومن مصلحة الجماعة البدوية حماية نفسها من العدو وكذلك من الأزمات الأخرى كالمجاعة, وهذا هو الذي يدفعها إلى التعصّب والنعرة, وهذه العصبية تكون خاصة أو عامة وفق عامل النسب الذي يجمعها, ولا يصدق هذا إلاّ بتزاوج العصبية مع النسب يقول إبن خلدون: ﴿ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد[350],لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم﴾[351].

([347])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.193.**

([348])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه,ص.138.**

([349])**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.172**, ينبغي القول أن أساس التماسك القبلي هو بالإضافة إلى الرابط الدموي , المصلحة الجماعية, فالجماعة البدوية مهما كانت مكوّناتها لا تنحدر كلها من جد قديم واحد .,إلاّ أنها تتكون من اجل الدفاع على كيان القبيلة التي هي تابعة لها.**نصيف ناصف: الفكر الواقعي عند ابن خلدون,ص.244.**
لكن يضيف أحدهم أنه لم يرد على فكر عبد الرحمن بن خلدون حين تكلم عن التحول من عصبية النّسب إلى عصبية اللحمة والاجتماع الاعتبارات الدينية بل فسّرها دنيويا لا غير.**عبد الغني مغربي: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون,ص.151**,إلاّ أننا نظيف أن عبد الرحمن لم يغفل عن هذا بل جاء باستثناءات لنظرية العصبية ومن بينها دور الدّين أو الدعوة الدينية في تعزيز العصبية وتهذيبها من أجل تحقيق هدف ديني أكثر منه دنيوي, ألا وهو خلافة الله في الأرض وتطبيق تعاليمه.

([350]) يعطي **عزيز العظمة** تميزا آخر بين العصبية المتكونة من النسب القريب وتلك المتكونة من النسب البعيد, فالأولى تتكون أثناء تأسيس الدولة (حين تكون على أهبة الاستعداد لتشكيل الدولة), والثانية تظهر خصيصا بعد تشكيل الدولة (وبصورة أكثر تعقيدا في الدولة العظيمة), **ابن خلدون وتاريخه, ترجمة عبد الكريم ناصيف, دار الطليعة, بيروت لبنان,ط2 1407ه-1987م, ص.57**

([351])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص. 137**

ارتباط قبائل مصمودة بالنسب القريب والبعيد:

سبق معنا أن قبائل مصمودة هم أكثر قبائل البربر وأهم فروعها ثلاثة: برغواطة وغمارة وأهل جبل درن, كان فيهم دول وملوك, كما تنبأ فيهم قوم خاصة من برغواطة وغمارة وأهم بطون المصامدة أهل جبل درن وهم قبائل أهمها: هــــرغة, هـــــنتاتة, تـــينملل, كــــــدمويه, كـــــنفيسة,وريــكة وركراكة وهزمـــــيرة, دكـــالة وحاحةوأمادين أو(أصادين), وأزكيت وبنو ماكـــر, وإيـــلانة (يقال لها هيلانة).

كانوا أهل دين مخالفين لإخوانهم برغواطة, ومنهم مشاهير أمثال يحيى بن يحيى(وهو وسلاس بن شملال بن أمادة) راوي موطأ مالك, عرفوا الملك و الإمارة[352].

ومصمودة عكس قبائل صنهاجة الجنوب(الملثمين) من حيث أسلوب العيش حيث أنهم استقروا واتّخذوا المعاقل والحصون وشيّدوا المباني[353]وامتهنوا الزراعة و الفلاحة[354].

المصامدة يربطهم النسب القريب فجدهم واحد هو مصمود بن يونس بن بربركما سبق معنا, ثم إذا لاحظنا طبقات الموحدين التي وضعها المهدي نجد التأكيد على رابطة النسب بالرحم قبل النسب البعيد(الحلف وما في معناه), حيث قسمهم إلى ثلاثة عشر طبقة على خلاف في ذلك[355], أغلبهم من المصامدة, أما القبائل الأخرى التي آزرت دعوة المهدي فكان لهم نصيب بقدر مشاركتهم, واهم هذه القبائل ثمانية سبعة على عهد المهدي بن تومرت حيث فال ابن خلدون: ﴿وخصّ–أي ابن تومرت– بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها وجعل علامة تمكنها فتح مراكش,...., وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثماني قبائل سبعة من المصامدة, هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي, وهنتاتة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية , كنفيسة وهزرجة وكدميوة ووريكة, وثامن قبائل الموحدين كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته﴾[356].

([352])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.298,ص.300.**

([353])كانوا أهل كثرة حيث قال **عبد الرحمن**: (ودرت أفاويق الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيها إلاّ خالقهم),**عبد الرحمن بن خلدون :نفسه,ج6ص.298–300**

([354])**حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس" عصر المرابطين والموحدين", مكتبة الخانجي, مصر, ط1 1400ه– 1980م, ص.301.**

([355])فقد ذكر **ابن القطان المراكشي**, ثلاثة عشر طبقة في كتابه,**نظم الجمـــان لترتيـــب مـــا ســـلف مـــن أخبـــار الزمـــان,درســه وقدم لــه وحققــه محمـــود علـــي مكـــي,دار الغـــرب الإســـلامي ,ط1 1410ه–1990م,ج3 ,ص.82**, كـذلك **صـــاحب الحلـل الموشية,ص.79–80**, إلاّ أن الطبقتين الثانية عشر و الثالثة عشر تختلفان عند كل منهما

([356])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.359.**

إذن يتبين لنا من خلال هذا النص أن هذه القبائل اتخذت مكان الصدارة في الدولة الموحدية, فلا ضير أن نذكر حالها باختصار [357]:

هرغة [358]: هي قبيلة الإمام المهدي [359], وهي قليلة العدد بالنسبة لغيرها من قبائل الموحدين [360],إلاّ أنها احتلت مرتبة رفيعة لانتساب المهدي لها,ودخل بعض أفرادها مجلس الخمسين [361] الذي أسسه المهدي ليبحث شؤون الدولة وهو يلي هيئة العشرة [362] أهمية.هنتـــــاتة [363]: هي قبيلة ضخمة وكان لها رياسة وشرف في ما مضى من

---

(357)نشير هنا إلى الاختلاف الواضح في الروايات التي أتتنا عن صحابة المهدي وعن الطبقات التي قسّمها, وعلى حسب رأينا وما وصلنا من مراجع نجد أن أحسن مرجعين يحلّلان هذه الإشكالية هما: كتاب **رشيد بورويبة: ابن تومرت, ترجمة عبد الحميد حاجيات, كنوز للنشر و التوزيع, تلمسان الجزائر,ط1 1432ه 2011م, ص.91** وما بعدها, كذلك **عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم, دار الغرب الإسلامي, لبنان , ط1 1411ه-1991م,ص.62** وما بعدها وقد عنون لها الباحث هنا بعنوان: اضطراب المادة

(358)قبيلة المهدي بن تومرت قبيلة مصمودية أسّسها البربري أرغن , مســاكنها جنــوبي وادي ســوس إلـــى الشـــرق مـــن مدينـــة رُودانة, **أبي بكر بن علي الصنهاجي (المكنــا بالبيــدق): أخبــار المهــدي بــن تــومرت و بدايــة دولــة الموحــدين,ص.33.** أنظر كذلك لنفس المؤلف : **المقتبس من كتــاب الأنســاب فــي معرفــة الأصــحاب, تحقيــق عبــد الوهــاب بــن منصــور, دار المنصور, الرباط 1390ه-1971م**حيث يذكر بطون القبيلة ثم القبائل والأشــخاص الــذين أضــيفوا إليهــا وآخــى بيــنهم وبينهــا المهدي ومن ذلك تآخي عبد المؤمن بن على الكومي مع قبيلة هرغة.**ص37-43**

(359)**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ج6,ص.359**

(360)**عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي, صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة الإسلامية بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية2007, سحب الطباعة الشعبية للجيش,الجزائر1428ه-2007م,ص.223**, ذُكر منها خمسة عشر فخذا عند صاحب كتاب الأنساب, دون المضافين لها لكنهم فنوا واندثروا مثلهم مثل تينملل,**بوزياندراجي:القبائل الأمازيغية,ص.22**

(361)**ابن القطان : نظم الجمان,ص.84**

(362)أصحاب العشرة هم الذين بايعوا المهدي بن تومرت تحت شجرة الخروب سنة 515ه, والعشرة هم:

عبد المؤمن بن علي, عمر بن علي أزناق(أو أزناج أو أصناك), إســماعيل بــن مخلــوف(أبــو الربيــع ســليمان بــن مخلــوف الهواري الحضرمي) , أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجــي (وهوإســماعيل بــن يســلالي الهزرجــي),إســماعيل بــن موســى(أبــو عمران موسى بن تامرا أو أبو موسى الصودي) , أبو يحيى أبو بكــر بــن تنجيــت(أو بــن بيجيــت أو يجيــت), أبــو عبــد الله محمد بن سليمان(أو عبد الله الشرقي الذي سماه المهدي عبد الواحد), عبــد الله بــن ملويــات,(هــو عبــد الله بــن يعلــى). أبــو حفص عمر الهنتاتي(وهو فصكة بن ومزال سماه المهدي عمر وشــهرته عمــر إينتــي), أبــو محمــد عبــد الله البشــير(وهــو عبــد الله بــن المحســن الونشريســي) , أنظــر فــي ذلــك.**إبــن القطّــان:نظــم الجمــان ص.125-128, البيــدق: أخبــار المهــدي,ص.34-35, لســـان الـــدين ابـــن الخطيـــب:الحلـــل الموشـــية,ص,78-79,عبـــد الواحـــد المراكشي:المعجب,ص.420,إبن أبي دينار:المؤنس, ص.108** نــرى أن المهــدي يحــاول أن يتمثــل ســنة الرســول صــلى الله عليه وسلم ويقتفي خطواته.

(363)من أكبر قبائل مصمودة في العصر الوسيط,**البيدق:المصدر السابق,ص.37** , تأتي في المرتبة الثالثة بعد هرغة وتينملل ,ذكر منها تسعة أفخاذ في كتاب الأنساب, ومواطنهم في جبل درن المتاخم لمراكش وكان منها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي هو من أهم شيوخ الموحدين والداعي للدولة في عهد المهدي وحتى عبد المؤمن, وجد ملوك الدولة الحفصية,كذلك أبو محمد بن يونس وهو من وزراء الدولة الموحدية وأسرته هم الذين دخلوا في خدمة المرينيين بعد الجفاء الذي حصل بين سلاطين الدولة الموحدية وبين

الزمن[364],دخلوا في دعوة المهدي بعدما تمت المشورة على ذلك بين زعمائها, وكان دخولهم محبة في الدعوة حيث قال لهم مبعوثهم أبا يعقوب إسحاق بن عمر الذي بعثوه ليتطلع لهم عن هذا الداعية وأحواله(النور النور في بلاد هرغة وأنتم في الظلمة يا هنتة[365]), وبعد أنانضموا إلى دعوة المهدي عظمت قبيلتهم وصار لها مكانة مرموقة وأصبح زعيمها أبو حفص عمر بن يحيى من العشرة وأقرب القادة إلى المهدي وخليفته عبد المؤمنبن علي[366].

3- تـــــينملل[367]: هي مجموعة من القبائل يجمعها اسم موضعها[368], وهي ذات أهمية من حيث الموقع, تحيز إليهم المهدي وبنى داره ومسجده بينهم[369], اتخذها المهدي مدينة له وذلك لموضعها ووعورة الوصول إليها, حيث أن الطريق الذي يأتيها من مراكش(عاصمة المرابطين) طريق ضيق حيث تتسع لفارس ممتطيا[370] فرسه,فإذا نزل فلا تتسع له إلاّ بمشقة, وهي مدينة قسمها المهدي أي أرضها[371] وديارها على أصحابه في خبر يطول شرحه كما عبـــــــر عن ذلك صـــــــاحب الحـــــلل[372].

الهنتاتيين في آخر عمر الدولة ,**بوزيان دراجي:القبائل الامازيغية,ص.213** ,**البيدق.كتاب المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب,ص.44**.

[364]**عبد الواحد المراكشي: المعجب ,ص.423**.

[365]**حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس" عصر المرابطين والموحدين", ص.303**

[366] ساند عبد المؤمن لتولي خلافة المهدي, **انظر عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.306,حسن علي حسن: المرجع السابق, ص.303, علي عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي,ص.224, البيدق:المصدر السابق, ص.37**

[367]تينملل أو تينمل أو تانمللت, **ينظرعبد الملك ابن صاحب الصلاة(594ه-1198م): كتاب المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين, تحقيق عبد الهادي التازي, دار الغرب الإسلامي ,ط31407ه-1987م, ص.149, كذلك الشريف الإدريسي**:الذي يعدّد خيرات هذا الجبل وكثرتها حتى أن بعض فواكه لا تباع بين أهل هذا الجبل لكثرتها.**نزهة المشتاق في إختراق الآفاق, مكتبة الثقافة الدينية,مصر,ج1.ص.230, عدّد** أفخاذها **البيدق** في **كتاب المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب,ص.43-44**

[368]**عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص.423**

[369]**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.360**

[370]**إبن القطّان: نظم الجمان, ص.124**

[371]في هذا الجبل أنواع لا تحصى من الفواكه كما ذكر ذلك **الإدريسي: نزهة المشتاق:ج1,ص.230-231**

[372]**لسان الدين بن الخطيب:الحلل الموشية,ص.82-83, يقول ابن الأثيـــر** عـــن المهـــدي بـــن تـــومرت:(وأتـــاه رســـل أهـــل تينملل بطاعتهم وطلبوه إليهم فتوجه إلى جبل تينملل واستوطنه وألف لهم كتابـــا فـــي التوحيـــد و كتابـــا فـــي العقيـــدة,....., فلمـــا رأى كثرة أهل الجبل وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه, فأمرهم أن يحضـــروا بغيـــر ســـلاح ففعلـــوا ذلـــك عـــدّة أيّـــام, ثـــم إنه أمر أصحابه أن يقتلوهم فخرجوا عليهم وهم غازون فقتلوهم في ذلك المسجد , ثم دخـــل المدينـــة فقتـــل فيهـــا وأكثـــر وســـبي الحريم و نهب الأموال فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفا وقسّم المساكن و الأرض بـــين أصـــحابه..) **الكامـــل فـــي التـــاريخ مـــن سنة 489 لغاية سنة 561 للهجرية, راجعه وصـــححه محمـــد يوســـف الـــدقاق,دار الكتـــب العلميـــة, بيـــروت لبنـــان,الطبعـــة الرابعة1424ه- 2003م,ج9,ص.197, محمد بن تومرت: أعز ما يطلـــب. تحقيـــق جولـــد تســـيهر, المطبعـــة الشـــرقية بييـــر فونتانـــا , الجزائـــر1320ه- 1903م, ص122-123, أنظـــر كـــذلك نظـــم الجمـــان,ص.139-140** ,وعـــن حـــوادث التمييـــز كذلك أنظر: **رشيد بوروبة,ابن تومرت ترجمة عبد الحميد حاجيـــات,ص.79-81** , كما تحـــدث عـــن التمييـــز غيـــر واحـــد مـــن

انظم بعض أهلها إلى مجلس الخمسين وعددهم أربعة عشـــــــــر[373].

4-جنفيــــــسة[374]: هي قبيلة عزيزة منيعة[375], وكان بعض أهلها في مجلس الخمسين[376], وهم في الصنف العاشر من طبقات المهدي[377].

5-كـــدميوة[378]: أو جدميوه حسب المراكشي[379], كانوا تبعا لهنتاتة وتينملل في الأمر[380], وهي قبيلة كبيرة تسكن في جنوب الغربي لمراكش وهي من المصامدة[381], كان لها ممثلون في مجلس الخمسين[382].

6-وريكة : هم مجاورون لهنتاتة كانت بينهم حروب حتى انتصرت عليهم هنتاتة بعد دخولها في دعوة المهدي[383].

كذلك كان من القبائل الغير مصمودية من اتبعت دعوة المهدي.كبعض صنهاجة و هسكورة مثلا[384].

7-كومية[385]: كان انضمام هذه القبيلة متأخرا أي بعد موت المهدي بكثير, وكان للحالة السياسية المتشنّجة التي عانت منها الدولة الموحدية في عنفوانها دور كبير في انتقال هذه القبائل الزناتية من مواطنها في المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى على عهد عبد المؤمن بن علي,وهم قبائل بترية

المؤرخين **فأنظر: الأنيس المطرب**:حيث قال(لما رجع إلى تينملل- أي المهدي- فأقـام بهـا مـرة حتـى إسـتراح النـاس فميّـز الموحدين وأمرهم بالخروج),**ص.179 وص.195, إبن الأثيـر:الكامـل فـي التـاريخ, ص.198-199** ,**أمـا البيـدق** فيـرى أن التمييز حق يبين فيه الخبيث والطيّب كأن البشير يطّلع علـى قلـوب النـاس ,**أخبارالمهـدي ,ص.39, حسـين مـؤنس: معـالم تاريخ المغرب والأندلس, ص.208, وغيرهم.**

([373])**إبن القطان المراكشي: نظم الجمان,ص.84**

([374])جاءت عند البيدق باسم كنفيسة وعدد أفخاذها اثني وعشرين فخذا, **البيدق :كتاب المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب,ص.47-49**

([375])**عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.423**

([376])**إبن القطان المراكشي المصدر السابق,ص.85**

([377])**ابن الخطيب:الحلل الموشية,ص.79,كذلك إبن القطان المراكشي: المصدر السابق, ص.82**

([378]).لهم ستة وأربعون فخذا, **البيدق:المصدر السابق,ص.44-47**

([379])**عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص.424** لم تكن كل بطونها تابعة للموحدين لكن بعضها فقط.

([380])**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.364**

([381])**البيدق:أخبار المهدي, ص.36**

([382])**إبن القطان المراكشي: المصدر السابق, ص.85**

([383])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ج:6,ص.365**

([384])**عبـد الواحـد المراكشـي:المصـدر السـابق,ص.424 ,حسـن علـي حسـن: الحضـارة الإسـلامية فـي المغـرب والأندلس,ص.304**.ذكرها بأكثر تفصيل البيدق في كتاب:**المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب,ص.52-56**

([385])**البيدق:المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب,ص.50-51**

ويعرفون قبل ذلك بصطفورة, بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر, وهم أبناء عم زناتة[386], كانوا أصحاب فلاحة ورعي وأصحاب أسواق[387].

وسبب قدومهم على عبد المؤمن هو أن هذا الأخير أقدم على قتل أخوا المهدي , عبد العزيز وعيسى وصلبهما على أبواب مدينة مراكش لخروجهما عليه, عندما نقما عليه لقتله أحد أهم أصحاب المهدي ومن أصحاب داره, ومن زعماء قبيلة هرغة وهو يصليتن,وهناك سبب آخر هو طول مكوثه في الحروب بعيدا عن الديار مما ألّب عليه الجيش خاصة القادة منهم.

ولمّا تحقق لدى عبد المؤمن الخطر المحدق به من قبل المصامدة وخاصة قبيلة المهدي هرغة, لاستفراده بالحكم بتعينه أبنائه أولياء له وقتله لأهل المهدي وخاصته, عمد إلى استدعاء قبيلته خُفيةً لتدعمه **كونه غريبا بين قبائلهم**, ورتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية وقربهم إليه وجعلهم بطانته [388].

بعد هذا التحليل لأهم قبائل المصامدة والتي كان لها الدور في قيام دولة المهدي بن تومرت, يتبين لنا دور النسب القريب المتمثل في القبائل المصمودية السبعة التي كان لها دور رئيسي في قيام الدولة, والتي ميّزها المهدي لماّ قام بتقسيم الموحدين إلى طبقات حيث كان لها المكانة الرفيعة.

أما النسب البعيد فقد تمثل في تحالف الموحدين مع قبائل غير مصمودية ,كبعض من القبائل الصنهاجية التي كانت في الغالب ضد الدولة المرابطية, كذلك الغرباء الذين ذكرهم صاحب نظم الجمان دون أن يحدّدهم إلاّ أنهم استتبعوا بعد التمييز, بالإضافة إلى قبائل أخرى[389], وسرّ هذا التحالف خاصة في بداية تأسيس الدولة الموحدية حسب رأينا راجع إلى أن المهدي كان صاحب دعوة إلى دولة على أساس ديني فحريٌّ به أن يُشرك في أمره من غير المصامدة تأسِّيًا بدعوة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم.

أمّا فعل عبد المؤمن بن علي حين أتى بقبيلته كومية الزناتية بدون استشارة للموحدين,فهولا يعتبر من قبيل تحقيق **المصلحة المشتركة للجماعة** بل هو تحقيق **لمصلحته الشخصية على حساب العصبية الغالبة** ألا وهي عصبية مصمودة, وهذا يدخل فيما سمّاه عبد الرحمن بن خلدون﴿ بطور الاستبداد على القوم والإنفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة﴾[390], الذي سوف نشرحه في حينه.

---

(386)حسن علي حسن:الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس,ص.305.

(387)عبد الواحد المراكشي: المعجب, ص. 423

(388)إبن أبي زرع الفاسي:الأنيس المطرب,ص. 194-199,195-202

(389)إبن القطان المراكشي:نظم الجمان,ص.85.

(390)عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.184.

يستوقفنا هنا أمر ذكره ابن خلدون حول الحاكم حيث يتوجب أن يكون من العصبية الغالبة لكل العصبيات حيث قال:﴿ وذلك أن الريّاسة لا تكون إلاّ بالغَلَب, والغَلَبُ إنّما يكون بالعصبية ....., والريّاسة لا بدّ وأن تكون موروثة عن مستحقّيها لما قلناه من التغلّب بالعصبية..﴾[391],كما أن﴿ الريّاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم﴾[392].

هذان أمران لا يتحققان مع دولة المهدي ودولة عبد المؤمن بن علي,فالمهدي لم يكن من العصبية الغالبة كما أن عبد المؤمن لم يكن حتى من نسبهم, إلاّ أننا وتفسيرا لذلك نرى أن دولة المهدي قامت على أساس غير أساس العصبية الغالبة وهو أساس الدعوة الدينية, فنجد أنه رغم كونه من عصبية متوسطة كما عبّر عليها ابن خلدون, قد تمكّن من جمع المصامدة من حوله واتبعه أصحابه إتّباعا أعمى[393], أمّا عبد المؤمن فكان ظهور شأنه بنفس السبب أي الدعوة الدينية, وبتزكية المهدي نفسه له, ومن ذلك تزكيته يوم البحيرة[394] حين سأل عنه فلما علم بنجاته قالليفقد اليوم أحد[395], وهذا تزكية له و تصريح ضمنيّ بترشيحه لخلافته.

3-دوافع الصراع العصبي عند المصامدة:

القوة المحرّكة للعصبية:

قد وضحنا في بداية الفصل أن الوازع هو الذي يحمي البشر من العدوان بعضهم على بعض,وأن أبحاث ابن خلدون كانت حول العصبية القبلية التي يقوم عليها وازع البادية لحماية القبيلة أو الحلف من الخطر الخارجي.

ثم نلاحظ أن عبد الرحمن يجعل حركة التاريخ حركة دورية والمحفّز الرئيسي له هو **الصراع على المعاش**,الذي هو مستمر ودائم, بحيث تقوم دول على أنقاض أخرى ويرجع ذلك أساسا إلى العدوان الموقظ للعصبية الذي يستهدف في الدرجة الأولى شؤون المعاش[396],كل هذا

([391])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.141.**

([392])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.141.**

([393])**يقول المراكشي:**(ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتدُّ وتعظيمهم له يتأكّد, إلى أن بلغوا في ذلك إلى حدٍّ لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء),**المعجب ,ص.259.**

([394]) تعرف أيضا ببحيرة الرقائق وهي أرض منبسطة كانت امام باب الدباغين وباب ايلان,على مشرفة من مراكش, وقعت فيها معركة البحيرة بين الموحدين بقيادة البشير الونشريسي والجيش المرابطي سنة 524ه-1130م, أنظر **البيدق : أخبار المهدي,ص.40** , كانت هزيمة نكراء على الموحدين, **لسان الدين بن الخطيب:الحلل الموشية,ص.85-86** , وهذه المعركة هي أعنف المعارك التي وقعت بين المرابطين والموحدين في حياة المهدي, **صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب, الموسوعة التاريخية للشباب(أعلام السياسة والحرب),المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الرغاية1405ه-1985م, ص.28.**

([395]) **عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.260.**

([396]) **محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.174.**

مستقى من قول ابن خلدون ﴿اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش,فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله..﴾ (397).

ثم إن من طبيعة بشر العدوان والظلم,فتجد بعضهم يتطلع إلى متاع غيره لو يجد الفرصة لانتزاعه إن استطاع إلاّ أن يكون هناك وازع يصدّه, وهذا ما أراده ابن خلدون حين قال: ﴿اعلم أنّ الله سبحانه ركّب في طبائع البشر الخير والشرّ, كما قال تعالى:﴿ وهَدَيْناه النَّجْدَين﴾(398).

وقال تعالى:﴿فألهمها فُجُورَها وتقواها﴾(399),والشرّ أقرب الخلال إليه إذا أُهمل في مَرْعى عَوَائِدِه ولم يهذبه الإقتداء بالدّين, وعلى ذلك الجمّ الغفير ,إلاّ من وفَّقَه الله , ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض, فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلاّ أن يَصُدَّه وازع﴾ (400).

نتيجة لما سبق تظهر جماعات تربطها رابطة النسب حقيقيا أو وهميا,تتكاثف وتشترك فيما بينها لمواجهة الأخطار المحيطة بها وهدفها الأول هو ضمان مصدر الرزق,وبالتالي يظهر ما يعرف بصراع العصبيات(401) الذي يكون شبه دائم على مواطن الرزق(402), **وكلما كانت الأمة وحشية كلما أمكن لها التغلّب على من سواها** ,يقول ابن خلدون موضحا ذلك﴿اعلم أنه لماّ كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة, لا جرم كان هذا الجيل الوحشيّ أشد شجاعة من الجيل الأخر, فهم أقدر على التغلّب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم,...., فمن كان من هذه الأجيال أعرق فيالبداوة أكثر توحّشا كان اقرب إلى التغلّب على سواه إذا تقارب في العدد وتكافآ في القوة العصبية﴾(403).

يجب أن لا ننسى أسباب وعوامل تدفع البدوي دفعا إلى الصراع, وهي في جلها تصب في السبب الأول الذي ذكرناه ألا وهو الصراع على المعاش(404),منها ما هو طبيعي (كالجراد

---

(397)**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.129**

(398)**سورة: البلد,الآية. 10**

(399)**سورة: الشمس,الآية. 8**

(400)**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.136**

(401)**لا** توجد حالة سلام دائمة بين القبائل البدوية إلاّ بصورة مؤقتة , ولكل قبيلة جهازها في الذود عن حلها, وكل قبيلة تطمع في التوسع على حساب جيرانها, ومن هنا تنشأ المصادمات و النزاعات المتواصلة بين القبائل,**نصيف ناصف: الفكر الواقعي عند ابن خلدون,ص.250**

(402)والإنسان البدوي لا يخرج من القفار والتلول بعد اتخاذ قرار مبيّت بترك نمط معيشته, لكن وحسب ابن خلدون يخرج وفق وبدافع نمط معيشته, فعندما يزداد الجفاف يندفع البدوي نحو الخارج اضطرار .**نصيف ناصف:نفسه,ص.251**

(403)**عبد الرحمن بن خلدون:مصدر سابق:ص.147**

(404)يقولErnest Mercier أن العرب لا يعيشون إلاّ للحرب, وبدونها يُعْدمون الغنيمة, والغنيمة هي التي تضمن لهم البقاء. Histoire de L'afrique Septentrionale ;P190

والفيضانات والأمراض والأوبئة..),ومنها ما هو جغرافي, فهي تدافع عنها بكل قواها, ومنها ما هو اجتماعي كعادة الثأر مثلا, فعامل التضامن بين أفراد القبيلة (الذي هو أحد ركائز العصبية بالإضافة إلى النسب والمصلحة) يحتّم عليها نصرة الفرد منها.

كل هذا يفسّر الصراع العصبي الدائم بين مختلف العصبيات والذي قلنا أن العامل الاقتصادي(المعاشي) [405]هو المحرّك الرئيسي فيه, حتى وإن لميظهر لأول وهلة.

يستنتج الجابري أن هذا الصراع هو صراع اقتصادي من أجل البقاء وتحصيل لقمة العيش, ولا دخل **للدماء أو النسب** فيه,لكن العصبية تلعب فيه دورا أساسيا, ومن ثم النسب يكون محرّك هذه العصبية لتحقيق المصلحة المشتركة التي هي الصراع من أجل البقاء, وبالتالي ضمان شؤون المعاش[406].

خلاصة لذلك نقول أنه مادامت القوّة المحركة للعصبية هي المصلحة المشتركة, كانت هذه العصبية متماسكة ومتضامنة وقوية وصامدة, أماّ إذا تحوّلت المصلحة المشتركة للعصبية إلى مصالح شخصية أو ظهرت المصلحة الفردية على حساب الجماعة, فإنّ التضامن الذي أسّسته العصبية بالأمس يتفكّك وتذهب أواصره[407].

الصراع على المعاش هو المحرّك الأساسي لقبيلة مصمودة:

قبائل مصمودة تنقسم إلى ثلاث فئات, برغواطة وغمارة وأهل جبل درن,يقول ابن خلدون: ﴿وكان المتقدّم فيهم قبيل الإسلام وصدرهبرغواطة, ثم صار التقدّم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد, وكان لبرغواطة في عصرهم دولة, ولأهل درن منهم دولة أخرى ودول...﴾[408].

لا شكّ أن الصراع الداخلي عُرِف عند المصامدة ودليل ذلك ما أوردناه في أول هذا المبحثحين تكلمنا عن الصراعات التي كانت تقوم بينهم " بحيث كانوا يغيرون على بعضهم, يغنمون ويقتلون ويسبون ولا يستقرون على طاعة أمير"[409], مع أنهم يطيعون الله ورسوله لكنهم

([405])الحاجات الإنسانية تلعب دورا بارزا في نشأة العمران وتطوره وبالتالي بقاء الإنسان, وكل هذا مرهون بأمرين هما: القوت(الغذاء أو المعاش)والصراع من أجل تحصيله (والعصبية عامل هام لتحقيق كل ذلك), **إسماعيل سراج الدين:ابن خلدون إنجاز فكري متجدد,ص.74.**

لا تبرز العصبية إلاّ عندما يكون هناك خطر يهدّد مصالحها المشتركة والمرتبطة دائما بأمور المعيشة, فالبدوي يعجز عن الحياة منفردا فيحتمي بالجماعة ويتقوى بها دفاعا بها عن نفسه ومكتسباته, وبالتالي تنشأ العصبية القبلية وتصبح أداة لحماية القبيلة وتوفير القوت لها.**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي,ص.225.**

([406])**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.174-176.**

([407])**محمد عابد الجابري: المرجع نفسه, ص.178.**

([408])**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6, ص.275.**

([409])**ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب,ص.10.**

لا يرضون حاكما من غير قبيلهم, وهذا كان في عصبيتهم القريبة فكيف من البعيد خاصة أن برغواطة خالفوهم في ديانتهم بحيث ادعوا النبوّة ورجعوا كفّارا بعد إسلامهم[410].

أمّا فيما يخص صراع المصامدة مع غيرهم خارجيا يتمثّل أساسا في صراعهم مع زناتة, لأن المصامدة ضلّوا في مواقعهم حتى القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي, حين أغارت عليها زناتة ونازعتهم الأرض بعد أن نزحت من المغرب الأوسط إلى الأقصى, وظلّ المصامدة وزناتة في صراعهم حتى أغارت عليهم صنهاجة اللّثام وأخضعتهم جميعهم[411].

دام هذا الصراع مع زناتة حتى بعد ظهور المرابطين بحيث أن المصامدة دخلوا تحت الحكم المرابطي وتحالفوا معهم ضد زناتة عدوهم المشترك[412].

كان المحرّك الرئيسي لهذا الصراع المعاش, فزناتة أغارت على أراضي المصامدة بعد أن أغير عليها هي أيضا في أراضيها من قبل صنهاجة الشمال الذين كانوا تحت تبعية العبيديين[413].

أقرّ المرابطون مصامدة جبل درن على أراضيهم مكافأة لهم على تعاونهم,وهذا من أهم الأسباب التي تحفظ سبل العيش[414], ثم إنهم اشتروا عليهم أرض مراكش وأقاموا عليها عاصمتهم[415].

إلاّ أن هذا لم يكن ليدوم وذلك لطبيعة القبائل المصمودية حيث أنهم لم يقبلوا التبعية والاضطهاد خاصة بعد أن بلغت الدولة المرابطية مرحلة متقدمة والتي تطلّبت الكثير من الموارد المالية والذي انجر عنه استغلال القبائل بفرض ضرائب زائدة عليهم[416].

([410])**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.299**

([411])**محمود السيّد:تاريخ دولتي المرابطين والموحدين,مؤسسة شباب الجامعة,مصر1425ه-2004م, ص.12** , كذلك أوكل المعز لدين الله الفاطمي أمر المغرب إلى بلكين بن زيري الصنهاجي وجعله في وجه الثورات,خاصة من الزناتيين الذين كانوا يوالون الحاجب المنصور بن أبي عامر المستبدّ بحكم الأمويين بقرطبة,**عصام الدين عبد الرؤوف الفقّي: تاريخ المغرب والأندلس, مكتبة نهضة الشرق, القاهرة مصر, ص.184**

([412])**عصمت عبد اللّطيف دندش:الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني510ه-546ه/1116م-1151م تاريخ سياسي وحضاري, دار الغرب الإسلامي,بيروت لبنان,ط1 1408ه- 1988م,ص.36**, ومعلوم لدينا أن صنهاجة ومصمودة من القبائل البرنسية, أماّ زناتة فهم من البتر يضيف **حسن علي حسن** أن السياسة التي اتبعها عبد الله بن ياسين مع المصامدة أثمرت نتيجة تردّدهم من جهة وكرههم للزناتيين, فجعلت المصامدة لا يقاومون جيوش المرابطين بل حتى أنهم أيّدوهم وحالفوهم ضد حكام المنطقة من الزناتيين,**الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس,ص.300**

([413]) تحتل زناتة الهضاب العليا, أما مصمودة فتمتد مواطنها على كل السفح الغربي للأطلس من زاد سبو إلى واد سوس, أما صنهاجة فتمتد حتى شلف فهي تتربع على الساحل وجزءا من الوسط Ernest Mercier : Histoire de L'Afrique Septentrionale,p.188

([414])أي قطعوا عليهم حجّة المقاومة,لأنه كما قلنا أن الصراع دَافِعُه الأول هو لقمة العيش,بالإضافة إلى عامل مهم وهو الذي أتى به عبد الله بن ياسين بدعوتهم إلى الاجتماع على الدّين وكان هذا هو محفّز رئيسي لإخضاعهم.

([415])**عصمت عبد اللّطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين,ص.36,علي بن أبي زرع الفاسي:الأنيس المطرب,ص.138**

وبالتالي تمثّل الأرض عاملا حاسما في بقاء القبيلة واستمرارها, لذلك هي ترتبط بها ارتباطا وثيقا, تحميها بكل ما أوتيت من قوّة وهذا هو العامل الرئيسي لنشوب النزاعات بين القبائل, فكل قبيلة تريد أن تتوسّع على حساب جارتها من أجل حماية مصدر رزقها[417], فالصراع العصبي ينشأ نتيجة حماية كل قبيلة لمصادر رزقها,من الخطر الداخلي والخارجي[418].

4- الملك غاية تسعى إليها العصبية المصمودية:

الصراع العصبي مطية لتحقيق الملك:

كناّ في المبحث السابق بيّنا أن الصراع الذي ينشأ بين المجموعات أو ما يعرف بالقبائل وأوسع من ذلك العصبيات,أساسه اقتصادي من أجل البقاء وتحصيل لقمة العيش, ولا دخل للنسب فيه وهذا ما يولد تنافس قبلي ينتهي حسب أومليل[419] إلى ثلاثة توازنات مستوحاة من مبحث ابن خلدون ﴿أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك﴾[420]وهي:

أ- توازن قائم على تكافؤ عصبيتين قويتين حيث يقول عبد الرحمن: ﴿ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرّقة وعصبيّات متعدّدة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها,تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها, وتصير وكأنها عصبية واحدة كبرى,....,ثم إذا حصل التغلّب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبيعتها التغلّب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها, فإن كافاتها أو مانعتها,كانوا أقتالا وأنظارا ولكل واحدة منهما التغلّب على حوزتها وقومها شأن القبـــــائل والأمم المتفرقة في العالم﴾[421]، هنا لا يفضي هذا التنازع إلى الملك فلا يزيد على أن يكون نزاع مستمر.

ب-توازن تضمنه هيمنة عصبية على العصبيات الأخرى, وتنجح بعد ذلك في انتزاع الأمر من دولة بلغت مرحلة الهرم, في هذه الحالة يتحقّق الملك للعصبية الغالبة بموجب **الضرورة الوجودية**, حيث قال عبد الرحمن: ﴿الملك غاية طبيعية للعصبية, ليس وقوعهنها باختيار إنما هو بضرورة

---

(416)نجد أن المهدي استغل عصبية قبائل مصمودة ضد قبائل صنهاجة المرابطية وخاصة أن من أهم عوامل النّزاع بين هذه القبائل هو نحل المعاش, حيث عرفت قبائل مصمودة نمط مستقرا في العيش يعتمد على الزراعة , فاستماتت في محاولة الدفاع عن أحوازها من تسرّب قبائل الصحراء, أما قبائل صنهاجة اللّثام أو الرمال كانت تعيش نمطا مختلفا حيث اعتمدت على الرعي وتربية المواشي والإبل,كما أنها سيطرت على الطرق التجارية التي تربط شمال المغرب بمسالك السودان جنوبي الصحراء, وفرضت المكوس على القوافل التجارية,أو قامت بدور الوسيط. **عصمت عبد اللّطيف دندش: المرجع السابق,ص.36**

(417)**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس,ص.222**

(418)ومن الخطر الخارجي كذلك الجانب الطبيعي وقسوته.

(419)**علي أومليل: الخطاب التاريخي,ص.195**

(420)**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.148**

(421)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.148**

الوجود وترتيبه ﴾, يشرح الجابري ذلك بأن الله أجرى العادة على ذلك ,بحيث استقرت عند البشر وأصبحت"**طبعا**" ملازما للعمران لا يفارقه البتّة,فمتى تغلّبت عصبية فإنها تصبوإلى الملك[422].﴿وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها,فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع, ووجد السَّبيل إلى التغلّب والقهر لا يتركه,لأنّه مطلوب للنّفس﴾[423].

ج- توازن بين العصبية المتغلّبة ودولة قائمة لا تزال قويّة, وهنا تتكوّن شراكة على أساس المنفعة, فالأولى تحصل على قسط من الثروة والسلطة, والثانية تضمن

بتنازلها عن بعض من الثروة والسلطة لهذه العصبية استتباعها وهذا ما يعرف بالحكم الناقص.

إلاّ أن التوازن الثاني هو الذي يهمّنا, وهوحصول الملك للعصبية الجديدة, ثم عبد الرحمن يكاد يجزم أن الملك والدولة لا يحصلان إلاّ بالعصبية, حيث يوضح ذلك ﴿في أن الملك والدولة العامة إنّما يحصلان بالقبيل والعصبية﴾[424].

فهو في هذا المبحث بعد أن يذكّرنا بأن الممانعة والمغالبة لا تكون إلاّ من قوم لهم عصبيّات يحتمون تحتها, حتى يؤكّد أن الملك أمر مرغوب فيه لما يشتمل على﴿الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا﴾[425], وهذا التنافس يكون قبل وبعد الحصول عليه ومن قبل من له عصبية,ثم يبين ابن خلدون **الاستثناءات عن القاعدة**[426].

ومن ذلك (أي في أنّ الملك غاية للعصبية) هو ما يكون من رجوع الملك من قوم إلى آخرين ينتمون لعصبيّتهم(أي من عصبية خاصة إلى أخرى خاصة من نفس القبيل) إذا ما ضعف القائمون بالدولة بانغماسهم في ملذّات الملك ونعيمه,يأتي دور إخوانهم الذين استعبدوهم و﴿ أنفقوها في وجوه الدّولة ومذاهبها﴾[427], ذلك لأن المباشرين للملك بعد الممانعة والغلب لا يمكنهم أن يحكموا كلهم في نفس الوقــــت ﴿ولا يكون ذلك لجميعهم لِما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق

---

(422)**الجابري محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.179**

(423)**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.148**

(424)**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه, ص163**

(425)**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه, ص163**

(426)والاستثناء هنا أتى به ابن خلدون في الباب الثالث : الفصل الثالث: قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية,الفصل التاسع: في أن الأوطان الكثيرة القبائل و العصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة.لكن في كل هذه الفصول يذكر ابن خلدون الدول في حالاتها المتقدّمة وان الملك يكون قد استقر في أسرة معيّنة,حتى ولو ضعفت الدولة مع استمرارها, كذلك يذكر الأمم التي تعجّ بالعصبيات المتكافئة نسبيا أو القليلة العصائب, ولكن يذكرنا دائما بالرجوع إلى أصل تأسيس تلك الدول, فتجده ينطلق من عصبية غالبة لغيرها من العصبيات ولكن تناسى ذلك لدى الناس مع طول حكم الأسرة الممثلة لتلك العصبية.

(427)**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.154**

المزاحمة﴾[428],وعبد الرحمن يوضّح لنا أنّ الغلب الذي ذكرناه للعصبية هو نسبي وليس مطلق في بعض الحالات,فيمكن أن توجد عصبية أخرى تعادلها في القوّة وفي الغالب تكون من النسب القريب للعصبية الحاكمة, لكنها تتنازل على حقّها في المطالبة إلى حين انغماس العصبية الحاكمة في الملذّات(الذي هو أمر حتمي داخل في طبع العمران البشري) فتطلب حقّها في الملك,وهذا في حدّ ذاته ما يمكن من استمرار الحكم في نفس النّسب[429] ويحفظ استمرارية الدولة القائمة وطول عمرها.

فيقول عبد الرحمن: ﴿ فإذا استولت على الأوّلين الأيام, وأباد خضراءهم الهرم فطبختهم الدولة ,...., كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة,وسَوْرَةُ غَلَبهم من الكاسر محفوظة,وشارتهم في الغلب معلومة, فتسموا آمالهم إلى الملكة الذي كانوا ممنوعين منه بالقوّة الغالبة من **<u>جنس عصبيّتهم</u>**, وترتفع المنازعة لما عُرِفَ من غَلَبهم , فيستولون على الأمر ويصير إليهم ﴾[430].

التصادم العصبي وتأسيس الملك عند المصامدة:

يقول ابن خلدون عن المصامدة أنهم ﴿لم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة﴾[431], تدل هذه الجملة عدّة مدلولات حسب رأينا أهمها, أن العصبية المصمودية على العموم كانت قوية وهذا تقدّم توضيحه,كذلك ساعدهم في ثباتهم على مواطنهم نحلة عيشهم(الاستقرار,الزراعة),كذلك الحصانة الطبيعية لمواطنهم , لهذا كوّنوا دولا قبل وبعد الإسلام حيث يقول عبد الرحمن: ﴿وكان المتقدّم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة, ثم صار التقدّم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد,وكان لبرغواطة في عصرهم دولة ولأهل درن منهم دولة ودول﴾[432].

أمّا برغواطة فكان زعيمهم في بداية المائة الثانية للهجرة هو "طريف أبو صبيح", كان تابعا للدعوة الصفرية **<u>فلما انقرضت بقي طريف قائما بأمر قومه بتامسنا</u>**, يقال أنّه تنبأ وشرع لهم دينا جديدا, ثم جاء بعده ابنه " صالح" وعرف بصالح المؤمنين تنبأ هو الآخر, كان ظهور صالح على عهد هشام بن عبد الملك سنة127ه–745م, وعهد لابنه إلياس وأوصاه بموالاة صاحب الأندلس من

---

(428)**عبد الرحمن:المصدر المقدمة, ص.154**

(429)النسب أوفي معناه

(430)**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.155,**

هذا التعاقب على الملك يمكن أن نطلق عليه اسم تَوَلُّد (Régénération) للعصبية الواحدة ودليلنا في ذلك قول ابن خلدون: (فلا يزال الملك مَلْجَأً في الأمة إلاّ أن تنكسر سورة العصبية منها, أو يفنى سائر عشائرها) ,**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه, ص.155**

(431)**ابن خلدون:العبر,ج6, ص.275**

(432)**ابن خلدون:نفسه,ج6,ص.275**

بني أمية, وتتابع الملوك على كفرهم وزندقتهم, ومرّت عليهم أيام برزوا فيها خاصة على عهد يونس بن إلياس بن صالح بن طريف, الذي حرق مدائن تامسنا وفرض دينهم الجديد على العباد, كذلك أبو منصور عيسى الذي سار سيرة آبائه وادّعى النبوّة وزاول الكهانة, واستتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب.

كان لهذه الدولة البرغواطية قتال شديد مع الأدارسة والأمويين في الأندلس والشيعة, ثم إن بلكين بن زيري الصنهاجي تمكن أن يُثْخِن فيهم, كذلك كان الشأن مع المنصور بن أبي عامر في الأندلس, كذلك كان مع بني يفرن لما استقل أبو يعلى بن محمد اليفرني بناحية سلا بالمغرب, فقاتلهم وغلبهم على تامسناسنة420ه-1029م, ثم تراجعوا من بعده عن قتالهم إلى أن جاء عهد المرابطين حيث تمكن أبو بكر اللمتوني من استئصال شأفتهم وقطع دابرهم[433],نلاحظ أن هذه المملكة البرغواطية عمّرت ما يزيد على ثلاثة قرون, وهذا دليل صارخ على قوّة عصبيتهم, التي بلغت غايتها من الملك.

أمّا غمارة فرجّح ابن خلدون كونهم من البربر المصامدة على خلاف من قال بأنهم من العرب غمُِرُوا في الجبال,كما بين أنهم بقوا في مواطنهم من الفتح الإسلامي إلى عهده وبيّن مواطنهم فارجع إليه[434].

موسى بن نصير هو الذي أخضعهم واسترهن أبناءهم وحملهم على مساعدة طارق بن زيّاد في فتوحاته, وكان أميرهم في تلك الفترة هو" يولين أو يليان أو جوليان" الذي ساعد المسلمين في العبور إلى الأندلس[435].

عرفت غمارة بعد الإسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متنبئون وكانت مواقعهم ملجأً للخوارج يقصدون جبالهم للمنعة فيها[436], فكان فيهم دول ذكر أهمها عبد الرحمن منها ما هي بربرية (مثل دولة ماجكسة وابنه عاصم أو عصام) ومنها ما هي عربية (مثل دولة بني صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن), وكان فيهم المتنبئون أمثال حاميم بن منّ الله من جبل حاميم وكان له أتباع مثل عصام بن جميل اليزدجومي[437].

([433])**ابن خلدون:العبر,ج6,ص.276-280**

([434])**ابن خلدون: نفسه,ج6,ص.281**

([435]) الرواية المشهورة عند المؤرخين العرب هي تلك التي ترجع سبب معاونة يوليان لموسى بن نصير قائد الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب, إلى إنتقامه لشرف ابنته التي تعدى على شرفها ملك القوط لذريق, لكن هناك رواية ثانية ترجع الأمر إلى السخط على الحكم القوطي الضعيف, ينظر**أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس, دار النهضة العربية, بيروت لبنان,ص.52-53**

([436])**إبن خلدون:العبر,ج6,ص.281**

([437])**مؤلف مجهول:مفاخر البربر, دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية, دار أبي رقراق,ط1 1426ه-2005م,ص.174**

كذلكمن الدول التي ترأسها العرب ما كان من بقايا الأدارسة الذين حكموا ببلادة غمارة وبني حمّود منهم.

وفيما يخص أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون المصامدة, هذه الجبال تبدأ من ساحل البحر المحيط[438] عند أسفي وما إليها, وتنتهي إلى المشرق وقيل أنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة بالمغرب الأدنى(جبال الأطلس

الكبير), يعمر هذه الجبال من قبائل المصامدة أمم كثيرة, وقد اتخذوا المعاقل والحصون وشيّدوا المباني والقصور,كان فيهم قبل الإسلام ملوكا وأمراء ,. وكانوا مخالفين لبرغواطة في كفرهم وزندقتهم,استقام لهم الأمر والملك مع ظهور دعوة المهدي بن تومرت الذي كان واحدا منهم[439].

الملاحظ في المصامدة أنهم ذو شوكة قوية وكانت عصبيتهم لا يستهان بها, حيث أنهم ملكوا وأثخنوا أعداءهم بالقتل, وكانت لهم دول وإمارات, وكانت دولهم لا تختلف عن ثلاث حالات: دول أسّسها دعاة منهم ادعوا النبوّة وامتهنوا الكهانة, دول أسّسها عرب تزعّموا هذه القبائل, وربّما مكّن المصامدة لهؤلاء العرب الذين هم من غير نسبهم الحكم,للاحتماء بهم من العصبية العربية في المشرق والأندلس,حيث أننا نجد أن الدولة الأموية في الأندلس الممثلة في الغالب بالزناتيين والعبيديين الشيعة ممثلين من قبل كتامة ثم بعد ذلك صنهاجة الشمال,كانوا في صراع دائم على من يبسط نفوذه على بلاد المغرب, وبالتالي أصبحت بلاد المصامدة مسرحا للحروب.

أخيرا دول أسست على مبدأ ديني سني خاصة في بلاد جبال درن ولعلّ أهم هذه الدول دولة الموحدين الكبرى, التي تمكّنت عصبيتها من الارتقاء إلى ملك عظيم انطوت تحت تاجه كل بلاد المغرب الإسلامي, وكانت أول دولة بربرية تحقّق ذلك[440].

([438]) ذكره **إبراهيم القادري بوتشيش** بالبحر الأعظم المسمى أقيانس, **مباحث في التاريخ الإجتماعي,ص.28**

([439])**إبن خلدون:العبر,ج6,ص.299**

([440])منع المهدي محمد بن تومرت المصامدة بطريقة قاطعة سفك الدماء بينهم ومتابعة خصوماتهم الداخلية وصراعهم العشائري الذي يضعف وحدتهم, **جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى, ترجمة محمود عبد الصمد هيكل, راجعه مصطفى أبو ضيف أحمد, مطبعة الانتصار, الإسكندرية,1411ه-1991م,ص.294** فالمهدي بهذا العمل أوقف الصراع العصبي الداخلي لينقل المصامدة إلى الصراع الخارجي المفضي إلى تأسيس الدولة.

إنّ منع المهدي للمصامدة من الاقتتال جاء حسب رأينا بعد حين من بداية التأسيس حيث انه هو نفسه سفك دماء المصامدة المستعصيين على دعوته لكي يمهّد لدولته.

وما يزكي طرحنا ما وقع لهسكورة ووزكيتة(آيت واوزكيت) المنسوبتان إلى قبائل تينملل وغيرها من القبائل التي كانت واقعة في مناطق حساسة خاصة من الجانب التجاري فتعرضت للإبادة من قبل المهدي, وبقية القبائل التي سارعت إلى قبول الدعوة التومرتية هي قبائل جبلية, وربما كان اندفاعهم وراء هذه الحركة هدفه هو التوسّع على حساب القبائل المستعصية لضمان الاستفادة من التكامل المعيشي بين الجبل والسهل ,**سلسلة نصوص ووثائق رقم2, رسائل موحدية, مجموعة جديدة, تحقيق ودراسة أحمد عزاوي, منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة, جامعة ابن طفيل,ط1 1422ه-2001م,ج2,ص.34**

ثانيا: مستويات نشوء الدولة وفق نظرية القوّة والغلبة

تطورها باعتبارها ملوكا متعاقبين (أي شخصا يملك – التطور في الحسب والخلال)	المستوى الأول {خمسة أطوار}
تطورها باعتبارها جماعة تحكم (حالة العصبية الحاكمة)	المستوى الثاني (ثلاثة أجيال)
تطور كلية الدولة باعتبارها (شخصا يملك, وعصبية تحكم, العلاقة بين العصبية الغالبة الحاكمة و العصبيات المغلوبة المحكومة	المستوى الثالث (ثلاثة أطوار)

شرحنا في الفصل الأول ما عُرِف عند محللي أفكار ابن خلدون بامتداد الدولة في المكان والزمان, وبيّنا أن الأول يعني اتساع رقعة الدولة من حيث المساحة, وأكدنا على أن هذا يتوقّف على مدى قوّة العصبية الناشئة وحالة العصبيات التابعة لها, أما امتدادها في الزمان فهو يعني تطور الدولة خلال الزمان,وهو حسب فهم بعضهم انتقال الرياسة والملك من فرع إلى آخر داخل العصبية الغالبة, وهذا التطور يعرف بالدورة العصبية.

نحاول البحث في الفرع الثاني أي تطور الدولة في الزمان, ذلك لأن تطورها في المكان معتمد بالأساس ومرتبط بتطورها في الزمان, فهي مرتبطة بحالة الأسرة الحاكمة وكذلك العصبية الحاكمة والعصبيات الأخرى.

إن تطور الدولة في الزمان هو تطور الأساس الذي قامت عليه الدولة أي العصبية والحسب(441).

الدولة عند ابن خلدون تتطور في الزمان إلى ثلاثة مستويات تسير في توازي:

1- المستوى الأول:تطورها باعتبارها ملوكا متعاقبين

يبحث حالة صاحب الدولة منذ تأسيسها إلى سقوطها, أو بالأحرى حالة الحسب من ملك لآخر, وابن خلدون يستخلص خمسة أطوار للدولة هي:

الطور الأول: ﴿طور الظفر بالبغية وغلَب المُدَافِع والمُمَانِع, والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها﴾(442).

هنا صاحب الدولة أسوة في قومه في اكتساب المجد, لكن دون أن ينفرد بشيء عنهم, لأن العصبية التي أوصلته إلى الحكم تكون قوية, كذلك لأنه﴿ يتم أمره بقومه فهم عصابته وظهراؤه

(441)محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.220.

(442)عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.184.

على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته, ومنهم من يقلّد أعمال ملكته ووزارة دولته, وجباية أمواله,لأنهم أّعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر, ومساهموه في سائر مهمّاته﴾[443].

في هذا الطور يكون لحسب الرئيس على العصبية دور كبير في زعامته عليهم, لما يحتويه من﴿ الخلال التي منها التواضع لهم – أي أهل عصبيته– والأخذ بمجامع قلوبهم﴾[444].

في هذه المرحلة تتجلى صفة المساهمة والمشاركة بين العصبية والحاكم, ويكون الحكم مشتركا نوعا ما بين الملك وبين قومه وعشيرته[445]

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه[446](أي صاحب الدولة) والإنفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة[447],﴿ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معتنياّ باصطناع الرجال واتخاد الموالي والصنائع, والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه, الضاربين في الملك بمثل سهمه﴾[448],حيث أنهم يصيرون﴿ في حقيقة الأمر من بعض أعدائه, واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدّهم عن المشاركة ,إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم, ويتولاهم دونهم, فيكونون أقرب إليه من سائرهم,....فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ,..., ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية﴾[449].

الطور الثالث: ﴿ طور الفراغ والدّعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر عليه, من تحصيل المال وتخليد الآثار وبُعد الصيت, فيستفرغ وسعه في الجباية– صاحب الدولة– وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقَصد فيها ,...,حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشِكَّتهم وشاراتهم يوم الزينة, فَيُبَاهي بهم الدول المسالمة, ويرهب الدول المحاربة, وهذا الطور آخر أطوار

([443])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة, ص.192**

([444])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.146**

([445])**ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.367**

([446])في الطور الأول كان أهل عصبية الحاكم بأجمعهم ظهراء له, لكن في هذا الطور يخالفوه و يعارضوا أعماله , ويستمر ذلك حتى يتفرّد عنهم الملك بآليات أخرى.**ساطع الحصري,دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.368** , إن هذا القائد القوي أخذ يعتبر نفسه صاحب الملك في هذه المرحلة, ولم يعد يحتمل المشاركة , **عبد الغني مغربي:الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون,ص.172**

([447])الإنفراد بالملك وكبح أهل العصبية عن المساهمة والمشاركة قد يكون في عهد أول ملوك الدولة, وقد لا يتم إلاّ للثاني و الثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوّتها, وهذا ما عرفه عبد الرحمن بالإنفراد بالمجد وجعله من طبيعة الملك,**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.175**

([448])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.184**

([449])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.192**

الاستبداد من أصحاب الدولة, لأنهم في هذه الأطوار كلّها مستقلّون بآرائهم بانون لعزّهم, موضّحون الطرق لمن بعدهم﴾[450].

هذا الطور يمكن أن نعتبره منتصف الدولة أو ذروة قوّتها ,لكن في نفس الوقت ضعف عصبيتها وتلاشي حسبها وضعف الخلال الحميدة فيه مع كثرة الترف والدّعة,ومن هنا تبدأ الدولة في النزول, يتوقّف توسّع الدولة من الأرجح في هذا الطور أو الذي قبله(الامتداد في المكان).

الطور الرابع: ﴿طور القنوع والمسالمة, ويكون صاحب الدولة فيه قانعا بما بني أوّلوه, سِلْمًا لأنظاره من الملوك وأقتاله, مقلّدا للماضين من سلفه ﴾[451].

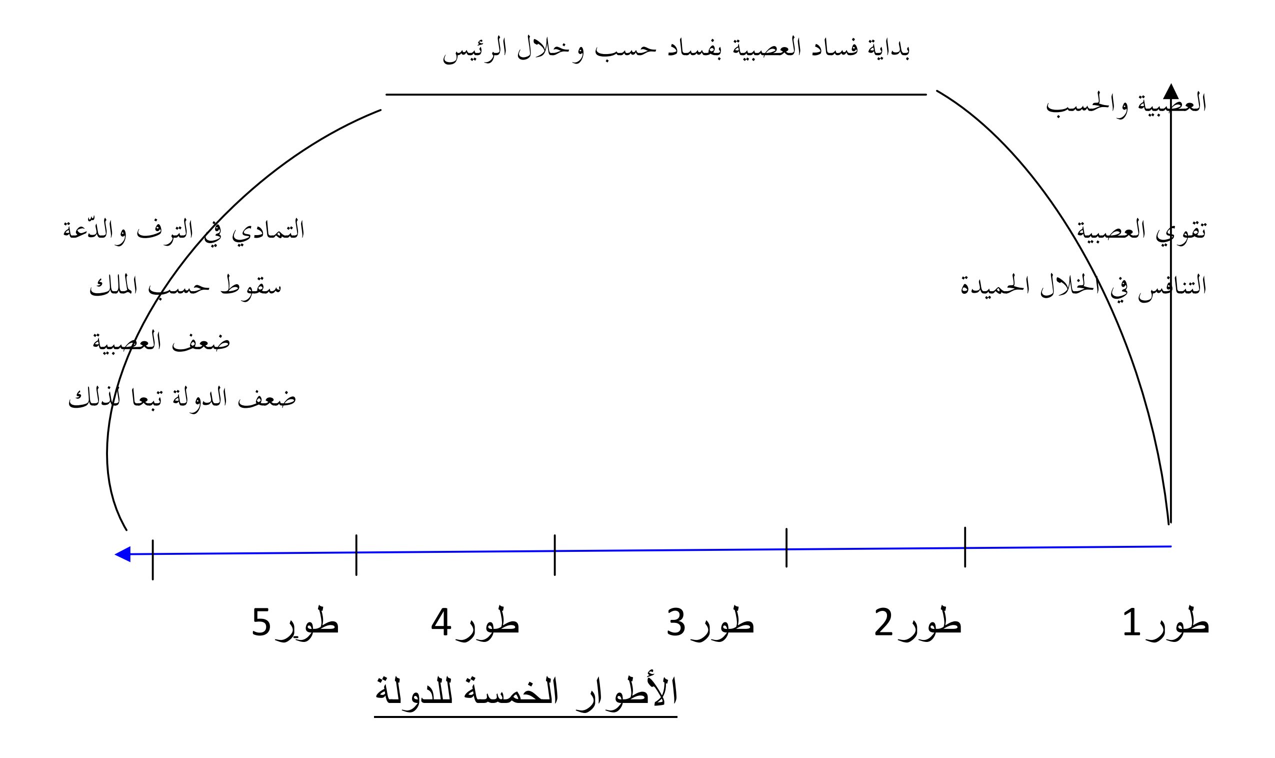
الطور الخامس: ﴿ طور الإسراف والتبذير, ويكون صاحب الدولة في هذا الطور مُتْلفا لما جمع أوّلوه في سبيل الشهوات والملاذ,....مستفسدا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه ,...., فكان مخرّبا لما كان سلفه يؤسّسون,وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم, ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه.. ﴾[452].

([450]) **عبدالرحمن بن خلدون: المقدمة,ص.184–185**

([451]) **عبدالرحمن بن خلدون:نفسه, ص.185**

([452]) **عبدالرحمن بن خلدون:نفسه, ص.185**,

يعتبر **ابن خلدون** أن عمر الدولة " بمثابة عمر الشخص من التزيّد إلى سن الوقوف , ثم إلى سن الرجوع" **نفسه:ص.180**, والتزيّد من الزيادة والنمو وبالتالي (فالتزيّد في الدولة ينحصر في الطورين الأولين وأما الطور الثالث فيوافق سن الوقوف والطورين الأخيرين يشبهان سن الرجوع), **ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون, ص.370**



الأطوار الخمسة للدولة

هذا التطور للدولة باعتبارها شخصا يملك له ارتباط وثيق مع أطوار الحسب خلال تعاقبه في الملوك واحدا تلوى الآخر, وكما تفسد العصبية يفسد الحسب المكمل لها, وفي هذا المستوى يركّز عبد الرحمن على تطور العلاقة بين الحاكم وأهل عصبيته, وهذا التطور ينتقل من المشاركة والمساهمة بينهما إلى الاستفراد بالملك واستظهر على أهل عصبيته بالمصطنعين, إلى أن يصل المطاف إلى فساد العصبية وفساد المَلِك والمُلْك نتيجة لذلك فزوال الدولة[453].

وفساد الحسب هو الفساد التدريجي في الخلال الحميدة من طور إلى آخر, يشرح ذلك ابن خلدون فيقول ﴿أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء﴾[454],﴿ذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه, **ومحافظ على الخلال** التي هي سبب كونه وبقائه, وابنه من بعده مباشر لأبيه, قد سمع منه ذلك وأخذ عنه , إلاّ أنّه مقصّر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له, ثم إذا جاء الثالث كان حظّه الاقتفاء والتقليد خاصة, فقصّر عن الثاني تقصير المقلّد عن المجتهد, ثم جاء الرابع فقصّر عن طريقتهم جملة وأضاع الخِلال المحافظة لبناء مجدهم واحتقرها... ﴾[455].

جمع كبير من الباحثين في مقدمة عبد الرحمن يرون أنه وفّق إلى حدّ كبير في تقسيمه هذا لتطور الدولة, لكن له بعض المؤاخذات, مثّل جعله للابن المباشر لأبيه –باني المجد– مقصر

---

(453)محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.218-219

(454)عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة:ص.145

(455)عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.146

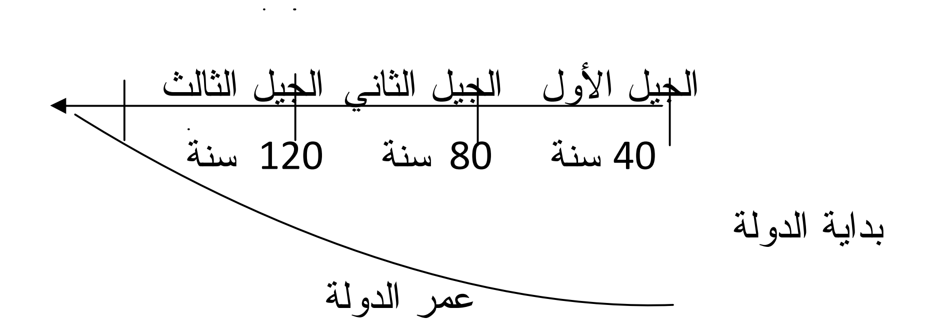
تقصير السامع الغير المباشر, ونحن نعلم أن هذا لم يكن عاما, فنجد في كثير من الدول في العصر الوسيط الأبناء شاركوا في بناء المجد مع الآباء[456].

لكن عبد الرحمن يضيف حالات خاصة يوسّع بها نظريته كقوله في نفس الصدد: ﴿واشتراط الأربعة في الأحساب إنّما هو في الغالب وإلاّ فقد يَدْثُر البيتُ من دون الأربعة ويتلاشى ويتهدم, وقد يتّصل أمرها إلى الخامس و السادس﴾[457].

2- المستوى الثاني: تطورها باعتبارها جماعة تحكم

في المستوى السابق شرحنا كيفية تطور الدولة من جانب حاكمها أي تطور الحسب من ملك إلى آخر, وهذا التطور يكون على شكل تنازلي, وبالتالي فالعلاقة بين الحاكم وأهل عصبيته تتطور على نفس المنوال, أماّ في هذا المستوى فنحاول أن ندرس تطور الدولة من جانب أنها جماعة تحكم وذلك بدراسة حالة عصبيتها, أي انتقالها من حالة القوّة إلى حالة الضعف من الالتحام إلى الانحلال.

نجد أن عبد الرحمن قسّم هذا المستوى إلى ثلاثة أجيال, وتقسيمه هذا يرتكز على متوسّط العمر الطبيعي للبشر ألا وهو أربعون سنة, وهو سن النمو والنشوء إلى غايته﴿ حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾[458], كذلك اعتمد على قصّة التيه حيث أن قوم موسى تاهوا في الأرض لمدّة أربعين سنة والمغزى في هذه المدّة حسب ابن خلدون هو﴿فناء جيل الأحياء و نشأة جيل آخر لم يعهد الذُّلَّ ولا عرفوه﴾[459], وبالتالي فثلاثة أجيال هم عمر الدولة.



[456]هناك إشارة لذلك عند **عبد الواحد علي وافي:عبقريات ابن خلدون,ص.125و155و266**

[457]**عبد الرحمن : المقدمة,ص.146**

[458]**سورة: الأحقاق,الآية 15**

[459]**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.179**

الجيل الأول:﴿ لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد, فلا تزال بذلك سَوْرَة العصبية محفوظة فيهم, وحدّهم مرهف, وجانبهم مرهوب, والناس لهم مغلوبون﴾[460].

الجيل الثاني:﴿تَحَوّل حالهم بالملك والترف, من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى إنفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه, ومن عزّ الاستطالة إلى ذلِّ الاستكانة, فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء, وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك, بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدو اعتزازهم وسعيهم إلى المجد, ومراميهم في المدافعة والحماية, فلا يسعهم ترك ذلك بالكليّة, وإن ذهب منه ما ذهب, ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول, أو على ظنّ من وجودها فيهم﴾[461].

في هذه المرحلة الجيل الثاني أدرك الجيل الأول واختلط بهم كما أنه عاش فترة انتقالية من خشونة البداوة إلى نعمة الحضارة, فبطبيعة الحال أنه يفقد من خشونته بقدر تحضره لكنه لا يفقدها بالكلية لأنهم أدركوا الجيل الأول فلا يمكنهم التملّص بالكلية من أخلاقهم وسعيهم وجدّهم, إلاّ أن هذا الجيل يظهر أمر آخر يكسر من قوّة عصبيتهم ألا وهو تفرّد الحاكم بالملك دون أهل عصبيته, مستعينا في ذلك بمصطنعين ومرتزقة مما يجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه, الضّاربين في الملك بمثل سهمه[462].

الجيل الثالث: ﴿ فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العزِّ والعصبية, بما هم فيه من ملكة القهر, ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنّنوه من النعيم وغضارة العيش, فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم, وتسقط العصبية بالجملة,..... فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته, فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة, ويستكثر بالموالي, ويصطنع من يُغني عن الدولة بعض الغناء...﴾[463].

([460])عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة,ص.179**.

([461])**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه, ص.180**.

([462])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.184**.

([463])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.180**,نلاحظ أن ابن خلدون ذكر مسألة الاستظهار في الطور الثاني والجيل الثالث, وذلك بعد أن يستأثر صاحب الدولة بالملك وينفرد على أهل عصبيته ونسبه, فيحتاج لتعويض القوّة التي تمكن من خلالها تأسيس الدولة الاستعانة بآخرين يستظهر بهم على أعدائه حيث يقول (صاروا – أي أهل عصبيته- حقيقة الأمر من بعض أعدائه) **عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.192**.

إلاّ أننا وفي الواقع نجد أن الاستظهار لا ينتظر حتى الطور الثاني أو الجيل الثالث , بل وجد في بعض الدول حتى في الطور الأول, فنجد أن يوسف بن تاشفين بعد أن أنهى تأسيس الدولة المرابطية استعانة بالجند المرتزقة حيث **يقول**

يوضح الجابري أن المستويين الأولين لتطور الدولة يقصد بهما عبد الرحمن ,التطور في الحسب والخلال في الأسرة المالكة, كذلك تطور العصبية الغالبة, وهو يعني تطور العلاقات الداخلية بين صاحب البيت والرياسة, وبين العصبية أو العصبيات التي ينتمي إليها البيت الحاكم, وبالتالي فتحديد عمر الدولة بثلاثة أجيال هو في الحقيقة يمثل الزمن اللازم لانفكاك عرى التضامن العصبي, وكذلك حصر أطوار الدولة بخمسة أطوار هو تبيان للمراحل التي يمر بها الحسب نزولا من النقاوة إلى الفساد والانحلال داخل نطاق البيت الحاكم, أو كما عرفه ابن خلدون(بالفرع المخصوص بالرئاسة) [464]ثم ينتقل الجابري في فهمه لنظرية ابن خلدون إلى تطور الدولة في المستوى الثالث ,وهو تطورها باعتبارها شخصا يملك وعصبية تحكم (تطور داخلي), والعلاقات بين العصبية الحاكمة الغالبة والعصبيات المغلوبة المحكومة (تطور خارجي), وهذا التطور العام للدولة الكلية العامة يمر هو كذلك على ثلاثة مراحل هي: **مرحلة الالتحام و القوّة**, **مرحلة الاستبداد والمجد**, **مرحلة التفكك والضعف.**

ووفقا لذلك تمر الدولة على ثلاثة أطوار: **طور التأسيس و البناء**, **طور العظمة والمجد**, **طور الهرم والاضمحلال**[465].

الناصري: (حيث جنّد الأجناد واستكثر القوّاد ..., وجعل في جيشه الأغزاز والرماة),**الإستقصاء,ج2,ص.108**,والأغزاز جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين,**حسن علي حسن: حضارة المغرب والأندلس,ص.325**,كما جاء عند **ابن أبي زرع**, أن يوسف بن تاشفين أدخل الأتراك الغز ضمن جيشه,**الأنيس المطرب, ص.239** , اشترى يوسف بن تاشفين الروم والصقالبة الذين اشتراهم كعبيد واختلف في عددهم, **ابن عذارى: البيان المغرب, ج4,ص.23** , إلا أن **بوتشيش** ذكر خلاف بعضهم حول كون ابن يوسف علي هو الذي أستعملهم, **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين,ص.46-47** , وكان عددهم زهاء الألفين حين استقدمهم يوسف بن تاشفين , حسب **ابن عذارى: البيان المغرب,ج4,ص.22**

لذلك يقول **ناصيف نصار**: (أن عمر ثلاثة أجيال هو عمر تقريبي, وهو لا ينطبق على جميع الدول وإنّما ينطبق في الغالب فقط, ويشير كذلك أن ابن خلدون كان عالما بذلك حيث أشار إلى دول تجاوزت عمر ثلاثة أجيال, كالدولة العبيدية, ودولة صنهاجة, ودولة الموحدين....),**الفكر الواقعي عند ابن خلدون,ص.260-261, حيث يقول عبد الرحمن** (لا تعدو الدّول في الغالب هذا العمر قبله أو بعده ,إلاّ إذا عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا و الطّالبلم يحضرها..) ,**المصدر السابق,ص.180**, وبالتالي يمكن لعمر الدولة أن يمتد إذا غاب المطالب حالة ضعف العصبية, يرى **ناصف نصار** أن أعمار الدولة الثلاثة هو أمر نموذجي,المربجع السابق,**ص.262** , أما **ساطع الحصري** فيقول(ربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة ,إن يتخيّر صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتها من تعوّد الخشونة, فيتّخذهم جندا يكون أصبر على الحرب,..., ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها), وبالتالي فساطع يخلص أن الدولة التي تستغني عن العصبية , تخرج عن مفهوم نظرية العمر(أطوار الدولة الثلاث), كذلك الدولة التي تستظهر بأنصار من غير جلدتها, فكأنها تتبعث بعد موتها, ولنا في الدولة العباسية أحسن دليل,**دراسات عن مقدمة ابن خلدون, ص.361 وما بعدها**

([464])**الجابري,فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.220**

([465])**الجابري:فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.221**

3- المستوى الثالث: نتائج العلاقة بين العصبية الحاكمة ورئيسها

- طور التأسيس و البناء:

يتميّز هذا الطور بثلاثة خصائص هي:

-سيطرة المصلحة العامة على المصلحة الفردية داخل العصبية الحاكمة, فلا ينظر الحاكم لنفسه بمنزلة العلو بل يعتبر نفسه خادما للعصبية, ﴿ لا ينفرد دونهم بشيء, لأن ذلك هو مقتضى العصبية﴾[466], وأهل عصبيته أيضا ﴿ظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخارجين على دولته ومنهم من يقلّد أعمال مملكته ووزِارَة دولته, وجباية أمواله, لأنهم أعوانه على الغلب, وشركاؤه في الأمر, ومساهموه في سائر مهماته﴾[467], إذن هي علاقة المساهمة والمشاركة في الثروة[468], ففي هذا المستوى الذي يكون فيه ارتباط وثيق بين الرئيس وأهل عصبيته المتغلّبة في تسير الحكم وتقاسم الريْع, وهذه المصلحة المشتركة هي التي تُقَوّي شَكِيمة العصبية وتقوي سلطان رئيسها, وبالتالي تكون الدولة الناتجة عنها قويّة ومرهوبة, مسيطرة على جميع المناطق التي تبسط نفوذها عليها[469].

-تتعامل العصبية الغالبة في هذه المرحلة مع باقي العصبيات بكثير من الرفق والتسامح , وذلك كله صادر عن الخلال الحميدة التي بوّأت العصبية الغالبة منصب الرئاسة ثم الملك, ﴿فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم, فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله﴾[470], ومن بين هذه الخلال,﴿ إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم﴾[471], ثم يوضّح سبب ذلك قائلا: ﴿ لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه, وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة... ﴾[472].

([466])**عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة,ص.184**

([467])**عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.192**

([468])**عابد الجابري: المرجع نفسه,ص.222**

([469])حيث يكون (المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا, كانت هُمَمُهم في التَّغلُّب على الغير والذّبِّ عن الحوزة أُسوة في طُمُوحها وقوّة شكائمها, ومرماهم إلى العزّ جميعا, وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساده), **عبد الرحمن ابن خلدون:المصدر السابق,ص.177**,وهنا تصريح صارخ على مبدأ المساهمة و المشاركة بين العصبية الحاكمة ورئيسها, فلا ينفرد الواحد على الأخر بالمجد, وهذا ما يضاعف قوّة الكل فيضاعف من مطالبتها وغلبتها.

([470])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.152**

([471])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ص.153**

([472])**عبد الرحمن بن خلدون,المصدر السابق, ص.153**

ومردّ ذلك راجع إلى الخلال الحميدة التي تتصف بها العصبية الحاكمة ورئيسها, التي تدفعهم إلى الإحسان إلى الغير والعطف عليهم[473], كذلك السعي إلى توضيح أحقيتهم في الملك بعد أن تحصّلوا عليه, أي بمعنى ما هو الجديد الذي أدخلوه على هذه العصبياتالمغلوبة أو المُسْتَتْبَعة, بعد أن كانوا خاضعين إلى دولة كانت تعيش مرحلتها الأخيرة من الهرم والانحلال وبالتالي الإقصاء و التهميش.

- السياسة المالية للدولة ترتبط بالسياسة المتّبعة من قبل الدولة, إما الدّين وبالتالي تعتمد الدولة على المداخيل الشرعية من صدقات وخراج وجزية وغيرها من مداخيل بيت المال, أما في حال اتبعت أساس العصبية وحدها فلا بد أن تتصف هذه السياسة بخلق البداوة, وأهمه المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتّجافي عن الأموال حيث يقول عبد الرحمان: ﴿ أنّ الدولة إذا كانت على سنن الدّين فليست تقتضي إلاّ المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية, وهي قليلة الوزائع, لأن ّمقدار الزكاة من المال قليل كما علمت, وكذا زكاة الحبوب والماشية, وكذا الجزية والخراج

وجميع المغارم الشّرعيّة, وهي حدود لا تُتَعَدَّى, وإن كانت على سنن التغلّب والعصبيةفلا بدّ من البداوة في أوّلها كما تقدّم, والبداوة تقتضي المسامحة و المكارمة وخفض الجناح والتّجافي عن أموال النّاس, والغفلة عن تحصيل ذلك إلاّ في الناذر,فيقلُّ لذلك مقدار الوظيفة [474]الواحدة, والوزيعة[475] التي تُجْمَع الأموال من مجموعها, وإذا قلّت الوزائع والوظائف على الرّعايا نَشِطُوا للعمل ورغبوا فيه, فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقِلَّة الغرم, وإذا كَثُرَ الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع, فكثرت الجباية التي هي جملتها﴾[476],وبالتالي يقوم طور التأسيس على نظام المشاركة والمساهمة الذي يحفظ الوحدة والالتحام داخل الجماعة الحاكمة, كسب القلوب وإنزال الناس منازلهم وهذا يضمن للدولة ولاء من يتبعها, الاقتصاد في النفقات وعدم الغلو في الجبايات مما يتيح جوّا مناسبا للإنتاج والإعمار, فيزداد ارتباط الرعيّة بالعصبيّة الحاكمة و رئيسها[477].

([473])**عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.223**

([474])الوزيعة : هي الضريبة الجماعية, **الجابري:فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.306**

([475])الوظيفة : هي الضريبة الفردية , **الجابري: نفسه,ص.306**

([476])**عبد الرحمن ابن خلدون,المقدمة ,ص.286,**

([477])**الجابري::المرجع السابق, ص.221-224**

نشير أن هذا الطور هو ناتج عن الطور الأول والجيل الأول الذين تم شرحهما فيما سبق, هناك طورين آخرين هما : **طور العظمة والمجد وطورالهرم والاضمحلال**, هما أيضا نتائج لما سبق معنا من أطوار وأجيال يضيق المقام على شرحهما [478].

ثالثا: حقيقة تطور الدولة الموحدية باعتبارها ملوكا متعاقبين

نعود هنا إلى المستوى الأول من تطور الدولة باعتبارها ملوكا متعاقبين, ونركّز في دراستنا على الحسب والخلال التي يتميّز بها الحاكم في الطور الأول للدولة.

التطوّر الحاصل في الحسب: سبق معنا الحديث عن النسب ودوره في العصبية , وخلصنا أن عبد الرحمن لا يرى أهمية النسب بذاته بل ينظر إليه من حيث أنه الوسيلة المفضية إلى حقيق المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة, وبالتالي فالنسب حقيقيا كان أو وهميا, ما دام يحقق هذه المصلحة فهو مفيد للعصبية بل هي تسعى إليه[479].

إلاّ أنّ الحسب هو أمر آخر يتعلّق أساسا بالحاكم رئيسا كان أو ملكا(الملك وما في معناه), حيث كنّا وضّحنا أن ﴿الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية﴾[480], وأن الالتحام يكون من النسب العام والخاص إلاّ انه في النسب الخاص يكون أشد لحمة, وأنّ الرياسة لا تكون إلاّ من العصبية المتغلبة على جميع العصبيات, وعليه فَحَسَبُ ذلك الرئيس يجب أن يكون **من أشرف الأنساب**, لتبقى الرّياسة في ذلك النّصاب وتتنقّل فيه, وعليه فإن للحسب دور مهم خاصة لرئيس العصبية, ﴿فالرياسة لابد وأن تكون موروثة عن مستحقّيها لما قلناه من التغلّب بالعصبية﴾[481]أي أنها – أي الرّياسة- لا تكون في غير نسب العصبية, لذلك تجد أن كثيرا من الرؤساء على القبائل والعصائب يسعون إلى أنساب ينتسبون إليها, إماّ لخصوصية كانت في ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو شرف, ومن ذلك ما يدّعيه زناتة جملة أنهم من العرب, وإدّعاء بني زيّان خاصة من أنهم من ولد القاسم بن إدريس[482] (أو القاسم بن محمد ين إدريس)وغير ذلك كثير,وهم كما قال عبد الرحمن غير محتاجين لذلك, فإنّ منالهم للملك كان بسبب عصبيتهم لا أصالة شرفهم[483].

لكن هنا يستوجب علينا شرح معنى اشتراط النسب والحسب والخلال الحميدة في الحاكم.

([478]) ارجع لهما عند **الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.224-231**

([479])نحن نعني أن أهل العصبية يتقوّون بمن هو من غير نسبهم على سبيل الحلف و المظاهرة وغيرها وذلك تحقيقا لمصلحة العصبية.

([480])**عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة,ص.140**

([481])**عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.141**

([482]) وإدريس هو مؤسس الدولة الإدريسية العلوية بالمغرب الأقصى.

([483])**عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.142**

يقول الجابري حول من تولى الرياسة في المجتمع القبلي يتوجب عليه أن يحمل ثلاثة صفات أو مؤهلات أولها:

النسب الصريح: حيث أن العصبية وإن أمكنها أن تضم إليها أفرادا بعيدين عنها دما (الحلف و الولاء والجوار), إلاّ أنهم في المرتبة الثانية.

لكن الجابري يبيّن أن هذا الشرط ليس مطلقا عند ابن خلدون, فصراحة النسب لا تعني بالضرورة نقاوة الدم إنما تعني أن الشخص المرشح للرياسة **قديم الانتماء للعصبية**, ذو مركز فيها وبالتالي فالمقياس عنده " **طول المعاشرة** "لا " **صراحة النسب** "[484].

لكننا نجد في مكان آخر اشتراط النسب الصريح في الرئيس مثل قول عبد الرحمن:﴿والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب, إنّما هو ملصق لزيق, وغاية التعصّب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غالبا عليهم البتّة﴾[485], كذلك قوله حول المصطنعين حيث ينتظمون في العصبية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ﴿ مولى القوم منهم﴾ سواء كان مولى رقّ أو اصطناع وحلف﴿ فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرفا وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم,بل يكون أَدْوَنَ– أي أقلّ– منهم على كل حال﴾[486].

من كل هذا يمكن وجمعا لما سبق أن نخلص إلى أن عبد الرحمن **يشترط النسب الصريح في الرئيس**, إلاّ أن هذا لا يعني اتصاله بحسب **شريف من العرب** كنسب الرسول صلى الله عليه وسلم أو آل بيته أو حتى القبائل العربية المشهورة,كما توهّم كثير منهم وأصبحوا يُسْقِطون أنفسهم في هذا الإحراج, بل يكفي أن يكون من بيت **شريف في الحسب والخلال الحميدة**, أي﴿ أن يُعَدَّ الرجل في آبائه أشرافا مذكورين, تكون له بولادتهم إيّاه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته, لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بِخِلالهم ﴾[487].

لذلك الصفة الثانية اللازمة هي **الشرف و الحسب والمجد** التي تطلبها الرياسة, لأنه لا معقول أن ينتسب الرئيس إلى بيت شريف في الحسب ثم لا يستفيد هو منه, حيث أن ﴿ من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة﴾[488],وبالتالي فالنسب حتى ولو كان صريحا لا يكفي وحده كمؤهّل للرياسة بل لا بد من الحسب والشرف, وباجتماع النسب والحسب بما فسرناه آنفا يتحقق للرئيس

---

[484] الجابري:فكر ابن خلدون العصبية والدولة,ص.180–181

[485]عبد الرحمن ابن خلدون:المقدمة,ص.141

[486]عبد الرحمن ابن خلدون:المصدر نفسه,ص.145

[487]عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.143

[488]عبد الرحمن ابن خلدون: نفسه,ص.151

شروط الرياسة, لكن دون أن ننسى شرط أساسي ألا وهو عصبية قويّة, ﴿فحيث تكون **العصبية مرهوبة ومخشيّة, والمنبت فيها زكيّ محمي**, تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى , **وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها,....**﴾[489], إذن دون عصبية قويّة لا معنى للحسب أو النسب أو حتى الخلال الحميدة, سواء في الرئيس وحتى في العصبية, لأن الهدف كله هو قيام الدولة.

وبالتالي نحن أمام الشرط الثالث ألا وهو **الغَلَب**, وهو أمر مصيري للعصبية فلا نفع لها دون أن يكون لها الغلبة, فلا تنفع الرياسة الخاصة دون الرياسة العامة التي تكون بالغلب﴿ لا بد في الرياسة على القوم أن تكون في عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة﴾[490].

المهدي بن تومرت[491] نسبه في المصامدة :

يقول ابن خلدون حول مهدي الموحدين: ﴿ إمامهم العالم محمد بن تومرت[492], صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي أصله من هرغة[493] من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت, وكان يلقّب في صغره بأمغار وهو: محمد بن عبد الله بن وُجلّيد[494]ابنبامصال بن حمزة بن عيسى[495] فيما ذكر ابن رشيق وحقّقه ابنالقطّان, وذكر بعض مؤرّخي المغرب أنه: محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا ابن سفيون بن الكلديس بن خالد, وزعم كثير من المؤرّخين أن نسبه في أهل البيت وانه : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان ابن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[496]أخي إدريس الأكبر, الواقع نسب الكثير من بيته في المصامدة

([489])**عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة, ص.151.**

([490])**عبد الرحمن ابن خلدون:نفسه,ص.141** , فلترجع حول كل هذا إلى **الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.180-182**

([491]) أثار تاريخ مولده اختلافا كثيرا, والأرجح أنه ينحصرما بين سنتي 471ه و 481ه وسنة 484ه هو أقرب التواريخ احتمالا اعتماد على تاريخ بداية رحلته.**رشيد بورويبة: ابن تومرت, ص.9-13**

([492]) لُقِّب والد محمد, عبد الله بتومرت وهذه الكلمة تعني كساء من جلد أو TAMARCO وهذه الكلمة شائعة حتى الآن في جزر كنارياس, كما عرف والده كذلك بلقب (الشيخ و أمغار) وهما من نفس المعنى , **ابن القطّان:نظم الجمان,ص.88**

([493]) هو من ضيعة (إجلي أَنْ وارْغن) من قوم يُعرفون (بإسرغينن) ومعناه الشرفاء بلسان المصامدة, **المهدي بن تومرت :كتاب أعز ما يطلب,ص.3 ,عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.245**

([494]) وجليد أو واجليد هي صيغة بربرية تعني الزعيم أو القائد وهذا يعني أن ابن تومرت كان من أصل مرموق في قبيلته.**حسين مؤنس:معالم تاريخ المغرب والأندلس,ص.203**

([495]) أضاف صاحب **نظم الجمان** بعد ابن عيسى: بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه, **ص.:88, كذلك البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب,ص.12**

([496]) كذلك ذكر هذا النسب. **ابن القطّان:نظم الجمان, ص.87-88,إبن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت681ه-1282م):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق احسان عباس,دار صادر بيروت,ص.45, إبن أبي زرع :الأنيس المطرب,ص.172,ابن أبي دينار:المؤنس,ص.107, الناصري: الاستقصاء,ج2,ص.71** لكن بلفظ التمريض "زعم" أو "قيل هو دعيّ في هذا النسب", أما **عبد الواحد المراكشي** يقول له نسبة متصلة بالحسن ابن الحسن بن

وأهل السوس,......فإن نسبة الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ورسخت عروقه فيهم[497], والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبهم وصار في عدادهم[498],وكان أهل بيته أهل نسك ورباط﴾[499].

علي بن أبي طالب رضي الله عنه وُجِدت بخطه, **المعجب,ص.245** , أنظر كذلك خطبة المهدي في أصحابه في قرية إجليز والذي هو يصرح ارتباط نسبه بنسب الرسول صلى الله عليه وسلّم ويدّعي المهدوية,**ابن القطّان:المصدر السابق,ص.125, أما ابن الأثير** فينسب المهدي إلى النسب العلوي فيقول: هو المهدي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسني وقبيلته من المصامدة تعرف بهرغة في جبل السوس من بلاد المغرب,نزلوا به لما فتحها المسلمون مع موسى بن نصير, **الكامل في التاريخ,ج9,ص.195** ,أنظر **عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السوسي ت524ه-1129م حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب,دار الغرب الإسلامي,ط1 1403ه-1983م**,الذي يبحث في قضية انتسابه إلى البيت النبوي, وفي الأخير لا يلغي احتمال صدق ذلك, وهو بالمناسبة يستعمل نظرية الأجيال وعمر الجيل التي تكلّم عنها ابن خلدون, في إمكانية أن يكون للنسب الطالبي تواصل في بلاد المغرب.,**ص.22وما بعدها**

والنسب القرشي من شروط الخلافة عند الفقهاء , والمغاربة مالكي المذهب كانوا هم كذلك يرون ذلك, وعليه ادعى جلّ من طلب الحكم بتلك البلاد انتسابه لذلك النسب , ومنهم المهدي و حتى عبد المؤمن ,**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي,ص.122,الصلاّبي :دولة الموحدين,ص.8**

([497]) ذكر الغازي بن قيس (وهو فقيه نحوي أندلسي أول من ادخل موطأ مالك إلى الأندلس ت199ه-814م)أن جد المهدي دخل المغرب مع عقبة بن نافع,**مجهول:مفاخر البربر,ص.198** , لكننا نجد تناقض في الرواية فكيف يتحدّث عن المهدي رجل عاش في القرن الثاني هجري؟ أنظر المقولة التي صدرت عن الغازي كأنه يتحدّث عن شيء غائب لم يحدث بعد.

([498]) مرّ معنا في تحليلنا لمسألة النسب والحسب والخلال الحميدة إشتراط النسب الصريح في الرئيس مع عدم كفاية الإنتساب عن طريق الولاء والحلف, وقد ضرب ابن خلدون مثالا لذلك بالموالي في الدول مثل الأتراك وبني برمك في الدولة العباسية كيف نالوا المناصب الرفيعة بانتسابهم إلى ولاء الخلفاء ولا إلى أصولهم, **المقدمة:ص.145**, أما في أمكنة أخرى فهو يؤكّد أن الزعامة قد تكون بِقِدَم الانتماء إلى العصبية, ونجده في كلامه عن المهدي بن تومرت ونسبه يذكر أنه يتصل بالنسب العلوي(فإن نسبة الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ورسخت عروقه فيهم, والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبهم وصار في عدادهم) **العبر:ج6,ص.301**, أي أن نسبه شريف وقع واختلط بنسب المصامدة

ثم نجده في المقدمة في موضع آخر يتكلم عن شغف رؤساء وزعماء القبائل في الانتساب إلى أنساب شريفة معلومة حيث يقول : (ومن هذا الباب – أي تشوّف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب بخصوصيتها- ما يدّعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زُغبة, إنهم من ولد أبي بكر الصدّيق ,.... – حتى يقول- ورياستهم في قومهم مانعة من إدّعاء هذه الأنساب كما ذكرناه, بل تعيّن أن يكون من صريح ذلك النسب وأقوى عصبيّاته فاعتبره واجتنب المغالط فيه,ولا تجعل في هذا الباب إلحاق مهدي الموحدين بنسب العلويّة, فإن المهدي لم يكن من منبت الرّياسة في هرثمة قومه, وإنّما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدّين, ودخول قبائل المصامدة في دعوته, وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسّطة فيهم..)**المقدمة: ص.142**

وبالتالي نقول أن النسب الصريح مطلوب في الرئيس كما تقدّم لكن دون أن يشترط انتسابه لأنساب شريفة,كأن يرتبط نسبه بأنساب شريفة معلومة كأنساب العرب أو النسب النبوي مثلا, بل يكفيه نسبه الشريف في قومه معلوم لديهم كابرا عن كابر واتصافه هو بالخلال الحميدة, بالإضافة إلى شرطٍ هام وهو أن يكون من منبت الريّاسة ومن العصبية الغالبة, إلاّ أننا هنا أمام استثناء فيما يخص المهدي فهو ليس من منبت الرياسة إلاّ أنه مع ذلك من المنابت الرفيعة بالإضافة إلى عامل مهم ألا وهو حَمْلِهِ لِدَعْوَة دِينِية تَجَمَّعت حولها العصبيات المصمودية,فنالت قبيلته هرغة المكانة الرفيعة في هذه القبائل بفضل انتماء المهدي لها وليس العكس, وهذا دليل على أهمية الدعوة الدينية في قيام الدولة.

([499]) **عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.300-301**

بعض صفاته وخلاله التي أكسبته المجد في قومه:

-وُضع للمهدي في النفوس هيبة وفي الصدور وعظمة فلا يراه أحد إلاّ هابه, وعظُم أمره, وكان شديد الصمت كثير الانقباض,إذا انفصل عن المجلس لا يكاد يتكلم بكلمة [500].

-كان حصورا لا يأتي النساء, وكان يلبس العباءة المرقّعة وله قدم في التقشّف والعبادة, ولم تُحْفظ عنه فلتة في البدعة إلاّ ما كان من موافقته للإمامية من الشيعة[501].

- اتصف بالشجاعة ويكفيه شجاعة ما نُقل عنه من صدعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ بداية رحلته من الإسكندرية بمصر حتى وصوله مراكش بالمغرب الأقصى, لا يخاف لومة لائم[502].

وهذه من العوامل الرئيسية التي **أكسبته المجد** عند أتباعه بالإضافة إلى **علمه**,حيث كان **عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالأصول والجدل فصيح اللسان,أوحد عصره في علم الكلام وعلوم الاعتقاد**[503],مشاركا في علوم كثيرة محبا لأهل العلم مقربا لهم كريما [504].

فأخذ يشيع بين الناس انه المهدي المنتظر[505], محبا للعدل وأهله مبغضا للظلم, كبير النفس عالي الهمّة[506].

-لكن من أهم الصفات التي أكسبته المرتبة الرفيعة في المصامدة هو اتصافه بالمهدويّة, فلماّ نزل رباط إجليز قرب قبيلته هرغة وذلك سنة 514هـ-1120م فارا من مراكش, بقي فيه سنة يعظ أتباعه ويذكّرهم بأيام الله, وفي سنة 515هـ-1121م أعلن مهدويّته[507]وبويع على ذلك, وألّف لهم

([500]) **عبد الواحد المراكشي:المعجب, ص.250**,

([501]) **عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.305**

([502]) **أنظر الاستقصاء,ج2,ص.72-76 , عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.261, ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة,ص.11-33**

([503]) تتلمذ ابن تومرت على مجموعة من المشايخ أثناء رحلته للمشرق, ومكنه ذلك من الوقوف على حال الدول وكان ذلك دافعا ومحفزا له للقيام بثورته في المغرب.**الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.11-15**

([504]) **إبن أبي دينار:المؤنس,ص.113**

([505]) **إبن أبي زرع:الأنيس,ص.173**, ونحن نرى الدور الكبير الذي كان للمناظرة التي عقدها له أمير المرابطين علي بن يوسف في التعريف به وكثرة أتباعه حيث أفحم علماء الدولة , أنظر بعض جوانبها عند **ابن أبي زرع:نفس المصدر,ص.174-175**

([506]) **إبن القطّان:نظم الجمان,ص.90**

([507]) **لسان الدين بن الخطيب:الحلل,ص.78, ابن القطّان:المصدر السابق,ص.124,ابن الأثير: الكامل في التاريخ,ج9,ص.197 المهدي بن تومرت: أعز ما يطلب ,ص.3** (حيث قال- بعد أن ذكر طرق العلم ومنها طريق السمع- والكلام الآن في الطريق الذي هو السمع,فمما علق عن الإمام المعصوم المعلوم رضي الله عنه في ذلك ,أول هذا الأمر **برباط هرغة** ببلد السوس سنة خمسة عشر وخمسمائة إنّ تحصيل الفقه في السنة بخمسة أوجه...) أنظر تنبيه **عبدالله علام** حول ذلك في : **الدولة الموحدية بالمغرب,ص.64**,وآخرون جعلوها في تينملل سنة 515هـ-1221م وهم**عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص.245 ,البيذق: أخبارالمهدي,ص.34, إبن أبي زرع: الأنيس,ص.176 ابن أبي دينار: المؤنس,ص.109** والمجموعة الثانية ابتعدت عن الصواب حسب رأي بعضهم حيث أن المهدي فرّ من مراكش

كتاب التوحيد بعد انتقالهم إلى تينملل,هو كتاب عقِيَدَة باللّسان البربري, فلما فهموا معاني تلك العقيدة كبر في أعينهم المهدي وأُشربت قلوبهم محبّته وأجسامهم طاعته[508].

- كان المهدي متيقنا من النصر ربما مستأنسا بكتاب الجفر[509] فكان يبشّر أصحابه وأتباعه ويحرّضهم على القتال مقتفيا في ذلك أثر الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم,فمثلا لما استقر بجبل إجليز بهرغة, بعث له علي بن يوسف جيشا سنة516ه-1122م فتحصن المهدي وأصحابه بالجبل المذكور وبدأ يتعبأهم ويُذكّرهم بالجنّة ويَعِظهُم, ثم نزل الموحدون من الجبل يريدون القتال **ولا أسلحة لديهم ولا عدّة,فنصرهم الله** (فلما نالوا ما وعدهم به- أي المهدي- وصِدْقَّ خَبَرِه على وفق مخبره, عظم رضي الله تعالى عنه في أعين الموحدين أعزّهم الله تعالى), فكانوا يستحيون من رفع رؤوسهم نحوه حتى يأمرهم هيبة وتعظيما له, وانتشر خبر هزيمة المرابطين في جميع البلاد فكثر المعظمون له والمهاجرون إليه, فلم يكد يبقى قبيل من قبائل مصمودة إلاّ وهاجر إليه أو كان منهم من هاجر إليه[510].

حال المهدي مع أهل عصبيته المساندون له في أمره:

- المتتبّع لأحوال المهدي بن تومرت وغيره من أصحاب الطموح يلحظ أمرا بالغا في الأهمية وهو ضرورة وجود عصبية قبلية تستقيم بها أيّ دعوة سواء كانت دينية أو سياسية صادرة عن هؤلاء[511], وفي حال ابن تومرت فقد تعرّض لسخط سلطان بجاية " العزيز بن المنصور بن الناصر بن علماس بن حماد" فحاول البطش به بعد أن أغلظ له القول وغيّر المنكرات في مدينته

سنة**514ه-1120م** قاصدا قبيلته هرغة في جبل إجليز ومكث هنالك ما يقارب ثلاثة سنوات, ثم انتقل بعد ذلك إلى تينملل حسب **ابن القطّان:نظم الجمان,ص.133**.فكيف يكون له أن يعلن مهدويته في تينملل سنة 515ه, **أنظر عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.38-39**, **أما رشيد بوروبة** فيكتفي بسرد الخلاف دون الترجيح, **ابن تومرت,ص.66**.

(508) **عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.254 , ابن القطّان:المصدر السابق,ص.129**

(509) الجفر: هو جلد الماعز الذي كتب عليه الكتاب, وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق كتب لهم فيه كل ما يحتاجونه, وكل ما سيقع إلى يوم القيامة, فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية وسمّاه الجفر باسم الجلد المكتوب عليه,وعبد الرحمن بن خلدون يبين (أن هذا الكتاب لا يصح عن جعفر الصادق وفيه شواذ من الكلمات, وعلى حسبه لو صح عن جعفر فحري تصديقه لما لآل البيت من كرامات),إلاّ أن هذا كله من الباطل فلا يعلم الغيب إلاّ الله﴿ قُلْ لا يَعْلَم من في السماوات و الأرض الغَيْب إلاّ الله وما يشعرون أيّان يبعثون﴾ **سورة النمل,آية :65, الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.88, الصلاّبي:دولة الموحدين,ص.23**

(510)**إبن القطّان:المصدر السابق,ص.131**,أنظر كذلك حول هذه المعركة **ابن الأثير:الكامل في التاريخ,ص.197** يقول **ابن أبي زرع** عن حال المصامدة مع المهدي ,أنهم كانوا جهّالا في أمور الدّين والدنيا فاستغلّ جهلهم واستهواهم بكيده وعذوبة لسانه كونه كان فصيحا بلسان قومه و بالعربية, حتى كانوا لا يذكرون غيره ولا يمتثلون أمرا إلاّ أمره, يستغيثون به في شدائدهم ويتبرّكون بذكر اسمه على موائدهم, ودخل الناس في طاعته أفواجا واتخذوا سنّته شريعة ومنهاجا. **الأنيس المطرب,ص.177**

(511) معظم مؤسسي الدول في المشرق والمغرب والأندلس دعمتهم عصبيات سواء كانت قبلية أو سياسية ,كعبد الرحمن الداخل,إدريس الأول ,عبد الرحمن بن رستم.عبد الله بن ياسين وغيرهم

دون أن يكون من رجال الحسبة, لولا أن آوته وأجارته قبيلة (بنو ورياكل من صنهاجة) في منطقة ملالة ولم تُسْلمه للأمير الصنهاجي[(512)]رغم أنهم ليسوا من عصبيته.

وعليه كان لا بد لابن تومرت أن يحتمي في أحضان عَصبيّةٍ قَبليّةٍ تحميه ولا تُسْلمه لعدوه, ومن تكون أحسن له من عصبيته مصمودة , فنزل المهدي عند قبيلته هرغة وبدأ بالدعوة ثم أعلن مهدويته واتهم المرابطين بالتجسيم والكفر وأحلّ دماءهم.

أصبح المهدي رجل سياسة ودين في آن واحد[(513)] عقب دخوله (هرغة) واحتمائه بقومه,وهم الذين حموه وحصّنوه من بطش المرابطين.

- مما زاد الرابطة بين المهدي وعصبيته هو طريقة تقسيمه للموحدين إلى طبقات[(514)], حيث أنّنا نجده يقدم من كان سبّاقا للاستجابة لدعوته حتى وإن لم يكن مصموديا[(515)] ,مثل البشير الونشريـــــسي وعبد المــــــــؤمن بن علي ويجــعلهم في أهل الجماعة[(516)], ثم الخمسين الذي يقول عنهم صاحب المعجب(لا تجمعهم قبيلة واحدة) [(517)] إلاّ أن غالبيتهم من المصامدة,ويرى بعضهم[(518)] أنه كان يسعى إلى نظام دولة من حيث أنه حاول إذابة القبيلة في إطار أوسع أي ربط القبائل في تنظيم أوسع [(519)].

([512]) **عبد الله علي علاّم: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.57 الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.73**

([513])يقول الماوردي: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الـدين وسياسـة الـدنيا), **المــاوردي أبــي الحســن:الأحكــام السلطانية و الولايات الدينية,ص.3**, والخليفة لا يعدو أن يكون رئيسا دينيا أو سياسـيا نيابـة عـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم, فيجمع بـين السـلطتين: الدينيـة والدنيويـة, **صــلاح الــدين محمــد نــوار:الخلافــة أو الإمامــة وتطورهــا السياســي والديني(11ه-41ه,632م-611م)دراسة تحليلية ونقدية, منشأة المعارف,الإسكندرية مصر,1416ه-1996م,ص.12**

([514]) الصنف الأول:العشرة يعني أهل الجماعة,الصنف الثاني:أهل الخمسـين,الصـنف الثالـث:أهـل السـبعين,الصـنف الرابـع: الطلبة,الصنف الخامس:الحفاظ وهم صغار الطلبة,الصنف السادس:أهل الـدار,الصـنف السـابع:هرغـة, الصـنف الثـامن: أهـل تينملل, الصنف التاسع: جدموية, الصنف العاشـر: جنفيسـة, الصـنف الحـادي عشـر: هنتاتـة, الصـنف الثـاني عشـر:أهـل القبائل, الصنف الثالث عشر: الغرّات ,**إبن القطّـان: نظـم الجمـان,ص.82 , لسـان الـدين ابـن الخطيـب:الحلـل,ص.79-80** مع اختلاف في الصنفين الثاني عشر والثالث عشر الذين عند صاحب الحلل كالتالي: الجند, الغزاة والرماة.

([515]) لكنه عمد إلى ما يعرف بالتآخي الذي كان يجري بين القبائل المصمودية وغيرها من القبائل الأخرى , فمثلا أنه آخى بين عبد المؤمن وقبيلة هرغة, **جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقته بالمغرب,ص.297 ,عز الدين عمر موسى :الموحدون في الغرب الإسلامي,ص.41, رشيد بوروبة: ابن تومرت,ص.95** وهذا نوع من إلحاق الغريب بالعصبية الهدف منه نزع التشاحن وداخل في معنى النسب.

([516])إقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم وهم أوّل أتباعه الذين هاجروا واضطُهدوا معه, لذلك سمّاهم المهاجرين, **عبد الله علاّم: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.67**, أنظر تتبع المهدي لخطوات الرسول صلى الله عليه وسلّم **,جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقته بالمشرق,ص.294-295, البيدق:أخبار المهدي ,ص.33**

([517]) **عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص. 255**

([518])**عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي,ص.74**

([519])**أنظر جدول تمثيل لأهم القبائل المصمودية وغيرها في مجلس الخمسين في فهرس الملاحق**

- ومن الضروري أن ننتبّه إلى أمر مهم فيما يتعلّق بالدول التي قامت على أساس دعوة دينية,حيث نجد أن الداعية يتمتّع بمكانة مرموقة بين أتباعه, فيأتمرون لأمره وينتهون عمّ نهى ليس خوفا منه بل تعظيما للأمر الذي يدعوا إليه, والأمر يكون أأْكد مع أهل المغرب المعروفون بسذاجتهم وحبّهم لأهل البيت, وهكذا كان حال المصامدة مع ابن تومرت فقد اتبعوه بنيّة صادقة لإدعائه المهدويّة[520],وبالتالي سَهُل عليه خداعهم في كثير من المرّات بحجّة أنه المعصوم.وهذا الأمر حسب رأينا أتاح له الفرصة أن يحقّق مبتغاه دون وجود معارض, فكان كلّما لمس الشك فيهم بدّده بمكره [521].

- كان سفاكا للدّماء غير متورعٍ فيها من أجل تحقيق هدفه ولو كان ذلك بالمكيدة والدهاء[522]توفى سنة524ه-1130معند أغلب المؤرخين إلاّ عبد الرحمان ابن خلدون تفرّد بسنة الوفاة التي هي 522ه-1128م[523].

عبد المؤمن بن علي[524]نسبه وسبب توليه على المصامدة:

أ- نسبه:

بني عبد المؤمن من كومية ثم من بني عابد يُعرفون قديما بصطفورة بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر, فهم بنو عم زناتة لا يجتمعون معهم في ضري بن زجيك [525],وبعض المؤرخين يرفعون نسبهم إلى قيس عيلان بن مضر[526]واتفق جمع من

---

(520)ويبيّن **عبد الواحد المراكشي** مكانة المهدي بين قومه المساندون له حيث يقول: (ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر,وفتنتهم به تشتدّ,وتعظيمهم له يتأكد, إلى أن بلغوا في ذلك إلى حدٍّ لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء,**المعجب,ص.259**.

(521) قد مرّ معنا حيله سواء بقضية البشير الونشريسي ومسألة التمييز ثم قضية الموتى التي أتى على ذكرها **ابن أبي زرع** والتي قام فيها المهدي بدفن جماعة من أصحابه في أحد مواضع المعركة مع المرابطين, وترك لهم متنفسا ثم أتى بأشياخ الموحدين وقال لهم أنكم على الحق وطلب منهم أن يسألوا موتى المعركة إن هم ارتابوا وكان ذلك فأجابهم الموتى المزعومين بأنهم في نعيم الله, فافتتن بذلك كافة الناس,**ابن أبي زرع:الأنيس المطرب,ص.182**

(522)**إبن أبي زرع :نفسه,ص.181**

(523) **رشيد بوروبة: ابن تومرت,ص.88**

(524) لم يتفق على سنة مولده لتعذر تحديد سنة ميلاد شخص قروي في العصور الوسطى, وعليه حصر ميلاده في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن الخامس الهجري, **عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب,ص:72-73**

(525) تقدّم معنا ذكر نسب زناتة والاختلاف في ذلك

(526) كان يقول إذا ذكرت كومية , لست منهم , وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان, ولكومية علينا حق الولادة بينهم و المنشأ فيهم وهم الأخوال,**عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.265**,وكان هذا هو جوابه عند ما التقى بالمهدي في ملالة , حيث قال من قيس عيلان ثم من بني سليم, فبشره المهدي انه هو الذي ينصر الله به هذا الدين.**ابن الأثير:الكامل في التاريخ,ص.196**

المؤرخين على خلاف ذلك[527], قال عبد الرحمن: كان عبد المؤمن من بني عابد أحد بيوتات كومية و**أشرافها**[528], أما والده فكان حسب ابن خلكان وسيطا في قومه, وكان صانعا في عمل الطين وكان عاقلا وقورا [529], استمر أولاد عبد المؤمن ينتسبون إلى هذا النسب العربي ووافقهم الخطباء حيث إذا ذكروا ابن تومرت قالوا :(نسبه رضي الله عنه في النسب الكريم) [530].

هو عبد المؤمن بن علي بن علَوي بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمتر بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورجايع بن سطفور بن يعقوب بن ملطاط بن هودج بن نسير بن عيلان بن مضر [531].

ب- سبب تولّيه على المصامدة:

- كان أمر عبد المؤمن بن علي مصيريّ عند المهدي حيث أن هذا الأخير وخلال تواجده عند أبي حامد الغزالي وقعت يده على كتاب من خزانة الغزالي يعرف (بالجفر) وهذا الكتاب مرجع في علم التنجيم, ومما كان في هذا الكتاب قيام دولة في بلاد المغرب الإسلامي على يد رجل من أهل السوس من ذرية النبيّ صلى الله عليه وسلّم , وبداية أمره من موقع يسمى باسم هجاء حروفه(ت ي ن م ل ل) وهي تدل على مكان بالمغرب الأقصى يعرف بتينملل, واستقامة هذا الأمر يكون على رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن)أي عبد المؤمن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة [532].

([527])انظر كذلك **عبد الله علي علام**,الذي يأتي برأي بعض المؤرخين كالبيدق وابن خلدون, وابن أبي زرع, وعبد الواحد المراكشي,ويذهب إلى استحالة انتساب عبد المؤمن إلى مضر, وإنما مقتضيات الخلافة الموحدية حتمت عليه إدعاء نسبه العربي, **الدولة الموحدية بالمغرب,ص.73-76**

([528]) من بني مجبر ومولده بتاجرا حسب **عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.265, ابن الأثير:الكامل,ص.196** .وتاجرة موجودة بتراب قبيلة بني عابد المستقرة على ساحل البحر في الشمال الشرقي من مدينة ندرومة **البيدق:أخبار المهدي,ص.16**

([529]) **الناصري:الاستقصاء,ج:2,ص.89** ,أما **ابن أبي دينار** فيقول أن والده كان نجّارا, **المؤنس,ص.101**

([530])**عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص:265**

([531]) **لسان الدّين ابن الخطيب:الحلل,ص.107عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق, ص:265** وهو مبتور, **ابن أبي زرع:الأنيس,ص.183,مجهول: مفاخر البربر,ص.199** .

([532])**ابن خلكان: وفيات الأعيان,ج3,ص.238 وج5,ص.48الناصري: المصدر السابق, ج.2,ص.83-84,أما ابن الأثير** فذكر أن عبد المؤمن أجاب المهدي حين سأله عن نسبه انه من قيس عيلان ثم من بني سليم ,حينها قال المهدي أن هذا الذي ينصر به الله الدّين آخر الزمان وفقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلّم.**الكامل في التاريخ,ص.196**, حول انتظار المهدي بشغف على قارعة الطريق بملالة ينتظر ظهور الفتى الذي لا يتم الأمر إلاّ به, و الالتقاء بين الداعية و تلميذه وجزء من الحوار الذي دار بينهما ,**أنظر البيدق: أخبار المهدي,ص.14و16, ابن أبي زرع: الأنيس المطرب,ص.172**, أما صاحب **نظم الجمان** فيذكر أن عبد المؤمن بن علي كان أحد طلبة عبد الواحد بن عمر التونسي الذي كان يدرّس بتلمسان, وحين مات هذا الأخير استجلب طلبته المهدي ليدرّسه عوضه وكان مبعوثهم إليه عبد المؤمن,**ص.77**

- كان كذلك لوصيّة المهدي لأصحابه الدور الكبير في خلافته بعد مماته رغم كونه غريبا عنهم[533]حيث قال لهم: (وقد اخترت لكم رجلا منكم – نسبه إلى المصامدة ربّما لأنه آخ بينه وبين قبيلته هرغة– وجعلناه أميرا عليكم , هذا بعد أن بلوناه في جميـــــع أحواله....,فرأيناه ثبتا في دينه متبصّرا في أمره...., وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن..), فبايع القوم عبد المؤمن ومسح المهدي وجوههم وصدورهم واحدا واحدا, وكان هذا سبب تولّيه على المصامدة[534].لمّا انهزم الموحدون في معركة البحيرة[535],ونجا عبد المؤمن قال المهدي(إن عاش عبد المؤمن بقي الأمر وظهر) هذا ما أكسب عبد المؤمن المجد و الشرف ومكنّه من تولّي الأمر بعد المهدي[536].كذلك حين عيّن المهدي عبد المؤمن على أول جيش من الموحدين من المصامدة جُلَّهم من أهل تينملل سنة 517ه–1123م, وقال لهم (أنتم المؤمنون وهذا أميركم) فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين[537].

- بعد وفاة المهدي خاف أصحابه من افتراق الكلمة من جهة ومغبّة تولية عبد المؤمن الذي كان المهدي يقرّبه في حياته,فأجلّوا الأمر إلى أن تخالطت بشاشة الدعوة قلوب الموحدين فبايعوه سنة 524ه–1130م[538]. وبالتالي فنحن نلمس أساس قيام الدولة الموحدية الديني و ليس العصبي.ذكر

([533])**عبد الواحد المراكشي:المعجب, ص.260.**

([534])**عبد الواحد المراكشي:نفسه,ص.262–264**, إلاّ أن قضية الاستخلاف بعيدة عن الصحّة عند مجموعة من المؤرّخين من بينهم صاحب الأنيس المطرب, وابن خلكان و صاحب الحلل , وذلك راجع إلى عدم منطقية أن يكون المهدي قد استخلف بعده عبد المؤمن ومع ذلك نجد أن أصحابه – من تَبَقّى من أهل العشرة– أسرّوا موته ولم يعيّنوا الخليفة إلاّ بعد أن كسب عبد المؤمن مكانة في قلوب المصامدة كما سبق معنا, **عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.113–115 , أما صالح بن قربة** يرى أن هذا الاستخلاف كان على قيادة الجيش فقط حين مات محمد البشير, وكان هذا من أسباب مبايعة الموحدين له بالخلافة.**عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب,ص.31.**

([535]) معركة بين الموحدين والمرابطين كانت الهزيمة فيها نكراء على الموحدين وقتل فيها البشير, **أنظر البيدق:المصدر السابق,ص.39.**

([536]) **ابن القطّان:المصدر السابق,ص.165 , عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق,ص.260**وعند **ابن الأثير**: أن المهدي لماّ سمع بهزيمة الموحدين في معركة البحيرة اشتد مرضه فسأل عن عبد المؤمن فقيل له هو سالم, فقال(ما مات احد لأمر قائم وهو الذي يفتح البلاد) ووصى أصحابه بإتباعه وتقديمه وتسليم الأمر إليه والانقياد له , ولقّبه بأمير المؤمنين , **المصدر السابق, ج9,ص201**

([537])**عبد الواحد المراكشي,المصدر السابق,ص.260.**

([538]) هناك بيعتان بيعة خاصة مباشرة بعد وفاة المهدي أي سنة 524ه–1130م والبيعة العامة بعد أن استقر الأمر في المصامدة على أهلية عبد المؤمن خاصة بعد الحروب التي خاضها بكل حزم. **عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.305–306, ابن الخطيب:الحلل الموشية,ص.7, ابن أبي زرع: الأنيس المطرب,ص: 184و186,ابن أبي دينار: المؤنس,ص.110, عبد الواحد المراكشي:مصدر سابق,ص.262,يقول الناصري** حول هذه المسألة أن اختيار عبد المؤمن كان بعد اجتماع جماعة العشرة والخمسين وقدّموه لدرأ الفتنة, وساعدهم في ذلك أنه ليس من قبيلهم وبالتالي يبعدون فتنة الزعامة بين المصامدة **الاستقصاء,ص.91**, نلاحظ انه اختص باجتماع العشرة و الخمسين من أجل البيعة وربما هو يقصد البيعة العامة, لأن البيعة الخاصة كانت من قبل المتبقين من جماعة العشرة, نضيف أن بيعتهم له كانت ترمي إلى التحكّم فيه لكونه غريبا بينهم لا عصبية له لتحميه, **حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في**

ابن قنفذ القسنطيني أنه وبعد وفاة مهدي الموحدين بايع أصحابه واحدا منهم وهو الشيخ أبو علي عمر الصنهاجي المعروف بأزناج[539], إلاّ أن هذا الأخير تنازل عن الخلافة لعبد المؤمن بن علي احتراما منه لرغبة المهدي[540].

مؤهلات عبد المؤمن التي مكنته في عصبيته الجديدة:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره في تزكية المهدي له, فقد اجتمعت في عبد المؤمن مجموعة من الخصال والصفات أهلته للرئاسة على عصبية غريبة عنه من أهمها:

- كان رَجُل عِلْم لأن أقرب الروايات إلى المعقول حسب محقّق نظم الجمان أن عبد المؤمن كان من طلبة تلمسان[541] فلمّا توفى شيخهم وتزامن ذلك مع وصول المهدي إلى ملاّلة واستقراره المؤقّت فيها مدرّسا العلم, عيّن هو كمبعوث إلى الشيخ قصد دعوته من أجل أن يكون شيخهم الجديد, وهذا يدلّ على أن عبد المؤمن كان طالب علم متفوقا بين زملائه, وهو الوحيد في رأيهم يستطيع محادثة الشيخ السوسي وفي نفس الوقت إقناعه بالمجيء للتدريس في بلدهم[542].

- كان عبد المؤمن بارا بمن تبعه عارفا بأقدار الناس مكرما لأعيانهم وأهل البيوت منهم, عالما بمقادير العلماء ينزل الناس على قدر منازلهم[543].

- كان فقيها وفصيحا عالما بالجدل والأصول حافظا لحديث النبي صلى الله عليه وسلّم, مشاركا في علوم كثيرة الدينية والدنيوية وعلم النحو واللغة والأدب و التاريخ وعلم القراءات نافذ الرأي,ذا حزم وسياسة وشجاعة وإقدام, وكان سخيا كريم الأخلاق محبا لأهل العلم مقرّبا لهم[544].محسنا إليهم يستدعيهم من كل البلاد لمجاورته[545]أجزل لهم الأرزاق الواسعة منوها ومعظما لهم[546].

المغرب والأندلس,ص.64.أما جورج مارسيه ,فيبين الدور الكبير الذي قام به الصاحب المخلص أبو حفص كما سمّاه , في نقل الخلافة إلى عبد المؤمن كونه غريبا بينهم , وهذا ما يضعف احتمالية أن يتفرّد دونهم بالحكم.**بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق,ص.298**

([539]) من أصحاب المهدي العشرة **إبن القطّان:نظم الجمان, ص.125-128, البيدق:أخبارالمهدي,ص.34-35**

([540])**إبن القنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسين:الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية,تقديم وتحقيق : محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي,الدار التونسية للنشر,1387ه-1968م, ص.101.الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية,ص.7**

([541]) درس عبد المؤمن بمسجد تلمسان , ومن مشيخته ابن صاحب الصلاة وعبد السلام البرنسي إمام عصره في علوم الفقه و الحديث و التفسير و الكلام.**عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.86**

([542])**إبن القطان:نظم الجمان, ص.77**

([543]) **لسان الدين بن الخطيب:الحلل الموشية ,ص.113-114, عبد الواحد المراكشي:المعجب, ص.269**

([544]) **ابن أبي دينار:المؤنس,ص.113**

([545])**عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق, ص.269**

([546]) **صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب,ص.80**

حال عبد المؤمن بن علي مع الموحدين(عصبيته الجديدة):

يمكن أن نقسّم حكم عبد المؤمن إلى مرحلتين: **مرحلة أولى** أظهر فيها أكثر المساهمة والمشاركة مع المصامدة[547] ثم **مرحلة ثانية** حاول الاستفراد بالملك دون الاستبداد المطلق على عصبيته التي أوصلته للحكم.

أ- **المرحـــــلة الأولـــــى: خفض الجناح وبسط نفوذ الدولة**

يمكن أن نسرد بعضا من الحقائق التي تبين أن عبد المؤمن كان من جهة ضعيفا أمام عصبية المصامدة ومن جهة ثانية كان محتاجا إليها لإتمام أمر شيخه المهدي ألا وهو إنشاء دولة قويّة[548] على مفهوم التوحيد التومرتي إن صحّ التعبير.

فرغم المكانة التي وصل إليها عبد المؤمن بين المصامدة من جرّاء تزكية المهدي له منذ الفترة الأولى للقائهما حيث كان يقول فيه:

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها * فكلنا بك مسرور ومغتبـــــط

السن ضاحكة والكف مانحـــــــــة *والنفس واسعة و الوجه منبسط

وكان يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاّب الدول, و كان يقول عبد المؤمن هذا من صدّيقي هذه الدائرةو قال لهم المهدي: (أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسوّمة) [549].

قلنا رغم تلك المرتبة التي تبوّأها عبد المؤمن بين ظهراني المصامدة إلاّ أنه و بعد وفاة المهدي وقع خلاف بين قبائل الموحدين حول من يتسلّم السلطة منهم, ومع أن الخلافة كانت من نصيبه إلاّ أنه لم يتمكّن من فرض سيطرته على المصامدة في بداية الأمر ودليل ذلك يمكن أن نحصره في حادثتين وهما:

-لما وفد إبراهيم أخو الخليفة عبد المؤمن ودخل في التوحيد, أغدق عليه الخليفة بالخيل و العبيد وانزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت- هو محمد بن أبي بكر بن تنجيت أو بن بيجيت وهو ابن أحد العشرة من أصحاب المهدي- فكان بين الرجلان شحناء أفضت غلى مقتل أخ عبد المؤمن, فأمر الخليفة بقتل القاتل إلاّ أن أصحاب المهدي ذكّروه بما قاله لهم المهدي: (أن أهل

---

(547) سلطاته في الفترة الأولى متوقّع ان لا تكون مطلقة فكان بقية أهل الجماعة وأهل الخمسين إلى جانبه لا يقطع رأيا إلاّ بمشورتهم,**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم ص.117.**

(548) **صالح بن قربة: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب,ص.59.**

(549) **الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.90.**

الجماعة و صبيانهم, عبيدهم كلّ من في الدنيا) فصمت الخليفة[550]. نلمس هنا عجز عبد المؤمن من الاقتصاص لأقرب الناس إليه وهو أخوه لأن عصبيته الجديدة أوصلته إلى الحكم ودونها فهو ضعيف كما وضّح ذلك ابن خلدون , وهو في حاجة إليها لإكمال تأسيس الدولة[551].

– الحادثة الثانية كانت لمّا فتحت مرّاكش سنة 541ه–1146م وهمّ أبو الحسن بن وكاك أو واجاج على قتل أمير المرابطين أبو إسحاق إبراهيم وكان صغير السّن,فقال له عبد المؤمن أترك هؤلاء الصبيان , فصاح عليه أبو الحسن : (ويوايوا الموحدين! ارتد علينا عبد المؤمن, يُريد أن يربّي علينا فراخ السبوعة ! فقام عبد المؤمن غضبانا وقُتِل الأمير[552], لقد رُفِض أمر عبد المؤمن أمام الملأ وهذا دليل على عدم استفراده بالسلطة بعد.

كان عبد المؤمن مدركا كل ذلك إلاّ أنه تحلّى بالصبر وضبط النفس وهو الغريب الذي ليس له قبيلة تحميه, كما أنه كان مدركا مدى أهمية هذه القبائل في حفظ الدعوة وبناء الدولة, خاصة أن عهده كثرت فيه الثورات التي اشتعلت في أرجاء المغرب ضدّ الموحدين[553].

عمد عبد المؤمن وهو موقن بكل ما ينتظره من مخاطر خارجية وداخلية إلى انتهاج منهج التروّي والصبر , مع إظهار خصال الحاكم العادل المجاهد الذي يحترم منهج شيخه المهدي .

– فلما بويع عبد المؤمن بعد ثلاثة سنوات من وفاة المهدي البيعة العامة سنة 526ه–1132م[554]باشر خلافته بما يقدّسه الناس في الحاكم تلك الأيام وهو الجهاد,حيث أنه تحرّك صوب تادلة فقتل وسبى, ثم بلاد درعة فاستولى عليها ثم بلاد غمارة فكان له نصيب منها, فأقبل عليه الناس يبايعونه[555].

واصل عبد المؤمن فتحه حتى تمكن من إسقاط الحكم المرابطي حيث فتح عاصمتهم مراكش سنة541ه–1146م[556], وقضى على الفتن التي كانت تقوّض دولته الفتيّة مثل قتاله لبرغواطة

([550]) **البيدق: أخبار المهدي,ص.55** , **عزّ الدّين عمر موسى:الموحدون في الغرب الإسلامي,ص.90** , يضيف **علي محمد محمد الصلاّبي أن** سبب النزاع هو جلوس أخ الخليفة في المكان المخصص له, فاعتبرها محمد بن أبي بكر بن بيكيت إهانة له. **دولة الموحدين,ص.100.**

([551]) لكنه سوف يعمد للتخلّص من ضغط الشيوخ إلى نزع مجلس العشرة و الخمسين بطريقة ذكيّة سوف نذكرها في حينها.

([552])**البيدق: أخبار المهدي,ص.65.**

([553]) **صالح بن قربة : عبد المؤمن,ص.59.**

([554])**الناصري:الاستقصاء, ج2,ص.92** ,

([555])نشير إلى أنه وقبل بيعته البيعة العامة سنة526ه–1132م وبعد وفاة المهدي رجع إلى تينملل وأخذ يتألف القلوب و يحسن إلى الناس,**ابن الأثير: الكامل في التاريخ,ج9,ص.201.**

([556])**ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب قسم الموحدين,ص.27, عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.310.**

وإخضاعهم, وقتاله للماسي وهو محمد بن هود السلاّوي[557], وفي نفس الوقت بعث جيشا لفتح الأندلس[558],وفي سنة 547ه-1133هبدأ حملته لفتح بجاية وكانت هذه **الحملة الأولى**,ومن المهمأن نشير هنا إلى أن عبد المؤمن استشار أهل الجماعة ومنهم أبو إبراهيم[559] وأبو حفص وغيرهم في غزو بجاية عاصمة الحمّاديين[560], وهذا دليل على عدم تفرّده بالأمر دونهم بل كان يجب عليه في هذه المرحلة أن يأخذ مباركتهم , وفي **الحملة الثانية** سنة 553ه-1158مفتح المهدية وما تبقى للصنهاجين من بلاد سنة555ه-1159م[561].

أما من الجانب العلمي والثقافي فكان عبد المؤمن من أكبر الحكام الذين أعطوه حقّه, وكان مفتاحه من اجل تثبيت الدولة و تدعيم ملكه[562].

- اهتم عبد المؤمن بالعلم وأهله واختار نخبة من الطلبة من أبناء مشايخ الموحدين واهتم بتدريسهم العلوم بمختلف أشكالها بالإضافة إلى الفروسية والرماية والسباحة وغيرها مما يحتاجه المقاتل في ذلك العصر[563].

-أما بالنسبة لطلبة العامة الذين هم معدومون من مصادر الرزق فقد شاور عبد المؤمن أشياخ الموحدين في إسلافهم المال ليقيم حاجاتهم فوافقوه على ذلك[564].

([557])الذي انعزل بماسة وادعى أنه الهادي و أخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة و رجراجة وقبائل تامسنا وهوارة, حتى بايعته جميع القبائل ولم يبقى تحت طاعة عبد المؤمن إلاّ مراكش, **عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.310-311**

([558])**الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.97-104,ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب قسم الموحدين,ص.30-34, عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ج6,ص.310-311**

([559])في الغالب هو أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجي (وهو إسماعيل بن يسلالي الهزرجي)

([560]) ينظر **ابن عذارى المراكشي,المصدر السابق, ص.45 ,عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.272 , البيدق,أخبار المهدي,ص.73 ,الناصري: المرجع السابق,ج2,ص.107, عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق,ج6,ص.315-316**

([561]) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ج.6,ص.317-318, الناصري:المصدر السابق,ج2,ص.124, اعبد الواحد المراكشي: المصدر السابق,ص.297-300, ابن أبي زرع:الأنيس ,ص.198,روبير برانشفيك:تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي, ص.32**

يقول **روبير برنشفيك** أن أكبر عنوان مجد بالنسبة إلى عبد المؤمن بن علي في نظر أبناء ملّته,هو استكمال تحرير إفريقية من الهيمنة النورمانية,**المرجع نفسه,ص**.33

([562]) حيث سوف نرى أن منهجه في تدريس الطلبة كان مفتاح نقل الحكم من الشورى غلى الوراثة.

([563])**لسان الدين بن الخطيب:الحلل ,ص.114 , إبن القطّان: نظم الجمان,ص:178-179**

([564])**إبن القطّان:نظم الجمان,ص.177** هناك نوعين من الطلبة طلبة الموحدين وطلبة العامة,**عبد الواحد المراكشي المعجب,ص.269**

ب -المرحـــــلة الثــــانية[565]:تغيير نظام الحكم آلياته ونتائجه

بعد أن أسّس له مجدا بين القبائل المصمودية ودخل قلوبهم بتحقيق هدف المهدي وهو نشر التوحيد في ربوع بلاد المغرب الإسلامي,قام عبد المؤمن بمجموعة من الإجراءاتمن أجل تحقيق هدفه الشخصي ألا وهو تغير نظام الحكم من شوري إلى وراثي, ويمكن أن نجمل أهم ما قام به في هذا الصدد كما يلي:

- لجأ إلى الحيلة وذلك بعد وفاة المهدي إثر البيعة الأولى حتى يكسب العامة حيث قام بترويض شبل أسد حتى أصبح أليفا, ودرّب عصفورا على نطق الجملة التالية:(النصر و التمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين سند المملكة وناصرها), ثم دعا الناس للاجتماع فنصحهم وحذّرهم من الفرقة, ثم أُطلق الشبل و العصفور فسار الأول بين الناس يُكشّر عن أنيابه فلما رأى عبد المؤمن جلس عنده يتمسّح به, أما الثاني فأفصح عن الجملة التي حفظها, فتعجّب الحضور وازدادوا بصيرة في عبد المؤمن[566].

- في سنة 528ه-1130م تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين وهو أوّل من اتخذ هذا اللقب من العجم وكان قبل ذلك خاصا بالعرب, لذلك ثار عليه أهل المغرب[567].

- من دون شكّ أن الغزوة الموحدية على إفريقية التي كانت على مرحلتين مكنتا من بسط السيطرة الموحدية على ما تبقى من بلاد المغرب الإسلامي, كما كان لهما الفضل في هزم ثلاثة عناصر

---

(565) سبق أن وضّحنا أن بعض الدول لا تنتظر حتى الجيل الثاني أو الطور الثالث ليظهر فيها ما يعرف بمسألة الاستظهار بغير العصبية وضربنا مثل بالدولة المرابطية واستظهار قائدها يوسف بن تاشفين بعنصر الأغزاز في جيشه, كذلك كان الحال بالنسبة للدولة الموحدية .

(566)أنظر الحكاية كاملة عند **ابن أبي زرع :الأنيس,ص.184-185**,كذلك **الاستقصاء,ج2,ص.92**

(567)**الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.98**, هذا الفعل وإن كان له أصل على عهد المهدي حيث قال للموحدين أنتم الموحدون وهذا أميركم كما سبق معنا, إلاّ أنه يعتبر بداية البوادر بمحاولة تركيز السلطة في شخصه بادي الأمر, فبهذه التسمية قد تحدّى الخلافة في بغداد كما انه تحدّى الأيوبيون في الشام, فكيف لا يكون تحدّياً لمصمودة نفسها من باب أولى.

مقاومة لهذا المدّ وهم: الحماديون. والنورمان والعرب(أو الأعراب) [568], وكذلك كان الشأن بالنسبة للأندلس[569].

من خلال بسط نفوذ الدولة الموحدية على هذه البلاد تمكّن عبد المؤمن من تعين أبنائه قادة للجيش ثم ولاّة على المدن المفتوحة, وكان هذا في حد ذاته اكتسابا للمجد يبقى في عقبه بالإضافة إلى استفراده التدريجي بالملك, ومن أجل ذلك عمد إلى أخذ البيعة لابنه الأكبر أبي عبد الله محمد وليّا للعهد كما عيّن أبنائه ولاّة على الأقاليم, فعين **أبي الحسن** على فاس وأعمالها واستوزر له **أبا الحجاج يوسف بن سليمان**, وعقد لابن **أبي حفص عمر** على تلمسان و أعمالها واستوزر له **أبا محمد عبد الحق بن وانودين** , **ولابنه أبي سعيد عثمان** على سبتة و طنجة واستوزر له **أبا محمد عبد الله بن سليمان و أبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي**, ولابنه **أبي محمد عبد الله** على بجاية وأعمالها واستوزر له **أبا سعيد يخلف بن الحسن**[570].وولّى على مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه **يوسف الذي كان له الأمر بعد أبيه**,وترك معه من الأشياخ و الموحدين يآزرونه في حكمه,وولّى غرناطة وأعمالها **ابنه عثمان يكنى**
أبا سعيد[571], وملأ ما ملكه من الأندلس رجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند[572].

- بطبيعة الحال لن يبقى المصامدة وخاصة قبيلة المهدي هرغة دون أن يحرّكوا ساكنا, ونحن نعلم أن بعد وفاة المهدي مباشرة حدث خلاف حول من يخلفه وفي الغالب كان تفكيرهم ينصب حول واحد من قبيلهم, وكان المرشّحون للمنصب كثيرون لكنه ولأسباب سبق ذكرها اختير عبد المؤمن.

([568]) الدولة الحمادية تحت إمَارة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي الذي كان ملكه في بجاية وكانت دولته تحتضر,في حين أن ابن عمّه آخر ملوك بني زيري الحسن بن علي فرّ من المهدية بعد أن تعرّض للغزو من قبل المسيحيين النورمان فاستقرّ في آخر المطاف ببجاية عند ابن عمّه يحيى المذكور, في حين كان ما تبقى من بلاد إفريقية بيد العرب(من بني سليم وبني هلال وغيرهم من القبائل التي دخلت بلاد المغرب بتحفيز من الفاطميين بعد أن سخطوا على بني زيري لاستقلالهم السياسي و العقدي عنهم) الذين أسّسوا لهم إمارات بها منذ بداية هرم الدولة بني زيري بن منّاد. **عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.214-227,الناصري:مرجع سابق,ج2,ص.120, ,روبير برانشفيك :تاريخ إفريقية في العهد الحفصي,31-32 , الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.116.**

([569]) شارك أبناء عبد المؤمن في فتح الأندلس وهم:أبو سعيد عثمان وأبي حفص وأبو يعقوب يوسف , **عبد الرحمن:المصدرسابق,ج6,ص.317,الناصري:المرجع السابق,ج2,ص.109,الصلاّبي:المرجع السابق,ص. 115**,الذي يزيد عنهم بذكر أخيهم أبي حفص ويجعله مرافقا لأبي سعيد

([570]) **عبد الرحمن بن خلدون,العبر,ج6,ص. 316 , الناصري:الإستقصاء,ج2,ص.109-110 , عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.293, البيدق :أخبار المهدي,ص.76- 77 , ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب,ص:50**

([571])الذي أجاز إلى الأندلس بأمر أبيه. **عبد الرحمن بن خلدون,العبر,ج6,ص.317**

([572])**عبد الواحد المراكشي,المصدر السابق, ص.293**

لكن حين قام عبد المؤمن **بعقد البيعة لابنه أبي عبد الله سنة** 548ه-1153م ظهرت بوادر الخلاف والحسد, فغضب أخوا المهدي عبد العزيز وعيسى من هذه البيعة من جهة[573], ولقتل صهرهما يصلاتن من جهة أخرى[574], فعزما الخروج عليه فلحقا بمراكش وحاولا الإطاحة بها فقتلا عاملها آنذاك أبي حفص عمر بن تافركين إلاّ أنهما لم يوّفقا وقبضا عليهما وقتلهما عبد المؤمن وصلبهما[575].

ثم كان لعبد المؤمن حادث آخر مع الموحدين أثناء حملته الثانية,حيث أجمع جماعة من الموحدين -ذكرهم صاحب المعجب بآيت أمغار أهل المهدي[576]- على قتل عبد المؤمن بسب تغريبهم في بلاد المشرق فتم إخباره من قبل شيخ من الموحدين هو إسماعيل بن يسلالن الهزرجي وطلب منه أن يسمح له بالمبيت في فراشه فداية له بنفسه , فكان ذلك وفي الصباح عثر على الشبيخ مقتولا فدفنه عبد المؤمن بنفسه[577].

كان لهذا الفعل نتيجة صارخة فيما يخص مستقبل الحكم في الدولة الموحدية,فبطبيعة الحال لم يقدم عبد المؤمن على هذا الفعل لو لم يكن جاهزا لعواقبه وهو الذي لمسنا في تصرّفاته الحكمة و التُؤدة ودراسة العواقب, فنجد أن المصامدة رهِبوه و أطاعوه ولم تتجدّد المحاولة على الأقل في المدى القريب.

- لم يقف عبد المؤمن إلى هذا الحدّ بل خطّط لمستقبل خلفائه من أبنائه فقام بعدّة إجراءات يمكن أن نجملها كالآتي:

---

(573)**ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب,ص.50.**

(574)حيث ذكر **ابن عذارى** أن عبد المؤمن منذ وفاة المهدي وهو يحسن لأهله منهم أخواه عيسى وعبد العزيز إلاّ أن صهرهما يصلاتن كان لا يزال بهما يغيّر لهما صدريهما , فلما أدرك خطره عبد المؤمن قتله.**المصدر نفسه,ص.47** , ينظر حول قتل بصلاسن كما سمّاه **البيدق:أخبار المهدي,ص.75-76.**

(575)**إبن القطّان:نظم الجمان,ص.123,عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.316, الناصري: الإستقصاء,ج2,ص.110-,111** هناك محاولتان من قبل أخوا المهدي وأشياعهما مناهل هرة وتين ملل التي باءت بالفشل ونتج عنها ترحيل أسرة المهدي (آيت أمغار) إلى فاس ثم كانت المحاولة الثانية التي قتل فيها الإخوان. **أنظر البيدق:أخبار المهدي,ص.76.**

(576)**عبد الواحد المراكشي, المعجب, ص.303.**

(577)**انظر,ابن أبي زرع: الأنيس,ص.199-200, الناصري:مرجع سابق,ج2,ص.125**,كلاهما يذكرون أن جماعة من الموحدين أرادوا قتل عبد المؤمن دون تحديد القبيلة,**أما عبد الواحد المراكشي**, فيذكر أن أصحاب المكيدة هم جماعة من قبيلة المهدي(آيت أمغار) وأنهم قُتلوا في مراكش,**المصدر السابق, ص.303-304**

تحالفه مع العرب :

في سنة 548ه-1153م أي بعد فتح بجاية وإسقاط الدولة الحمادية وأثناء مرور الجيش الموحدي بأراضي العرب[578] بمنطقة سطيف رجوعا إلى مراكش, تعرّض للهجوم من قبل القبائل العربية التي كانت ترى أن الموحدين سوف يجلونهم من أراضيهم,كان القتال عنيفا بينالطرفين وانهزم العرب وهزمهم عبد الله بن عبد المؤمن بعد أن وصله المدد من أبيه الذي كان في متّيجة, فقسم المال على العسكر وترك النساء والأطفال تحترعاية الخدم و الخصيان فوفّر لهم كل ما يحتاجونه وأمر عبد المؤمن أن يرسل إلى العرب بالدعوة إلى الحضور عنده ليستردّوا نساؤهم وأطفالهم , وكان ذلك فنزلوا عنده بمراكش فأكرمهم ورجعوا راضين عنه[579].

كان عبد المؤمن يرمي من هذا العمل إلى أمرين أساسين هما: الاستعانة بهم لفتح الأندلس, و**إلحاقهم بعصبيته** فيتقوى بهم على عصبية مصمودة وبالتالي يتمكن من أخذ البيعة لابنه[580]. وكان ذلك حيث أتاه وفد من إشبيلية وأنشدوه ما معناه رغبتهم في بيعة ابنه أبي عبد الله بن عبد المؤمن وكان هذا مراده[581] وهذا الذي أجّج نار الفتنة وكان سبب خروج أخوي المهدي كما أسلفنا.

([578])وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغبة وغيرهم من القبائل العربية .**ابن الأثير: الكامل في التاريخ,,ج9,ص.390 , الميلي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث, تقديم وتصحيح محمد الميلي, المؤسسة الوطنية للكتاب,ج2,ص.322** ,تجتمع جل هذه القبائل في منصور ابن عكرمة بن خصفة ين قيس عيلان بن مضر,**حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية,ص.307**

([579])**ابن الأثير:مصدر سابق,ج9,ص.390-391, عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.315- 316 , إبن عذارى المراكشي:البيان المغرب,ص.49, البيدق:أخبار المهدي,ص.80**

([580])نشير هنا إلى الاتفاق الذي كان بين عبد المؤمن وأبي حفص بأن ترجع إلى زعيم هنتاتة بعد موت عبد المؤمن حسب تعاليم الشورى إلاّ أن عبد المؤمن كان ينوي الاحتفاظ بها لذويه فعمد إلى جلب العرب وطلب منهم أن يطلبوا منه تولية العهد لابنه وكذلك فعل أهل إشبيلية ,ينظر **ابن الأثير:المصدر السابق,ج9,ص.407 ,كذلك جورج مارسييه: بلاد المغرب وعلاقته بالمشرق,ص.299,**

([581])**إبن عذارى المراكشي:المصدر السابق,ص.48, رسائل موحدية,ج2,ص.37**

كذلك بعد نجاح حملته الثانية لإخضاع أفريقية من سنة 553ه-1158مإلىسنة555ه-1160م أخذ من كل قبيلة من عرب[582] أفريقية ألفا وأدخلهم إلى المغرب بعيالهم[583].

استدعاء كومية للاستظهار بها:

بعد نجاته من القتل عمد عبد المؤمن إلى دعوة قبيلته كومية للاستظهار بها[584] وهو الغريب بين المصامدة ليس له قبيل يستند إليه[585], حيث أنه بعث لأعيانها خفية يستدعيهم إليه وبعث لهم بالمال والكساء فاجتمع له حوالي أربعين ألفا ,فلما وصلوا إلى وادي أم الربيع بالقرب من مراكش وضجّ الناس هلعوا منهم فبعث عبد المؤمن أبا حفص ليستطلع أمرهم كأنه يهمّه ما أهمّ الناس, فلماّ وصل إليهم أبو حفص سألهم (أسلم أنتم أم حرب؟) فأجابوه بالسلم وأنهم من قبيل عبد المؤمن جاؤوا للسلام عليه,فأذن لهم الخليفة و جعلهم بطانته[586].

بداية التأسيس لنظام الدولة على حساب القبيلة:

كان بتعين عبد المؤمن أولاده على الأقاليم وإحداث منصب ولي العهد بداية لاستفراده بالحكم إلاّ أنه ولحكمته وتدرّجه في الأمر عمد إلى تعين وزراء لهم من الموحدين كما سبق معنا ذكر ذلك.

ويذكر **ابن الأثير** مدى فطنة وحنكة عبد المؤمن السياسية,فقبل تعيين أبناءه بالشكل الذي ذكرناه تعذّر عليه عزل شيوخ الموحّدين من أصحاب المهدي الذين كانوا ولاة على الإقليم فأخذ

([582])استتبع عبد المؤمن العرب على شكلين :عرب سطيف والجزائر وهم الأثبج ورياح وكذلك عرب إفريقية وهم الذين أسسوا لهم إمارات بعد ضعف الدولة الزيرية,ومنهم أحمد بن خرسان بتونس سنة558ه-1163م,كذلك بنو الورد اللخميين ببنزرت ,وبنو علال من قيس عيلان كانت إمارتهم بشمال تونس, بالإضافة إلى إمارة بربرية أسسها حمو بن فلفل البرغواطي الخزروني بقابس بمعاونة زغبة ورياح. والملاحظ أن عرب إفريقية كانوا أكثر تحضرا من عرب المغرب الأوسط .**نورالهدىبوخالفة:عبد المؤمن بن علي رائد الوحدة المغاربية, مقالة من كتاب سلسلة إصدارات جمعية الموحدية(تاريخ ندرومة ونواحيها),جمع وإعداد عز الدين ميدون,ص.117**

([583])**إبن أبي دينار:المؤنس:ص.112** ,أضاف **ابن أبي زرع** أنهم عرب جشم, **الأنيس,ص.199**,يذكر القصّة **ابن الأثير** وهو يشبّه أحداثها بالمرّة الأولى التي غلب فيها عبد المؤمن العرب بمنطقة سطيف سنة 548ه كما مرّ معنا لكنه يذكر أن العرب في الحادثة الأولى هم عرب الأبثج وفي الثانية هم عرب رياح ,**المصدر السابق,ج9,ص.431-432**

([584]) لم يكن العامل السياسي هو الدافع الوحيد لاستدعاء كومية من قبل عبد المؤمن ربّما كان هو الرئيسي لكن كان هناك عامل آخر مهم وهو العامل الاقتصادي, فالقبيلة تقع في منطقة إستراتيجية ولها إطلالة على البحر عن طريق مينا هنين ,بالإضافة إلى خصوبة أراضيها وجودة جيادها.**بوبة مجاني: مكانة قبيلة كومية في الدولة المودية, مقالة من كتاب تارخندرومة ونواحيها(أعلام أقطاب وشخصيات), سلسلة إصدارات جمعية الموحدية, دار الكتاب العربي,ص.72-80**

([585]), **حسن علي حسن:حضارة الإسلام في المغرب والأندلس,ص.67**

([586]) **إبن أبي زرع: مصدر سابق,ص.201-202, الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.127,**

أبناءهم وتركهم عنده يشتغلون بالعلوم فعُرفوا بالحفاظ أو صغار الطلبة[587], وبعد ما بلغوا مرادهم من العلم والتكوين الإداري عرض على أبائهم التنّحي لأن مقامهم أسمى من أن يُستعملوا وترك المجال لأبنائهم,ففرحوا وقبلوا ثم ما لبث أنبعث لهم من يلومهم على تقديم أبنائهم على أبناء الخليفة فرجعوا إلى عبد المؤمن يطلبون منه عزل أبنائهم وتعيين أبنائه[588].

ثم هناك أمر آخر تنبّه له عبد المؤمن وهو قوّة شيوخ الموحدين الممثلين أساسا في جاعة العشرة و جماعة الخمسين, ولكي يقلّ من ضغط هاتين الطبقتين قام بإدماجهما في طبقة واحدة عرفت بطبقة الشيوخ فأهمل التنظيم وحافظ على أفراده لمنعهم من التكتّل[589].

وبفعله ذاك تمكّن عبد المؤمن من حفظ الخلافة في عقبه من جهة ومن جهة أخرى تمكّن من تأسيس قوي للدولة الموحدية بعيدة عن النظام القبلي بمفهومه الضيّق,وكان ذلك انطلاق من تأسيس مدرسة لتخريج رجال الدولة وموظفي الحكومة و قادة الجيش[590].

مظاهر المشاركة بعد التمكين:

كنا ذكرنا مراحل حكم عبد المؤمن وحصرناهما في مرحلتين: **مرحلة أولى** أظهر فيها أكثر المساهمة والمشاركة مع المصامدة ثم **مرحلة ثانية** حاول الاستفراد بالملك دون الاستبداد المطلق على عصبيته التي أوصلته للحكم, واستعمالنا للعبارة الأخيرة(**دون الاستبداد المطلق على عصبيته التي أوصلته للحكم**)تلزمنا أن نجمل توضيح مفهومها في النقاط التالية:

رغم أن عبد المؤمن قلب نظام الحكم إلى نظام وراثي وجعله في عقبه إلاّ أنه لم يستبدّ به بل كان يشارك أشياخ الموحدين الأمر, ومن ذلك حين عمد على خلع ولي عهده محمد أكبر أبنائه

([587]) لم تقتصر هذه الفئة إلاّ على طلبة الموحدين بل تعدتها إلى العامة, حول تكوين هؤلاء الطلبة **أنظر الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.120,عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص. 99**

([588]), **الكامل في التاريخ,ج9,ص.408**, لكن نحن نرى أن إدماج أبناء عبد المؤمن في الأمر كان منذ تعينهم على الجيوش الفاتحة فاكتسبوا المجد بذلك

([589])**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص. 90-91**, وانتقل العدد من ثلاثة عشرة طبقة إلى ثلاثة طبقات(الطبقة الأولى هم السابقون الأولون الذين كانوا مع المهدي منذ بداية دعوته,الطبقة الثاني من التحق بالموحدين من معركة البحيرة 524ه-1130م إلى فتح وهران 538ه-1143م,الطبقة الثالثة كل من دخل بعد فتح وهران , وهذا التقسيم يلمّح إلى التخفيف من سيطرة الشيوخ فمعظم السابقين ماتوا,بالإضافة إلى إدخال عناصر جديدة لم تتح لها الفرصة قبل ذلك ومساواتها مع العناصر القديمة وبالتالي يضمن ولاءهم, **الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.125-127**

([590]) **الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.120**

واستخلفه بابنه أبو يعقوب يوسف, كان خلعه بسبب قلّة دينه سنة 558ه–1163م[591], وبالتالي كان لهؤلاء الأشياخ رغم التخفيف من قوّتهم المكانة العالية في الدولة الموحدية, فكانوا يباركون الخليفة الجديد ويستشيرهم في أمر الدولة ويتحملون وصايتهم بشيء من الخضوع[592].

- كذلك من علامات خفض الجناح لهم ومشاركته لهم في أمر الدولة ما قام به بمنحهم الوظائف الهامة في الدولة ما عدا تلك التي أولاها لأبنائه, فكانوا قادة عسكريين كعمر الصنهاجي وعمر الهنتاتي, ويوسف بن سليمان ويوسف بن وانودين, وابن زجو وابن يومور ويخلف, ومنهم الولاّة على من فتح من المناطق كسليمان بن وانودين و يوسف بن مخلوف وعبد الواحد المراكشي, وكان يستخلف موسى بن سليمان على تينملل[593].

- إن المكانة التي كانت لأبي حفص عمر الهنتاتي أبرز دليل على بقاء المساهمة والمشاركة بين عبد المؤمن وعصبية مصمودة, وعدم استفراد الخليفة بالأمر كلية وهذه من الحكمة الموجبة لبقاء الملك في العقب حيث أن دور هذا الشيخ كان كبيرا حين عيّن عبد المؤمن خليفة للمهدي على الموحدّين, وكذلك كان نفس الدور في تزكية[594] أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن خليفة خلفا لأبيه[595].

يمكن أن نستنتج:

– القيمة الكبيرة التي كان يتمتع بها أبو حفص عمر الهنتاتي كونه زعيم أكبر قبائل المصامدة وأقواهم, وكذلك أشياخ الموحدين الذين كانوا عماد الدولة و لا يستقيم أمر الملك من دونهم على الأقل في المرحلة الأولى للدولة.

– كان الحكم على عهد عبد المؤمن يعتمد على المشاورة والتواضع للعصبية المصمودية خاصة القبائل التي مهّدت الملك, وكان لأصحاب المهدي شأن كبير في الأمور الحساسة ومباركتهم مطلوبة .

([591]) **ابن صاحب الصلاة :المن بالإمامة,ص.150و154–155,ابن أبي زرع:الأنيس,ص.558, ابن الأثير:الكامل في التاريخ,ج9,ص.461.**

([592]) **جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق,ص.301**, سبق معنا ذكر تعين مستشار من الشيوخ لكل والي من أبنائه

([593]) **عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم, ص. 90,**

([594])حيث أن أبا حفص امتنع عن مبايعته حتى يختبر أمر هو قال (لا أبايعه حتى يظهر منه من الخصال الحميدة ما يستوجب به المبايعة) وبقي على ذلك خمسة سنين إلى سنة 563ه–1168م,**ابن القنفذ القسنطيني: الفارسية في مبدأ الدولة الحفصية,ص.102**

([595])**ابن صاحب الصلاة :المن بالإمامة,ص.164**, يقول **عبد الرحمن بن خلدون**:(لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبو حفص لأخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة, ورضا من الشيخ أبي حفص خاصة).**العبر,ج6,ص.319** فنجده وضع رضا الموحدين في كفّة و رضا أبي حفص الهنتاتي في كفة ثانية, لعظم مكانته ومكانة عصبيته هنتاتة في الدولة الموحدية.

–كانت الدولة في بدايتها تلزم الحاكم بالخلال الحميدة و الأخلاق ما يستوجب المبايعة, فنجد أن عبد المؤمن حلّ بيعة ابنه الأكبر محمد بسبب فسقه.

– اعتقاد عبد المؤمن بقداسة دعوة المهدي واحترام مبادئ الموحدين[596] بحيث أنه قبل بمقتل أخيه بمجرّد أن ذكّره الشيوخ بقول المهدي, وكان يتّسم بالقسوة مع الذين لا يحترمون مبادئ التوحيد ولو كانوا من عشيرته,فمثلا لما اجتمعت عليه قرابته من كومية وزناتة عرض عليهم التوحيد فقبلوه ,ولكن كان منهم من كان ينافقه فلما علم بهم ميّزهم وأطاح عشرة رؤوس من شيوخ هذه القبائل[597].

رابعا– مظاهر العلاقة بين عصبية مصمودة والعصبيات الأخرى:

في الجانب النظري من المبحث الثاني بيّنا مستويات نشوء الدولة وفق المفهوم الخلدوني وخلصنا أن هذه الدولة مرتبطة في نشوئها بثلاثة أسس مهمة وهي: الحاكم – العصبية الغالبة– العصبيات (المهزومة أو التابعة للدولة الناشئة), وأثناء تحليلنا للأساس الأول أي الحاكم والذي فسره الجابري بتطور حسب الملك نزولا ومن ثم تتطور العلاقة بين الحاكم وأهل عصبيته على نفس المنوال, ألقينا الضوء على حالة حاكم الدولة الموحدية في بداية تأسيسها فكانت دراستنا لشخصيتي المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي, فحاولنا أن تكون الدراسة باحثة في مدى صحّة التحليل الخلدوني لهذا المستوى من النشأة.

ثم الآن نحاول أن نلقي نظرة على المستويين الأخيرين بمعنى البحث في العصبية الغالبة أو المؤسسة للدولة وتفاعلها مع العصبيات الأخرى.

العصبية المصمودية:

عُرفوا بالاستقرار واتخذوا المعاقل والحصون وشيّدوا المباني وامتهنوا الزراعة و الفلاحة[598].

([596])كان عبد المؤمن حريصا على تطبيق مبادئ الدعوة الموحدية في المجالين الديني و الاجتماعي بأمانة وإخلاص, وكان المهدي صادقا حين استبشر فيه خيرا وعول عليه في إقامة الدولة.**عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي,ط2 أجزاء:1–3 ,ص.104.**

([597]) **عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.123–124**

([598])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.298–300, حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية..,ص.301.**

عرف المصامدة بالعنف والبطش وعدم الاستقامة على طاعة, وكانوا يغيرون على بعضهم فيغنمون ويقتلون ويسبون, حتى أن حكيم الإسكندر حذّره من تلك البلاد وقد طكرنا هذا في محلّه[599].

تميزت مواقعهم بالصعوبة ووعورة المسالك حيث اتخذ المهدي تينملل مقر لدولته قبل فتح مراكش لهذا الغرض[600].

تأسست لهم دول قبل ذلك في برغواطة وغمارة وكان غالبية أصحابها متنبئون, وكانت الخوارج تقصد بلادهم للمنعة[601].

العلاقة بين الحاكم وعصبيته:

جاء المهدي بمشروح إصلاحي كبير إلى بلاد المغرب في فترة كان المرابطون في أهون حالاتهم خاصة فيما يرتبط بجانب الأخلاق[602], وربّما المتميّز في مرحلة الدعوة لديه هو المسح الجغرافي الذي حظيت به فنجد أنه بدا دعوته من الإسكندرية بمصر ثم تونس إلى قسنطينة إلى بجاية ثم تلمسان مرورا بملالة ثم فاس ثم مكناسإلى سلا ووصولا إلى عاصمة المرابطين مراكش ثم إلى أغمات هيلانة ثم أغمانة وريكة[603]ثم مسفيوة ثم هنتاتة إلى تينملل إلى إيجلي أو رباط إجليز بالقرب من موطنه هرغة,إلاّ انه وبعد استقراره ثلاثة سنوات ولقّب المهدي بدل لقب الإمام خرج منها استقر في الأخير بتينملل[604]تحقيقا لما وجده في كتاب الجفر أن دعوته تقوم من مكان تهجئته ت.ي.ن.م.ل.ل, إلاّ أننا قلنا لموقعها الجغرافي ووعورة مسالكها ونظيف لقربها من العاصمة مقارنة من هرغة.

كان لهذه الرحلة الدعوية إن صحّ التعبير دور كبير في التعريف بهذا الفقيه ودعوته مما أتاح للكثير من القبائل الدخول في دعوته من طواعية أنفسهم[605], وعلى هذا الأساس كانت القبائل

([599])**المراكشي:المعجب ,ص:259**

([600])**ابن عذارى: البيان المغرب, ص.10**

([601]) **عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.281,**

([602])حيث يذكر **ابن الأثير** أن المهدي لماّ دخل مراكش رأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريق هفزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.**الكامل,ج9,ص.196**

([603])**البيدق: الأخبار المهدي,ص.11-31**

([604])**الناصري:الاستقصاء,ج.2,ص.77-78 ,رشيد بوروبة:ابن تومرت,ص.58-62**

([605]) استغرقت رحلة الرجوع حوالي أربعة سنوات وكان خلالها يتوقف في المدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم, والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر, ويتحمل المشاق ويشكل خلايا تابعة له في تلك المدن.**علي محمد الصلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين لافي الشمال الأفريقي, دار المعرفة,بيروت لبنان,ط3 1430ه-2009م ص.264**

الداخلة في التوحيد _ وهو المصطلح المعروف في ذلك الوقت_ من المصامدة ومن غير المصامدة.

نلاحظ أن أصحابه العشرة كانوا في غالبيتهم من غير المصامدة فقد التقى بهم في طريقه إلى المغرب الأقصى فقبلوا دعوته واتّبعوه أمثال, الونشريسي أبو محمد عبد البشير الذي كان له دور كبير في تأسيس الدولة حتى انه كان الرجل الثاني بعد المهدي, وعبد المؤمن بن علي الكومي الذي لم يرقى إلى المكانة الثانية بعد المهدي إلاّ بعد مقتل الونشريسي في معركة البحيرة 524ه-1130م, , ابن ملوية عبد الله بن يعلى الزناتي, وعمر أصناك وهو عمر بن يعلى الصنهاجي, عبد الله الشرقي[606].

- لقد مرّ معنا أن المصامدة أطاعوا المهدي طاعة عمياء حتى لو أمر أحدهم بقتل أقرب الناس إليه لفعل[607], وبين ابن أبي زرع أن المصامدة كانوا جهلة فاستهواهم بكيده وعذوبة لسانهحتى كانوا لا يذكرون غيره ولا يمتثلون أمرا إلاّ أمره, يستغيثون به ويتبرّكون بذكر اسمه ودخل الناس في طاعته أفواجا[608].

- التقسيم الذي اعتمده المهدي بحد ذاته يوحي لنا على مدى ارتباطه بعصبيّته لكنه في نفس الوقت ينبّهنا أن المهدي كان يؤمن بمبدأ الدولة الديني على مبدئها السياسي, فهو بالرغم من كونه يسعى إلى تأسيس دولة خاصة بالموحدين حتى ولو استلزم ذلك القتل الجماعي للناس[609], إلاّ أنه قدّم جماعة العشرة وفيها مجموعة كبيرة من غير المصامدة كما نجد تمثيل المصامدة كبير في هذا التقسيم, وعليه فالمهدي من جهة أراد أن يعطي المصامدة حقهم في الدولة التي يعزم على إقامتها فهم الذين آووه ونصروه هذا من جهة ومن جهة أخرى يريد أن يستبدل العصبية للقبيلة بالعصبية للدعوة الدينية والتي هي في هذه الحالة التوحيد[610].

- عدم تقديم شيوخ قبيلة هرغة وأهل بيته للحكم لأبرز دليل على سيطرة المصلحة العامة على المصلحة الشخصية أو الضيّقة عند ابن تومرت, لان هدفه كان تأسيس دولة على مبدأ ديني

---

(606)أنظر عن هؤلاء:**ابن القطّان: نظم الجمان :ص.125-128, البيدق:المصدر السابق:ص.34-35,لسان الدّين بن الخطيب: الحلل الموشية:ص.78-79,عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.420,ابن ابي دينار:المؤنس,ص.108.**

(607)**المراكشي:المعجب,ص.259.**

(608)**إبن أبي زرع:الأنيس المطرب,ص.177.**

(609) ولعل عملية التميز التي قام بها لأبرز دليل على ما نقول

(610) مثلا انظر جدول تقسيم جماعة الخمسين عند **رشيد بورويبة:ابن تومرت,ص.93,كذلك عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم, ص.75.**

إصلاحي, و لم يكن ينظر للإمامة من جانبها النظري بل كان يربطها بالجانب العملي بمعنى وجوب تفرّد الإمام بالسلطة[611].

- بالنسبة لعبد المؤمن بن علي فنجد انه كان متّبعا لمبدأ شيخه خاصة في المرحلة الأولى من حكمه, حيث اظهر أكثر المشاركة والمساهمة مع أهل عصبيّته (ليست عصبية النسب إنما معنى العصبية) كاستشارته لأهل الجماعة في غزواته[612], بالإضافة إلى تعيين الموحدين من الأشياخ وأبنائهم على البلاد المفتوحة, صبره على مقتل أخيه من قبل رجل من جماعة العشرة,إلى غير ذلك من الضغوط التي كانت تقع عليه بعد وفاة المهدي.

- ومن بين مظاهر المساهمة بين عبد المؤمن وعصبيته هو ذلك النظام المحكم أثناء استعراض الجيوش حيث تمر كل قبيلة بأعيانها وتكون الأسبقية للقبائل التي ساندت المهدي في دعوته[613].

- إلاّ أن هذه المساهمة سوف تقل حدّتها بعد إعلان عبد المؤمن الوراثة في بيته, فنجد يقتل جماعة من أهل تينملل وهرغة وهما أهم قبيلتين من المصامدة آزرتا دعوة المهدي, كما قام بعزل أشياخ الموحدين من السلطة تدريجيا, بالإضافة إلى تغير نظام الطبقات عند الموحدين ,بحيث أسقط الطبقات الثلاثة عشر للموحدين وأحدث ثلاثة طبقات, كما قام بإدماج قبائل غير مصمودية فأصبح لها نفس مستوى القبائل المصمودية[614].

- لكنه ومع ذلك أحدث طبقة خاصة بأشياخ الموحدين وكان لها الشأن العظيم في دولته, كما بقي لشيوخ الموحدين مرتبتهم العالية في الدولة وأبو حفص بن عمر الهنتاتي لأبرز دليل على ذلك.

العلاقة بين مصمودة والقبائل التابعة للحكم:

- كان الشرط الأساسي للأمان هو الدخول في الدعوة الموحدية وأهم بنودها التوحيد على فهم المهدي[615], فمن قبل ذلك أصبح جزء من الدولة, وكان هذا جليا على عهد المهدي بحيث من دخل في التوحيد أصبح موحدا.

([611])علي الإدريسي: الإمامة عند ابن تومرت دراسة مقارنة مع الإمامة الإثني عشرية,تقديم أبو عمران الشيخ,ديوان المطبوعات الجامعية,بن عكنون الجزائر,ص.136

([612])إبن عذارى المراكشي:البيان المغرب,ص.45, عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.275, البيدق, أخبار المهدي,ص.70,إبن خلدون, العبر,ج6,ص.315–316

([613]) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس, ص:423

([614])علي محمد محمد الصلابي:دولة الموحدين,ص.125–127

([615]) الإديولوجية التي دعا إليها الموحدون هي إديولوجية توحيدية وهي من وضع ابن تومرت وتطبيق عبد المؤمن وأتباعه. **عبادة عبد اللطيف:الفكر السياسي في ندرومة في العهدين الموحديوالزياني عند عبد المؤمن بن علي وأبي حمو موسى الزيانيوإشعاعه,سلسلة إصدارات جمعية الموحدية(تاريخ ندرومة ونواحيها), جمع وإعداد عز الدين ميدون:ص.57**

إلاّ أنه وفي الغالب كان الأمر في يد مصمودة وكانت القبائل الأخرى تدخل في الطاعة لسببين ,إمّا إيمانا بالدعوة أو خوفا من القتل.

أما على عهد عبد المؤمن نجد أن الأمور تغيرت خاصة بعد فتح المغربين الأوسط والأدنى والأندلس, فدخلت قبائل غير مصمودية تحت دعوة الموحدين فكان عبد المؤمن يكرمهم ويقرّبهم إليه وما كان له مع قبائل العرب لأبرز دليل إذا ما استبعدنا هدفه الخَفِيّ, حيث أن هذه القبائل حظيت بالمكانة الرفيعة في الدولة وكان لها الدور الفعّال في حروب الموحدين في الأندلس.

وكان بانتساب عبد المؤمن للنسب العربي دور كبير في دخول هذه القبائل تحت طاعته بعامل الحمية أحيانا والمصلحة أحيانا أخرى, حيث كانوا يحصلون على الأموال جرّاء مشاركتهم في الحروب[616].وكانوا يعودون بالنفع على الدولة ولكن كان لهم بعض الضرر خاصة في آخر الدولة.

- كنا أشرنا إلى التقسيم القبلي الجديد الذي أحدثه عبد المؤمن من اجل الحد من قوّة ونفوذ المصامدة على الدولة, وبيّنا دور الكبير في دخول عناصر جديدة الدولة الموحدية بحيث أصبحت تتمتع بالمزايا نفسها مع قبائل المصامدة, وهذا ماسوفيحفّزهم للولاءإلى الدولة والخضوع لهامع الإسهام في قوّتها[617].

- وقد شجع المفهوم الجديد الذي جاء به عبد المؤمن للتوحيد,بحيث أصبح سِيَاسِيَّة الدّلالة أكثر من كونه عقديا,فالتابع لسلطة الدولة موحد والمخالف لها مارق[618], وهذا الاتجاه سوف يضعف قوّة المصامدة ويعطي للبيت المومني عصبية جديدة ترتكز عليها.

- كان عبد المؤمن بن علي يستقبل الوفود ويجبر المظلوم ولعلّ غزواته المتكررة في المغرب والأندلس لأبرز دليل,فبلاد المغرب كثر فيها الهرج مع ضعف العصبية الصنهاجية وتكالب النصارى على مدنها الساحلية[619], كذلك الأندلس الذي كان يعاني من حروب تشبه حروب الاسترداد[620] وقد وفد عليه علماء إشبيلية ومنهم ابن العربي على سبيل المثال يستنجدونه.وكان يجلّ العلماء والشعراء ويغدق عليهم من الخيرات,ويعفوا عنهم إذا زلّوا وموقفه مع القاضي عياض السبتي لأبرز دليل[621].

---

(616) **حسن علي حسن:الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس, ص.312-313**

(617) **الصلابي : تاريخ دولتي الموحدين والمرابطين,ص.342-343**

(618)**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,,ص.104**

(619) حول فتح المهدية وإجلاء النصارى منها انظر, **عبد الواحد المراكشي: المعجب,ص.298-300**

(620)**عبد الواحد المراكشي: نفسه,ص.177-181**

(621) حول ما كان من القاضي عياض أنظر, **ابن أبي الزرع:الاستقصاء,ج:2,ص.93-94**

العامل الاقتصادي وارتباطه بسياسة الدولة:

- أخذ المهدي على نفسه إتباع الشرع وأنكر على المرابطين مخالفته ومن ذلك إنكاره للمداخيل الغير الشرعية لبيت المال, ونقصد بذلك المغارم و المكوس والسحت و الحرام[622], وكذلك فعل تلميذه عبد المؤمن وتمسّك بتعاليمه ونستشفّ ذلك من خلال قوله:(ولقد ذُكِر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات[623] وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكا) [624], كما انه نهى على التحرّش بالتجار وقطع الطريق عليهم باسم المخزن وحق الله[625].

إذن ألغى كل المداخيل الغير شرعية في الدولة وبذلك فتح الباب أمام التجارة وكل أنواع الحرف, واعتمد على الموارد الشرعية من زكاة وعشور وأخماس المعادن وغنائم الحروب,أما الجزية فلم تعتمد في دولته لأن الموحدين كانوا لا يقيمون ذمّة لأحد في دينهم[626] , ومعنى ذلك إما الإسلام أو القتل.

- لكن ومع توسّع الدولة واتساع رقعتها كان من اللازم إيجاد مداخيل إضافية تتماشى ومبدأ الدولة الديني, فكان إحداث الخراج[627], حيث أمر بتكسير(تقسيم) بلاد إفريقية والمغرب من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا ,فأسقط من هذا التقسيم الثلث فيما لا يدخل تحت ملكيات القبائل,وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق[628], فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب[629].

---

(622)**المهدي بن تومرت :أعز ما يطلب,ص.161, رسائل موحدية ,ج1,ص.47**

(623)ضريبة ألغاها عبد المؤمن, **رسائل موحدية,ج1 ,ص.64**

(624)**رسائل موحدية,ج1 ,ص.64**

(625)**المرجع نفسه ,ص.66**

(626)**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,,,ص:280**

(627)**عزّ الدّين عمر موسى:نفسه,ص.284**

(628)ألزمت كل ناحية قسطها وقد أدّى ذلك إلى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائل(ما عدا المصامدة الذين أعفوا عنها),**عبد الحميد حاجيات: عبد المؤمن الكومي,شخصيته ودوره في تأسيس دولة الموحدين, مقالة من كتاب تارخندرومة ونواحيها(أعلام أقطاب وشخصيات), سلسلة إصدارات جمعية الموحدية, دار الكتاب العربي,ص.229**

(629)**إبن أبي الزرع:الأنيس,ص.198-199**

هذه السياسة لهاعدّة فوائد منها:

- إدخال مصدر دائم لبيت المال فكل قبيلة على حسب مساحة الأرض التي تتوفّر عليها, وكذلك المحصول المجنيّ في ذلك الموسم, فتضمن الدولة موردا دائما لبيت مالها وتوطّد العلاقة مع رعيّتها.

- السياسة العادلة التي اتبعها سوف تدفع القبائل إلى الطاعة أمام عدل هذا الأمير وهذا ما سوف يرجع على الدولة بالاستقرار ومن ثمّ فتح المجال أما البناء والتشييد

الفصل الثالث

دعوة المهدي بن تومرت أساس للدولة قبل عصبيتها

أولا: الدعوة الدينية أساس نشوء الدولة الموحدية

ثانيا: أسس وخطوات التغيير في دعوة المهدي بن تومرت

تمهيد:

ظهرت دعوة المهدي بن تومرت في بدايتها كحركة إصلاحية تتلاءم مع الواقع الذي كان يعيشه المغرب الإسلامي من تشتّت وضياع, حيث كانت الدولة المرابطية في مرحلتها الأخيرة وهو ما عرّفه ابن خلدون بطور الهرم والاضمحلال فبلغ فيهم الترف غايته بما تفنّنوه من النعيم ورغد العيش, وتسلّطت نساؤهم على زمام الأمور كما أصبح للفقهاء المكانة العالية في الدولة ولم يكن هذا العيب فيهم, وإنّما عيبهم هو تزمّتهم وولوجهم في أمور السياسة دون أن يكون لهم باع فيها فأفسدوا أكثر مما أصلحوا, كما أنهم لم ينكروا المنكرات التي كانت تحدث آخر الدولة ربما كان ذلك نتيجة دخولهم مجال السياسة والملك فزهدوا في التنازل عن نعيمها بعدما ذاقوه, وهذا الحال نفسه عاشه الشِقُّ الشرقي من المغرب الإسلامي حيث كانت البلاد هناك تحت حكم الحمّاديين وما تبقى من الزيريين وإمارات عربية تأسست نتيجة ضعف الصنهاجيين وتكالب النصارى على سواحل دولتهم[630].

حالٌ كهذا ينتج عنه لا محالة اشمئزاز في النفوس الأبيّة التي يمكن أن تدفعها جملة من الدوافع سياسية كانت أم اجتماعية أم دينية لتغيير حالها إلى الأفضل, ومن هذا المنطلق خرج محمد بن تومرت الهرغي كداعية في بداية الأمر متسلّحا بسلاح العلم ومنتهجا منهجاالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وجد المهدي نفسه محاط بنوعين من الناس, فئة العامة التي هي قسمين أهل البادية وهم في غالبيتهم جاهلون بأمر دينهم لكنهم ذو فطرة سليمة توّاقة إلى الخير, أما أهل المدن فكان معظمهم ساقط في الفتن والمنكرات والملذّات من جملة النساء و الولدان كما شبّههم عبد الرحمان بن خلدون, أما النوع الثاني هم فئة العلماء الذين كانوا العدوّ الأول لابن تومرت, وهم كذلك لم يكونوا في تلك الفترة على بيّنة من أمرهم فسكتوا على المنكرات وآثروا نعيم البلاطات.

وبالتالي كان لازما على ابن تومرت أن يبيّن خطأ الفئة الثانية ويستميل الفئة الأولى لتحقيق ما يصبو إليه وهو التأسيس لدولة قائمة على التوحيد.

([630]) ينظر حول أحوال المغرب في نهاية دولة المرابطين,**عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت (الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري),سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير(2), المعهد العالمي للفكر الإسلامي,هيريندن فرجينيا الولايات المتحدة,ط2 1415ه–1995م,ص.48 وما بعدها**

أولا : الدعوة الدينية[631] أساس نشوء الدولة الموحدية:

لعلّ من أهم ميزات عبد الرحمن بن خلدون هو تناسق كتابته في المقدّمة وكأنك تتابع تجربة في مجال العلوم الوضعية التجريبية ونلمس ذلك من خلال مقدمته, فنجدها في تناسق عجيب ومنطقي فإذا عالج ظاهرة من الظواهر فإنه لا يهمل ذكر الاستثناءات فيها, ومن ذلك قضية قيام الدول على أساس الدّين فإنه يتم في بعض الحالات مخالفا لشرط القوّة والغلبة نتيجة لدخول عامل جديد رفع عصبية ما إلى مستوى القوّة التي لم تكن لتبلغها بدونه, ومكّنها من المطالبة بالحكم والملك.

نجد أن عبد الرحمن في هذه المسألة عالج مجموعة من المسائل تصبّ في نفس المفهوم ألا وهو قيام الدولة على مبدأ الدّين.

وإليكم الفصول التي تبحث هذا الموضوع:

<u>الباب الثاني</u>: (في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال)

الفصل الثاني: في أن جيل العرب في الخلقة طبيعيّ.

الفصل الرابع: في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر.

الفصل الخامس: في أن أهل البدو أقرب إلى الشّجاعة من أهل الحضر[632].

<u>الباب الثالث</u>:(في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال):

الفصل الرابع: في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدّين إمّا من نبوّة أو دعوة حق[633].

الفصل الخامس: في أنّ الدعوة الدينية تزيد الدّولة في أصلها قوّة على قوة العصبية التي كانت من عددها[634].

الفصل السّادس: في أن الدعوة الدينية من غير العصبية لا تتم[635].

([631]) يحدّدها ابن خلدون بالنبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدّين ,**المقدمة,ص.160**.

([632])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.130-134**

([633])**عبدالرحمن بن خلدون:نفسه,ص.166**

([634])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.167**

([635])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.168**

1-أصناف البدو ومكانة المصامدة فيهم:

- **أصنافهم:**

بداية يتحدّث عبد الرحمن عن نوع من الخليقة وهم البدو, وقد قسّمهم إلى ثلاثة أصناف[636]فقال﴿ أهل **البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلَح والقيام على الأنعام**, وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد﴾, ثم بدأ في التفصيل في درجاتهم من البداوة فقال﴿ فمن كان معاشه منهم في الزّراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظّعن[637], وهؤلاء هم سكان المدر والقرى والجبال, وهم عامة البربر والأعاجم﴾, فهؤلاء صنف يعتمد أكثر على الاستقرار , ﴿ومن كان معاشه من السّائمة مثل الغنم و البقر فهم ظُعُنٌ في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم, فالتقلّب في الأرض أصلح بهم, ويسمّون :شاوية, ومعناه: القائمون على الشاء والبقر, ولا يُبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيّبة,وهؤلاء مثل البربر و التُّرك وإخوانهم من التركمان والصقالبة﴾ وهذا الصنف الثاني يعتمد على التنقّل لرعي ماشيتهم من الغنم والبقر,﴿وأمّا من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظَعْنًا وابعد في القفر مجالا ﴾ لأن طبيعة معيشتهم تعتمد على الإبل , والإبل لا تستغني عن ﴿مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه المِلْحَة وجد التَقَلُّبِ فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفائة هوائه طلبا لماخض النتاج في رماله,إذ الإبل أصعب الحيوانات فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدِّفَائَة فاضطرُّوا إلى إبعاد النّجعة, وربّما ذادتهم الحامية عن التلول أيضا, فأوغلوا في القفار نُفرةٌ عن الضَّعَة منهم, فكانوا لذلك أشدُّ الناس توحُّشّا, وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه و المفترس من الحيوان العجم, وهؤلاء هم العرب, وفي معناهم ظُعُون البربر وزناتة بالمغرب و الأكراد والتُّركمان والتُّرك بالمشرق, إلاّ أن العرب أبعد نُجعة وأشدّ بداوة لأنهم مختصّون بالقيام على الإبل فقط﴾.

إذن نستنتج أن أهل البدو ينقسمون إلى ثلاثة أصناف وهذه الأصناف تُحدّد وفق نِحلة المعاش التي يعتمدها كل صنف منها وكذلك مدى الاستقرار الحاصل لكل صنف وفق ذلك, وبالتالي هذه الصفة هي ليست قارّة فيهم ملتصقة بعرقهم وإنّما هي من قبيل **الطبع** كما تقدّم معنا, ويمكن لها أن تتغيّر بفعل الحضارة.

---

(636) **عبد الرحمن بن خلدون: نفسه,ص.130,**

(637)ظَعَنَ يَظْعَنُ ظَعْنًا وظَعَنًا, بالتحريك, وظُعُونًا: ذهب وسار, والظَّعْنُ سير البادية لنَجْعَةٍ أو حضور ماءٍ أو طَلَبِ مَرْبَعٍ أو تحوّل من ماء إلى ماء,أو من بلد إلى بلد, **لسان العرب,ج13,ص.270-271**

– بعد أن عَرَّفَنا بالبدو يحاول أن يعطينا الفرق بينهم و بين أهل الحضر(المدن وما في معناها), وسبب تميّز أهل البدو عن الحضر هي كما سمّاها عبد الرحمن **الفطرة الأولى**[638]فقال:﴿ أنّ النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيّئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شرٍّ, قال صلى الله علية و سلّم: (كلّ مولود يولد على الفطرة[639], فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يُمجّسانه)﴾, ثم يوضّح أكثر سبب تخلّق أهل البادية بخلق الفطرة السليمة على عكس أهل المدينة فيقول:﴿ وبقدر ما سبق إليهما من أحد الخُلقين تبعُدُ عن الآخر ويصعُب عليها اكتسابه,فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحَلَت له مَلَكته بَعُد عن الشرِّ وصَعُب عليه طريقه, وكذا صاحب الشرّ إذا سبقت إليه أيضا عوائده﴾,ثم يبيّن حال أهل الحضر بأنهم لكثرة ما هم فيه من ملاذ الحياة والإقبال على الدنيا وزخمها قد تلوّنت أنفسهم بكثير من مذمومات الخُلُق والشرّ, وبعدت عليهم طرق الخير, أمّا أهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثل غيرهم إلاّ انه بالمقدار الضروري للحياة وذلك من طبيعة معاشهم[640].

في هذا المستوى يبيّن لنا عبد الرحمن أن البدو أقرب إلى خلال الخير وأبعد عن الشرّ لفطرتهم النقية والبسيطة على عكس أهل الحضر, ولتخالط الأنساب دور في هذه الصفة.

أما الفرق الثاني فهو صفة **الشجّاعة**[641] التي اكتسبوها بعامل﴿تفرّدهم عن المجتمع, وتوحّشهم في الضّواحي, وانتباذهم عن الأسوار والأبواب, قائمون بالمدافعة عن أنفسهم,لا يَكِلون إلى سواهم...﴾, على خلاف أهل الحضر الذين﴿ مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السّفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم..﴾.

في الفصول الثلاثة التي ذكرناها تطرّقنا للبحث فيها إلى ثلاثة أمور هي: قبائل البدو اتصافهم بالصفة الخير وذلك من سنن الفطرة فيهم, كذلك شجاعتهم المتوقفة على نحلة معاشهم .

قبيل مصامدة جبل درن قبل تأسيس الدولة:

– يمكن لنا أن نضع قبائل مصامدة جبل درن في المرتبة الأولى من البدو, أي المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفَلح والقيام على الأنعام, وذلك لنحلة عيشهم إذ اعتمدوا في حياتهم على

(638)**عبد الرحمن بن خلدون: المقدّمة,ص.132,**

(639) والفطرة هنا تقصد الحنفية السمحاء التي أتى بها إبراهيم عليه السلام وتابعه على ذلك كل الرسل الذين أتوا بعده حتى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلّم, ولكن المولود إذا كان في بيت كافر غيّروا له تلك الفطرة فأصبح على دينوالديه, ولما ذكرالنبيّ صلى الله علي وسلّم لفظ يهوّدانه أو ينصرّانه فهو يعني دين آبائه اليهودي أو النصراني المحرّف.

(640)**عبد الرحمن بن خلدون: نفسه,ص.132**

(641) **عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه,ص.134**

الرعي والانتجاع, بالإضافة إلى استقرارهم في مواطنهم, واتخذوا المعاقل والحصون,كما اعتمدوا على الفلاحة في سفوح الجبال التي استوطنوها في معظمهم إلاّ القليل منهم فضّلوا السهول[642], ودافعوا عن أراضيهم وكان لهم نشاط واضح في المجال الفلاحي[643]. عكس صنهاجة التي احتلت مساحة شاسعة في المغرب حيث امتدت من نول لمطة في جنوب المغرب الأقصى إلى القيروان فبإفريقية, وأقاموا في المناطق الصحراوية وخاصة صنهاجة المغرب الأقصى وهم معروفون بالملثمين,حيث علّل ابن خلدون سبب هجرتهم وميلهم إلى سكنى الصحراء بان ذلك راجع إلى طبعهم, فهم يبتعدون عن الاختلاط بالناس وفرارهم من الغلبة و القهر[644]. أما الزناتيين فقد لاحظ عبد الرحمن بن خلدون أوجه الشبه بينهم وبين العرب فقال:(هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد معروف العين والأثر,وهم لهذا آخذون في شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل ..)[645], وعرفوا بالتنقل الدائم وكثرة الترحال[646].

سبق وأن بيّنا أهم ثلاثة فروع للمصامدة وهم : برغواطة وغمارة وأهل جبل درن, ثم إن ابن خلدون يقول حول مصامدة جبال درن: ﴿ كان لهؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوّة وطاعة للدّين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم..., كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء , ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي ..... ﴾[647].

وعليه فقد أجتمع فيهم أمرين اثنين إتّباعهم للدّين[648] على عكس برغواطة الكافرة وغمارة التي كان يختلط فيها الخير والشرّ, كذلك خلال الخير فيهم فلا يخفى علينا أنهم كانوا توّاقين لمن

([642])**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي, ص.27**, ذكرنا حال القبائل الثلاثة التي تجسّدت فيها نظرية ابن خلدون, الموحدون غلبوا المرابطين وهم أوغر بداوة منهم وكان عامل هزيمتهم أي المرابطين هو دخولهم في طور الدّعة والخمول, ثم أنّ الزيّانيين ورغم أنهم أوحش من المصامدة إلاّ أنهم أخضعوا من قبل هؤلاء وذلك بعامل الدّين الذي يعتبر استثناءا في نظرية العصبية.

([643])**حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس,ص.301**

([644])**حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس,ص.295**

([645])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج7,ص.3**

([646])**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي**,ص.24

([647])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ج6,ص.299**

([648]) يقول **ابن خلدون**:(لم يزل أمر بجبال درن عظيما, وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياّ, وفي أخبار الفتح من حروبهم... عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام..), **المصدر السابق,ج6,ص.300**

يجدّد لهم دينهم,فنجدهم يقبلون دعوة المهدي خلافا لبرغواطة الذين أصرّوا على غيّهم[649] فقَضَى على تمرّدهم الخليفة عبد المؤمن وأستأصل شأفتهم[650], ثم إن قصّة دخول قبيلة هنتاتة وزعيمها عمر الهنتاتي لأبرز دليل على حبهم للخير وأعظم هذا الخير هو الدّين,فيقول عبد الرحمن بعد أن وصفهم بأنهم أقرب إلى الفطرة: ﴿ فَيَسْهُل علاجهم عن علاج الحضر﴾[651].

– بطبيعة الحال كان المصامدة قوم شجاعة وبأس حتى نجد أن عبد الله بن ياسين داعية المرابطين يستعطفهم ويبعث بالأموال إلى طلبتهم لأمرين مهمين: أولا لكي يُكفَى شرّ قتالهم وثانيا لأنهم أهل دين ولطلبتهم المكانة العالية عندهم, فيكفيه إكرام الطلبة حتى يتسنى له إخضاع المصامدة[652].

2-دعوة المهدي وعصبية المصامدة توافق وتوقّف لحصول الملك:

– تكامل الدّين بالعصبية لتحقيق الملك:

لم يترك عبد الرحمن نظريته للدولة ترتكز إلاّ على مبدأ القوّة والغلبة الذي يتطلّب عصبية قويّة غالبة لكل العصبيات, فإن فعل ذلك إتُّهِمتْ نظريته بالنقص, حيث نجد أن التاريخ حافل بأخبار الدول التي قامت وتأسّست دون أن ينتمي مؤسّسوها إلى عصبيات قويّة, وعليه فلا بدّ من وجود عامل آخر رفع من شأن هذه القبيلة أو الجماعة ومكّنها من تقويض ملك بالٍ وإنشاء آخر مكانه, وهذا العامل هو الدّين أو الدعوة الدّينية.

بدأ عبد الرحمن بأن ﴿ الدُّول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها إمّا من نبوّة أو دعوة دينية﴾[653], وكأنّه يكاد يحصر مسألة نشوء الدول الكبيرة التي لها امتداد في المكان والزمان بالدول التي تقوم على دعوة دينية[654], لأن ﴿ القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى

([649]) عُرِفت برغواطة بنقمتهم على كل من أراد أن يخضعهم, وربما كان لنحلتهم الكافرة دور في تزمّتهم,انظر حول أحوالهم,**الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.14**, وهم يذكّرونا بالكاهنة واستعصائها على المسلمين أيام الفتح, ذكر اسمها **عبد الرحمن** ب (داهيا بنت ماتية) ووصفت بأعظم ملوك البربر.**المصدر السابق,ج6,ص.143**

([650])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ج6,ص.311**, **الناصري:المرجع السابق,ج2,ص.102**

([651])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدّمة,ص. 132**

([652]) حول إستمالة طلبة المصامدة, ينظر**ابن أبي الزرع:الأنيس,ص. 126**,**إبن عذارى المراكشي:البيان المغرب,ج4,ص10**

([653])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.166**

([654]) يقصد الدول عظيمة الملك لأنّه وجدت هنالك دول قامت على أساس عصبي محض, ولعلّ الدويلات الثلاث الزيانية والمرينية والحفصية لأبرز دليل على هذا.إلاّ أن **علي أومليل** لا يشاطرنا الرأي ويرى أن الجانب الديني كان متحقّقا في مبدأ دولتهم إلاّ انه لم يكن لهم كغيرهم من الدول التي يستدل بها لابن خلدون(كالمرابطين والموحدين) مذهب محدّد.وهذا المبحث يعتبره إلباس في التاريخ الخلدوني, **الخطاب التاريخي,ص.198-202**

الدّنيا, حصل التنافس وفشا الخلاف, وإذا انصرفت إلى الحقّ ورفضت الدنيا والباطل, وأقبلت على الله اتحدت وجهتها, فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسُن التعاون والتَّعاضد, واتسع نطاق الكلمة لذلك﴾[655].

هنا عبد الرحمن يبّن لنا اثر الدعوة الدينية[656]في العصبية,حيث ان أفراد تلك العصبية هم في حالة فوضى وهَمَل إذا ما كانت قلوبهم متعلّقة بالدنيا فيكثر فيه التحاسد والتّنافس والخلاف, أما إذا عرفت الحق المعزّز بالدعوة الدينية فإنّ ملكاتها سوف تظهر وهدفها سوف يتحدّد.

هذا التطوّر الحاصل للعصبية بفضل الدعوة الدينية هو تطوّر داخلي دعوي – مرحلة الدعوة– لابدّ له من أن يرتقي إلى المرحلة الثانية وهي ما يعرف بمرحلة البناء والتأسيس.

لذلك نجد أن عبد الرحمن يواصل تبيان أثر الدعوة الدينية في نشوء الدولة بحيث يقول:﴿ الدّعوة الدّينية تزيد الدّولة في أصلها قوّة على قوّة العصبية التي كانت لها من عددها﴾[657], لأن الدّعوة الدينية تضاعف قوّة العصبية حتى وإن قلّ عدد أفرادها لأنهم سوف لا يضيعون فالغاية واحدة, وهي نصرة الدعوة,﴿ فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم –أي تحدّد مرادهم– لم يقف لهم شيء,لأنّ الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم, وهم مستميتون عليه﴾[658], وقد ضرب لنا عبد الرحمن أمثلة عن ذلك بمعركتي القادسية واليرموك, حيث كانت جيوش فارس وهرقل هائلة العدد مقارنة مع جيش المسلمين إلاّ أن النصر كان حليف المسلمين لأنهم كانوا يحملون رسالة عظيمة معهم هي رسالة الدّين, وكذلك كان الأمر في دولتي المرابطين والموحدين[659].

إلاّ أن عبد الرحمن بن خلدون يريد أن يستدرك لنا أمرا مهما, وهو استحالة قيام دولة على أساس ديني دون وجود عصبية تحتضنها وتحميها وذلك لأنّ ﴿ الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتمُّ﴾[660], ومردّ ذلك إلى استحالة نجاح الدّعوة الدّينية التي يُفرض على الناس إتّباعها إلاّ بالعصبيّة ﴿وفي الحديث الصحيح كما مرّ,(ما بعث الله نبيّا إلاّ في مَنَعَةٍ من قَوْمِه) وإذا كان هذا

([655])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة, ص.166.**

([656])الدعوة الدينية تعتبر بحدّ ذاتها عصبية متفوقة ومتميّزة, وقد تكون في معظم الأحيان أقوى من عصبية النسب.**النبهان محمد فاروق :الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.171.**

([657])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.167.**

([658])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.167**, وهنا تصل العصبية إلى قاعدة الالتحام الأقصى بفعل عامل مؤثّر وهو الدعوة الدينية. **محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى،ص.152.**

([659])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق, ص.167.**

([660])**عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة,ص:168.**

في الأنبياء وهم أولى النّاس بِخَرْقِ العَوَائِد,فما ظنُّك بغيرهم ألاّ تُخرقَ له العادة في الغَلَبِ بغير العصبية﴾[661]. وقد دعّم نظريته بأمثلة من تاريخ الأمة الإسلامية[662].

وبالتالي يمكن استخلاص العلاقة بين الدّين والعصبية وهي علاقة تآزر وتعاضد وتكامل, فالدّين يزيد من قوّة العصبية بالتخفيف من حدّة التعصّب كالأنانية والاعتداد بالأنساب, فيصفى الجوّ أمام هدف أو أهداف معيّنة تسطرها تلك العصبية من أجل بلوغها محتمية في طريقها لتحقيقها بتعاليم الدّين, وكذلك للعصبية دور كبيرفي حمل الناس على إتّباع هذا الدّين[663], والمقولة المعروفة (يوزع بالسلطان ما لا يوزع بالقرآن) أحسن تعبير لهذا المفهوم.

الاستثناء في النظرية(بدوٌ لا يحصل لهم ملك إلاّ بالدّين):

قبائل البدو كما وضّحنا لها ثلاثة أقسام كل قسم منها له خصائصه التي تميّزه عن غيره, لكن الملاحظ حول قضية حصول الملك أن ابن خلدون حسب الجابري يقرّر أن الصنف الثالث وهم العرب, وفي معناهم ظُعُون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتُّركمان و التُّرك بالمشرق ﴿لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدّين في الجملة﴾[664], لكن عبد الرحمان لا يتركنا في حيرة من أمرنا بل بيّنا لنا أسباب ذلك , وهي كالآتي:﴿أنهم لخلق التوحّش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة, وبُعد الهمّة والمنافسة في الرّياسة,فقلّما تجتمع أهواؤهم﴾[665],وهذا الخلق هو جبلّة فيهم ﴿ أنّهم امّة وحشية باستحكام عوائد التوحّش وأسبابه فيهم, فصار لهم خُلُقًا وجبِلَّةً﴾[666], ولو تغلّبوا على قوم كان همّهم ﴿ انتهاب ما في أيدي النّاس,وإنّ رزقهم في ضلال رماحهم وليس عندهم في أخذ

([661])**عبد الرحمن بن خلدون::المقدمة, ص.167**

([662]) يحاول **محمد فاروق النبهان** أن ينبّهنا إلى أمر بالغا في الأهمية وهو فساد ذلك الرأي القائل بان الدّين لم يتمكن إلاّ بعصبية تحميه, ويذكر تفسيرا مطولا أهم ما فيه هو أن هذه المقولة تضعف من قوّة الدّين فتجعله يُرتجى لغيره وليس لذاته, بمعنى أن الدّين يصبح مجرّد قوّة تقوّي الالتحام وتدعم العصبية, وبهذا الرأي أفقد الدّين جوهره وهو إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان, ويعزّز النبهان طرحه هذا بتذكيرنا بمبدأ الدعوة المحمّدية حيث كان أغلب المؤمنين بها من مستضعفين, في حين عادته أكبر قبائل قريش عصبية لكن ومع قوّة الإيمان بهذا الدّين نشأت عصبيّة أخرى إن صحّ التعبير كانت أقوى من العصبيّة القبلية, بل استطاعت أن تنتزع أفراد تلك العصبية فردا فردا وإدخالهم في العصبية الجديدة عصبية الدّين التي هي أسمى من كل العصبيات.**الفكر الخلدوني من خلال المقدّمة,ص.177-179**

([663])**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.189**

([664])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص. 160**

([665])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.160**

([666])**عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق,ص.158**

أموال النّاس حدٌّ ينتهون إليه﴾[667], وعندهم لذّة في ﴿الخروج عن رِبْقة الحكم, وعدم الانقياد للسيّاسة, وهذه الطَبِيعةُ مُنافِيةٌ للعمران ومناقضة له﴾[668], كما أنّهم لا يلتفتون إلى الأمور التي تبنى بها الحضارة وذلك طبع فيهم تكوّن فيهم نتيجة نمط معيشتهم حيث لأنهم﴿ يُتْلِفُون على أهل الأعمال من الصّنائع والحرف أعمالهم, لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن﴾[669], ولذلك كله وغيره هم﴿ أبعد الأمم عن سياسة الملك﴾[670].

ويذكّرنا الجابري حول قضية النسب الضيق أو القريب الذي يربطهم بعامل أنهم يعيشون في القفر ولا يختلطون بالناس, فتضعف المصلحة المشتركة بينهم بضعف تطلّعهم للجديد في هذه الدنيا, وعليه عصبية كهذه لا يمكن أن تتطور إلى عصبية عامة تصبو إلى الملك والحضارة إلاّ إذا جاء عامل يذهب عنهم الغلظة والتنافس والأنفة,ويبعدهم عن التنافس والتحاسد وهو عامل الدين أو الدعوة الدينية[671].

كل هذا بعيد عن عصبيّة مصمودة التي هي من الصنف الأول أي المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفَلح والقيام على الأنعام, إلاّ أننا تعمّدنا الإشارة إلى هذا المبحث حول العرب وفي معناهم كما عبّر عليهم ابن خلدون كي نفرّق بينهم وبين مصامدتنا من حيث درجة التوحّش[672].

هناك **تفاعل ظاهر بين الدعوة الدينية والعصبية في نشأة وتطور الدولة** في العصر الوسيط حسب ابن خلدون, فنجد أن البدو صِنْفٌ منهم لا تقوم له دولّة إلاّ بدعوة دينية وصنفين آخرين تزيدهم الدّعوة الدّينية قوّة واتساعا لا يحصلون عليه بعصبيّتهم لوحدها.

([667])**عبد الرحمن بن خلدون:المقدمة,ص.159**

([668])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.158**

([669])**عبد الرحمن بن خلدون:نفسه,ص.159**

([670])**عبد الرحمن بن خلدون:المصدر نفسه,ص.160**

([671])**محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, ص.187-188**

([672]) نشير هنا إلى الردود المختلفة التي صدرت عن كتّاب أعابوا على ابن خلدون اتهامه للعرب بأنهم أبعد الأمم عن الحضارة, حتى إن بعضهم رجّح أن يكون نسبه من البربر ضنّا منه أن هذا العمل لا يصدر إلاّ من حاقد مع جنس العرب, وأنصفه آخرون وقالوا أنه كان يقصد الأعراب, أمثال قبائل بنو هلال و بنو سليم وغيرهم الذين عاثوا في الأرض فسادا. ونحن نرى أن ابن خلدون كان يقصد من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظَعْنًا وابعد في القفر مجالا, دون مقصود منه الانتقاص من جنس العرب. ينظر**ساطع الحصري:دراسات عن مقدمة ابن خلدون,ص.151** وما بعدها, **محمد فاروق النبهان: الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,ص.365** وما بعدها

دعوة المهدي وأثرها على مصامدة جبل درن:

لسنا هنا بصدد تتبّع مراحل تأسيس دولة الموحدين التي تمرّ بمرحلتين: مرحلة الدعوة وهي مرادفة لرحلة العودة من المشرق بعد أن تحصّل على مراده من العلم ونبغ فيه, وتنقله خلال مدن المغرب وهو يقوم بأهم عمل دعوي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر, وصولا إلى مراكش عاصمة المرابطين وجلوسه لمناظرة علماء المرابطين الحدث الأهم الثاني في مرحلته الدعوية بعد حادثة لقائه مع أبو حامد الغزالي إن صحّت الرواية[673], ثم بعد ذلك مرحلة التأسيس التي تبدأ من استقراره المؤقّت بإجليز جبل مطلّ على هرغة قبيلته الأصلية, وادّعائه المهدوية وأخذ بيعة أصحابه والقبائل على ذلك.

لكن هدفنا هو إسقاط نظرية ابن خلدون حول علاقة الدّين بالعصبيّة الموحدية في تأسيس الدّولة ولذلك نقول:

أن ابن خلدون يتحدّث عن قبائل المصامدة﴿ كان لهؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوّة وطاعة للدّين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم..., كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء , ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي ..... ﴾[674].

([673])هناك جدل قديم حول صحّة لقاء المهدي بأبي حامد الغزالي من عدمه, انظر ذلك عند, **ابن خلكان: وفيات الأعيان,ج5,ص.46. ,الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.71–72**

أجمع كتاب أوروبا الحديثة على حذف التقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي نهائيا من سيرته الذاتية, ومنهم المستشرق الأمريكي Duncan B Macdonald (دانكن .ب. ماكدونالد) المختص في حياة الغزالي. أضف إلى ذلك أنهم يرون ان الغزالي غيّر في هذه الفترة من فكره الفلسفي الإسلامي ونحى منحى الصوفية, وهي الفترة التي يحتمل أن يكون قد إلتقى فيها الرجلين, فكيف ينقل عليه منهجا قد تخلى هو عنه؟, بالإضافة غلى ان الغزالي نفسه كان يشيد بإنجازات المرابطين من إسقاطهم لحكم الطوائف بالأندلس وتوحيد البلاد, أما قضية حرق كتاب الإحياء فكان بعد سنة500ه–1160م أي بعد ارتحال المهدي من بغداد. I. Goldziher : Mohammed ibn toumert et la théologie de l'islam dans le nord de l'Afrique au XIsiècle, imprimerie orientale pierre Fontana, Alger ,1903p.10-11-12 .

([674])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.299.** وقد مرّ معنا قصّتهم مع عبد الله بن ياسين الذي كان عارفا بأحوالهم وأنهم لا يستقرّون على سلطة واحدة بالإضافة إلى صراعاتهم المستمرّة فيما بينهم فحاول أن لا يستفزّهم فأكرم طلبة وقضاة المصامدة,**إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس, ص.29**

وكان لهم شأن على عهد دولة يوسف بن تاشفين كذلك وكانوا من عداد جنده, ثم يقول ابن الخطيب:" ولما قربت وفاته– أي يوسف بن تاشفين– أوصى ابنه ولي العهد بعده أبا الحسن علي بثلاث وصايا أحدها, ألاّ يُهَيِّجَ أهل جبل دَرَر ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة"**ابن الخطيب :الحلل,ص.20 و ص.60**

إذن عرف مصامدة جبل درن القوّة كما اتبعوا الدّين وفق المذهب المالكي في الغالب الذي كان سائدا في بلاد المغرب[675], المذهب الذي هزم مذاهب الشيعة وتمكّن من الصمود رغم سيطرة العبيديّين على شمال إفريقي.

لم يكن الملك والإمارة بمعزل عنهم حيث أنهم تأسست لهم إمارات إلاّ أنها في الغالب كانت تستند على العصبية القبلية أكثر من استنادها على الدّين, فلم تتمكّن من توسيع نفوذها بل بقت محصورة في الإطار الجغرافي لقبائلها, وهذا ما يجعلهم في الصنف الأول من البدو كما وضحنا سابقا, وما يدعّم ذلك أنهم كانوا أهل فلاحة واستقرار[676], إلاّ أنهم لا يستقيمون على حاكم[677] فكثرت الفتن والحروب بينهم وهو ما عرّفناه بالصراع على المعاش.

بدأ المهدي دعوته متبعا منهج النبوّة في ذلك حيث كان يمشي في الأسواق والمحلاّت والأماكن العامة فكلّما رأى منكرا أنكره وقد يغيّره بيده[678],يذكر عبد الواحد المراكشي قصّة نعتبرها من قبيل تضخيم شخصيّة المهدي, وخلاصتها هو إقدامه على فكّ أَسْر أحد عُبَّاد مسجد العبّاد بتلمسان دون إذن الوالي بذلك, ولم يتوقّف الأمر إلى هذا الحد بل تمسّح به السجّانون وطلبوا منه الدعاء[679], ويبيّن المراكشي عظم شأنه عند العامة والخاصة حيث وضع له القبول و الوقار في أعين الناس, ولم يزل مقيما بتلمسان حتى أستمال وجوه أهلها وملك قلوبهم[680].

([675]) عرفت بلاد المغرب الإسلامي علماء أجلاّء اعتنوا بالمذهب المالكي وعملوا على نشره و التأليف فيه مثل الإمام محمد بن سحنون ت256ه-780م الذي يعتبر من اكبر علماء المغاربة الذي ألّفوا في هذا المجال ومن أشهر ما ألّف مدونة سحنون, كذلك أبو عثمان سعيد بن حدّاد ت302ه-914م , وابن عبد البرّ ت463ه-1071م, والقاضي عياض السبتي ت 544ه-1149م, **إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدّفاع عن عقيدة أهل السنّة ,مؤسسة الرسالة ناشرون, دمشق,ط51426ه- 1200م,ص.122-130**

([676])إبراهيم القادري بوتشيش:**مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس ,ص.28**

([677])**إبن عذارى: البيان المغرب, ج4,ص.10**

([678]) كان شجاعا فصيحا في اللسان العربي والمغربي شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع, صابرا على الأذى فيه , وناله في مكّة شيء من الأذى وفي مصر وأينما حلّ, يجتهد في تغيير المنكر لكن إذا أحسّ بخطر من السلطان أو من العامة ,يدّعي الجنون أو يفرّ إلى محلّ آخر,مثل ما حدث له ببجاية حين غيّر منكرا فتآمر به سلطانها والعامة مما دفعه إلى الخروج منها خائفا إلى ملالة فأجاروه.**وفيات الأعيان,ج5,ص.46الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.73**

([679])**عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.250**

([680])**عبد الواحد المراكشي,نفسه,ص:250** ا, كانت لشخصية المهدي أثر بالغ في الدعوة كما كان لها دور في جلب المُرِيدين حوله من كل أنحاء المغرب للدراسة فنجده قبل حلوله بتلمسان بني له مسجد بملاّلة التابعة لبجاية,بعد أن آجرته قبيلة بني ورياكل الصنهاجية, ولا يخفى أنه تكوّن لديه طلبة من جميع أنحاء المغرب وحتى مصر استعان بهم لنشر دعوته. **الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.32**

وبعد أحداث في مرّاكش أهمها إفحام علماء الحضرة السلطانية[681] وصل إلى قبيلته هرغة التي مكث فيها ثلاث سنين يدعو فيها الناس[682] ويعلّم المهاجرين ويخاطب القبائل[683] فلمّا أحسّ منهم الإخلاص ادعى المهداوية[684] على خلاف في زمان ذلك ومكانه[685], فآخى بينهم وألّف لهم كتاب سمّاه التوحيد بلسان البربر وهو سبعة أحزاب, وألّف لهم كتابا آخر سمّاه القواعد وآخر سمّاه الأمانة مكتوبان بالعربية والبربرية, وكان فصيح اللّسان بالعربي والبربري ينقل إليهم المواعظ والأمثال ويقرّب لهم المقاصد فجذب نفوسهم واستجلب قلوبهم وسهّل عليهم التّعليم[686],وكانت له بعض الأحداث مع المرابطين[687],ثم انتقل إلى تينملل[688]فلاحظ أولادهم الشقر وهم ليسوا كذلك, فلمّا استحلفهم أن يخبروه بما يحدث أفصحوا له عن همّهم فقال لهم:(والله إنّ الموت خير من هذه الحياة, وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأذعنهم بالرمح,قالوا: بالرُّغم لا بالرضا,فقال: أرأيتم لو أن ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون,قالوا: كنّا نقدّم أنفسنا بين يديه للموت,ثم قالوا: ومن هو؟,قال:ضيفكم, يعني نفسه

---

(681) يذكر **ابن أبي زرع** أنه بعد تمادي المهدي بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر منها إراقة الخمور وكسر آلات الطرب استدعاه أمير المرابطين علي بن يوسف ليطّلع على أمره فكانت له المناظرة المشهورة مع علماء المرابطين فأفحمهم, انظر معظم ما جاء في المناظرة **الأنيس المطرب ,ص.174–175 ,ينظر أسلوب المهدي في الدعوة,الصلاّبي: دولة الموحدين,ص.29**.

(682)لم تقتصر دعوته على العامة بل دعا الخاصة من المرابطين وحذّرهم من إتّباع الهوى والشيطان, وقال البعض إنها كانت أول رسائله إليهم, **رسائل موحدية,ج1,ص.43**.

(683)**ابن القطّان:نظم الجمان,ص.78** وكأنه يتّبع خطوات النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنوّرة, كان يمكنه أن يبقى في هرغة التي تبعد عن العاصمة مراكش بالمقارنة مع تينملل, إلاّ انه وحسب بعضهم كان يتّبع النبوءة المزعومة في كتاب الجفر.

(684) بعد أن ابتدأ بالدعوة إلى الله والقذف في المرابطين وسماّهم المجسّمين ثم بيّن لهم صفات المهدي وعلاماته وأنّه يخرج بالمغرب,فلما لمس منهم التصديق ادّعى انه المهدي.**عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.255 , لسان الدين ابن الخطيب:الحلل الموشية,ص.78**

(685) سبق معنا ذكر الخلاف الحاصل بين المؤرّخين حول سنة ومكان ادّعائه المهداوية فراجع تفصيل ذلك في الفصل الثاني من هذا البحث.

(686)**لسان الدين ابن الخطيب: الحلل الموشية, ص.80**, يقول **عبد الواحد المراكشي**(صنّف لهم التصانيف في العلم منها: كتاب أعزّ ما يطلب, وعقائد في أصول الدّين وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلاّ في إثبات الصفات فإنّه وافق المعتزلة في نفيها, وكان يبطن شيئا من التشيّع), **المعجب, ص.255**

ممّا قاله لهم فزاد في إيمانهم بمهدويّته:(**لا** تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله) وهو اقتباس من حديث شريف يبتدئ ب(لا تزال طائفة من أمّتي), وتخصيص أهل المغرب هنا فيه نظر, ثم قال لهم:(وانتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم, ويقتل الدّجال, ومنكم الأمير الذي يصلّي بعيسى بن مريم, ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام السّاعة) وكان يقول:(لو شئت أن أعدّ خلفاءكم خليفة خليفة...) ., فزادت فتنة القوم به, **عبد الواحد المراكشي:المصدر السابق,ص.255-256**

(687) كانت أوّل معركة بين الموحدين والمرابطين تلك التي قادها الأمير المرابطي يينتان بن عمر, وحين اصطفّت الصفوف نظر الموحدون إلى المهدي كأنهم خائفون فنظر إليهم وقال لهم:لا تفزعوا إنهم هاربون, وكذلك كان فعلهم أي المرابطون فهربوا.**البيذق: أخبار المهدي,ص.35**

(688) لمّ حلّ المهدي عند أهل تينملل وتسامعوا بوصوله وكان خبره قد وصل إلى قبائلهم جاءوه من كل فجّ عميق وتبرّكوا بزيارته,**الناصري: الاستقصاء,ج2,ص.78** وهذا دليل على انتشار خبره بين المصامدة وشدّة إرادتهم للتغيير.

,فقالوا: السمع والطاعة), وكانوا يغالون في تعظيمه فأخذ عليهم العهود و المواثيق[689]وقاتل من تخلّف عن بيعته من المصامدة[690].

كان قتال المهدي للمرابطين هدفه الوحيد حسب رسالته للموحدين هو إبطال باطلهم وإحقاق الحق على منهج السلف الصالح, فهذه الرسالة من الرسائل التي حفّزت الكثير من القبائل المصمودية للدخول في الدعوة الموحدية, فجمعت كلمت الموحدين على مبدأ واحد هو الجهاد في سبيل الله والقضاء على الكفار(المرابطين) [691].

الوصيّة بحدّ ذاتها من المهديّ إلى جماعة الموحدين حين أحسّ بدنوّ أجله وأراد تعين خليفة له, تعبّر عن التأسيس لدولة دينية بامتياز فنجده يحذّرهم من الاختلاف ويذكّرهم أنهم كانوا مستضعفين فمكّنهم الله, ويضرب لهم المثل بالمرابطين لمّا تركوا دين الله كيف نالهم غضبه, ويأمرهم باتّباع الكتاب والسنّة كما فعل السلف الصالح وعدم الفرقة, إلى غير ذلك من النصائح الدينية.

تمكّنت الدعوة الموحدية من قلوب المصامد حتى لو طُلب من أحدهم قتل أعز الناس إليه لفعل[692], وأبرز دليل على تمكّن المهدي من قلوب المصامدة واتّباعهم له دينًا وليس حميّة أو من أجل عرض من الدنيا, هو قضيّة التمييز التي إبتُلِيَ بها المصامدة لكنّهم تقبّلوها كأنّها جزء من الدّين, فأصبح يَهُون على الرّجل قتل أبيه أو أخيه أو أقرب الناس إليه تقرّبا إلى الله[693].

يسرد لنا البيدق الغزوات التي حضرها المهدي والتي كانت كلها من نصيب الموحّدين, وهذا دليل على تكاتف العصبية المصمودية مع الدّعوة التومرتية, كما انه ساد عليها سكينة

([689])**الناصري: الاستقصاء,ج2,ص.78-79** , هذه الحادثة تبيّن لنا عدّة أمور منها: قوم ذو بأس شديد وعصبية خاصة إلاّ أنهم مقهورون لعدم اجتماع كلمتهم على رئيس, معرفة المهدي بأحوالهم وببسالتهم واستعماله لنقمتهم مع المرابطين- العِرْض- كأداة حربية فعّالة لمواجهتهم, الطريقة التي عرض بها نفسه كمخلّص لهم من العار الذي كان ينغّص عنهم معيشتهم فكسب قلوبهم وسيوفهم.

([690])عبد **الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.304**, **الناصري: المصدر السابق,ج2,ص.78**

([691])أنظر فحواها في **الرسائل الموحدية,ج1,ص.44** ,تحت عنوان رسالة المهدي إلى جماعة الموحدين(الرسالة المنظمة)

اتهم المهدي المرابطين بالتجسيم وذلك لَماَّ أثبتوا لله الصفات, حيث قالوا له وجه ويدين وغير ذلك مما يتّصف به البشر, فردّ عليهم المهدي بأنهم مجسّمة شبّهوا الخالق بالمخلوق, قال تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ سورة الشورى , آية 11.

إلاّ أن المرابطين كانوا على منهج السلف , حيث كان السلف يثبتون لله ما أثبت هو لنفسه دون تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل.مثل قوله تعالى: ﴿يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء....﴾ سورة المائدة,آية64, وقوله: ﴿ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ سورة الرحمن, آية 27,ونجد أن الإمام مالك لمّا سئل عن صفة الاستواء أجاب :(الاستواء معلوم و الكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة, ما أُراك إلاّ مبتدعا).

([692])**عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.259**

([693])يذكرها **البيدق** أثناء الغزوة التاسعة, **أخبار المهدي,ص.39**, وهذا التمييز تكرّر حتى على عهد عبد المؤمن بن علي أثناء خلافته للموحدين

الإيمان ولعلّ الذي زاد من هذا الجوّ الدّيني هو حضور المهدي في تلك الغزوات وتصرّفه بطريقة ذلك الصّوفي الزّاهد الذي له اتّصال مستمر مع خالقه[694].

كذلك كان لتسمية أتباع المهدي بالموحّدين أثر بالغ في تهذيب عصبيّة المصامدة بالخصوص والعصبيات الأخرى المتحالفة معها ومزجها في بوتقة واحدة, وهي ما يمكن تسميته بالعصبية الدّينية, لأنّ تسمية الموحدين أطلقها المهدي على أتباعه الذين يوحّدون الله توحيدا مطلقًا لا تَشُوبُه شَائِبة التجسيم[695].

كان ذلك بعضا من شأن المهدي مع عصبيّته المصامدة, فرأينا كيف امتزجت الدعوة مع العصبيّة وسارتا في درب واحد لتأسيس الدولة, ثم الآن نحاول أن نلقي نظرة على الموحدين في عهد خليفة المهدي عبد المؤمن بن علي فنقول:

تعتبر بيعة عبد المؤمن دليل على تقبّل عصبية المصامدة لدعوة المهدي, حيث أنالمصامدة اختلفوا حول من يخلفه فأجّلوا أمر البيعة حتى تخالطت محبّة الدعوة قلوبهم كما ورد ذلك[696].

يعتبر عبد المؤمن بإخفائه لموت المهدي المؤسّس الثاني للدعوة الموحدية بالإضافة إلى العامل الشخصي وهو إرادته للخلافة[697].

إنّ اعتلاء عبد المؤمن سدّة الحكم على الموحدين وهو الغريب عنهم من أهم الدلائل على سموّ الدّين فوق العصبية وتهذيبه لها, خاصة أننا نعلم أن القبائل المصمودية كان فيها من لا تنقصه صفات الرئاسة, مثل أبو حفص عمر الهنتاتي الذي كان من ورائه عصبيته الخاصة والقويّة هنتاتة, لكنهم فضّلوا تقديم الغريب مخافة الفتنة وحفظ الدّين و الدولة.

تمكّن عبد المؤمن من إحياء الدولة بعد أن كادت أن تنهار عقب وفاة المهدي وخسارتهم في معركة البحيرة, فأنطلق في مرحلة حاسمة من المعارك مع المرابطين أثمرت بفتح مرّاكش

---

(694) تجد ذكر تلك الغزوات على ترتيبها عند **البيدق: أخبار المهدي,ص.35-39**, كذلك تحليل مقارن لها عند, **رشيد بوروبة: إبن تومرت,ص.69-73**

(695) **عبد الله علي علام:الدولة الموحدية بالمغرب, ص.63**

(696)لفظ مخالطة الدعوة قلوب المصامدة ذكره **عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.305**

(697)**عبد الله علي علام: المرجع السابق,ص.102**, هناك خلاف في قضية عدم الإعلان عن موت المهدي وبيعة عبد المؤمن العامة, والراجح أن إعلان الوفاة كانت بعد وفاته ربّما لبضعة أيام حتى استقرّ أهل العشرة (من تبقى منهم) على أحقية عبد المؤمن بالخلافة, أما البيعة العامة فكانت بعد ثلاثة سنوات من موت المهدي.**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.115-116**

سنة 541ه-1146م, وكان لهذه الفتوحات الدور الكبير في جمع كلمة الموحّدين حول عبد المؤمن وضمّت صفوفهم فثبتوا على مبادئهم[698].

من الحوادث التي تبيّن أن الدولة الموحدية تأسست على أساس ديني هي قضية عبد الله بن ملوية أحد العشرة من جماعة المهدي,الذي خرج عن طاعة عبد المؤمن وتحالف مع المرابطين ضدّه فعمد إلى قبيلته جنفيسة ليضمّها إليه, إلاّ أن شيخا من تينملل اسمه(عبد الله بن وسيد درن) أفسد عليه خطّته وأقنع شيوخ القبيلة ومنهم من كان من أهل الخمسين بان هذا العمل ناجم عن حاقد يبتغي عرضا من الدنيا,فاستجابوا له وقتلوا ابن ملويّة[699]، ولو كانت العصبية عندهم هي المسيطرة ما فعلوا هذا الفعل بل كانوا سوف لن تأثر فيهم تلك الموعظة ويبقى همّهم هو الرياسة فحسب .

ربّما لم يكن من الممكن السيطرة على القبائل المصمودية لو كان المهدي قائدا حربيا وحسب, فنجده كلما بعث طلبة المصامدة لنشر الدعوة وأخذ البيعة له, يأمرهم بالتحلّي بالصبر والابتعاد عن العنف مع القبائل المصمودية,لأن هؤلاء لا يخافون القتال فيجب أن لا يتعامل معهم مثلما تعامل المهدي مع أهل المدن لما كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر, فشتّان بين أهل البدو وأهل المدن[700].

وكذلك فعل عبد المؤمن مع قبيلة "بني ييغر" التي تبعد عن تينملل بقليل, لأن هذه القبيلة معروفا أبناؤها بالبسالة, وقد تمكّنوا من صد الموحدين لمّا أرادوا غزوهم سنة529ه–1135م, فيذكر ابن القطّان أن عبد المؤمن بعد ذلك استعطفهم فدخلوا في دعوته[701].

كان في مقتل شقيق عبد المؤمن إبراهيم الأسوة الحسنة التي تصدر من خليفة الموحّدين إلى رعيّته حيث أنه صبر ولم يغلّب الغضب والثأر على أمر الدعوة[702].

كذلك قسوته مع من لا يحترم مبادئ الدعوة الموحدية, وقصّته مع قرابته من كومية وزناتة لأبرز دليل على ذلك[703].

([698])**عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.104** , عن بداية هذه الغزوات انظر:**الناصري: الإستقصاء,ج2,ص.93** وما بعدها, **ابن أبي زرع:الأنيس,ص.186** وما بعدها وكانت أول غزوة له في خلافته غزوة تادلة(تادلا)

([699])**عبد الله علي علام: المرجع السابق, ص.109** , عن ابن ملوية ينظر,**البيدق: أخبار المهدي,ص.46**

([700])**ابن أبي زرع: الأنيس,ص.176–177** ,.**عزّ الدّين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.77–78**

([701])**عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب,ص.112–113**

([702]) حول قصّة مقتله ينظر: **البيدق: أخبار المهدي,ص.55** , **عزّ الدّين عمر موسى:الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.90,علي محمد محمد الصلابي: دولة الموحدين,ص.100**

([703])**عبد الله علي علام: المرجع السابق,ص.124**

يصوّر النزعة الدينية في حكم عبد المؤمن بن علي هي تلك الرسالة التي بعثها إلى الأندلس ثم عمّمها على سائر البلاد, والتي رسم فيها الأسس العامة للحكم كما أمر بالعدل في الرعيّة وعدم تسليط الحدود على الناس إلاّ بعد إعلام الخليفة,بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من النصائح والأوامر السلطانية التي تحث على الخير وتنهى عن الشرّ[704].

ثانيا:أسس وخطوات التغيير في دعوة المهدي بن تومرت:

حركة التغيير في مجملها تعتمد على محورين رئيسيين, أوّلهما معرفة الواقع المُعاش عن طريق المعاينة الشخصية في أرض الواقع من طرف من له البصيرة والحكمة, وثانيهما هو محاولة إيجاد البديل النافع لهذا الوضع المختل.

كانت رحلة محمد بن تومرت الهرغي من مسقط رأسه هرغة من بلاد السوس بالمغرب الأقصى إلى بلاد المشرق بعد أن تحصّل على القدر الكافي الذي يمكّنه من إكمال المسيرة العلمية, ولم تسعفنا المصادر في تبيان مسيرته التعليمية أثناء طفولته إلاّ إشارات من صاحب نظم الجمان الذي قال:(وكان في صغره ملازما للمسجد ودرس لوحه, ليست له صبوة ولا شهوة)[705], أو عبد الرحمان الذي قال انه كان (قارئا محبا للعلم)[706], وقال فيه ابن أبي الزرع:(كان في أول أمره وابتداء حاله رجلا فقيرا مشتغلا بطلب العلم وتحصيله, وكان له ناموس عظيم)[707], لكن وبمعرفة بطابع التدريس الذي كان سائدا ذلك العصر يمكن أن نقول انه درس في كتّب قريته فحفظ القران وشيئا من النحو, وشيئا من علم العبادات و المعاملات, ولمّا كان حريصا على التعلّم رحل إلى المشرق[708].

([704])**عبد المجيد النجار : المهدي بن تومرت, ص.387-388**

([705])**رشيد بورويبة: إبن تومرت,ص.18.**

([706])**عبد الرحمن بن خلدون: العبر,ج6,ص.301.**

([707])**ابن أبي زرع الفاسي,الأنيس المطرب,ص.172.**

([708])**رشيد بورويبة:ابن تومرت,ص.19.** رحلته كانت إلى مراكش مع بداية المائة الخامسة ولا نستطيع الجزم في ذلك كما لا نستطع تحديد سنة ميلاده, ثم قصد الأندلس فأقام بقرطبة وتتلمذ على قاضيها **أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ت548ه-1153م** , وكان لانتشار مذهب **ابن حزم الظاهري ت456ه-1151م** أثر بالغ في تكوين ابن تومرت و التأثر بمنهجه,, ثم انتقل إلى المهدية عبر البحر ثم إلى الإسكندرية بمصر حيث أخذ **عن أبي بكر الطرطوشي** الأشعري المذهب, ثم انتقل إلى مكّة حيث أدّى فريضة الحج كما انه يُذْكر أنه ظهر منه بعض من الإنكار فيها فلقيه شيء من الأذى ,ثم ارتحل إلى بغداد وفيها كان له الحظ الأوفر في التّحصيل لما كان يجتمع فيها من الملل و النحل, والفرق المتجادلة ذات الآراء المتنافرة, وبها تتلمذ على فطاحلة علماء السنة ذو المنهج الكلامي مثل **الكيا هراسي ت504ه-110م** الذي اخذ عنه الفقه والأصول والجدل و الحديث و **المبارك بن عبد الجبّارت500ه-1106** المحدّث و**أبي بكر الشاشي** رئيس الطائفة الشافعية أخذ عنه أصول الفقه وعلم الكلام, كذلك أبو حامد الغزالي الذي قيل أنه التقى به في الشام أيام تزهُّدِه على خلاف في ذلك,**عبد الواحد**

نتج عن رحلة ابن تومرت إلى المشرق تغيّر جذري في شخصيّته, حيث بلغ درجة من الإيمان عبّر عنها ابن خلكان بقوله:(كان ورعا ناسكا متقشّفا مخشوشنا مُخْلَولقا كثير الإطراق, بسّاما في وجوه الناس, مقبلا على العبادة, لا يصحبه من متاع الدنيا إلاّ عصا وركوة, وكان شجاعا فصيحا في لسان العربي و المغربي,شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع,..)[709], وأول ما ظهر منه هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[710].

الأساس الأوّل: تقييم الواقع

خلال رحلة العودة إلى بلاد المغرب وهو مشبّع بما حفظه من علوم نظر المهدي إلى البلاد والعباد بنظرة مختلفة, فهي نظرة العالم الزاهد الذي أصبح ذو بصيرة يميّز بين الخطأ و الصواب, فوجد أن الواقع المغربي قد طرأ عليه الفساد في ميادين مختلفة نتيجة التصرّفات الخاطئة لثلاثة طوائف هي: طائفة الحكّام وطائفة العلماء وطائفة المداهنين من العامة و الدهماء, بطبيعة الحال الطائفة الرابعة هي التي تجمع كل من في قلبه خير من أهل العلم[711]والعامة الذين هم منكرون بقلوبهم لا يستطيعون التغيير أوهم واقعون في الجهل بكل بساطة[712].

الطائفة الأولى هي طائفة الحكام[713] الذي اختلّ فيهم أمرين شرعي وسياسي اجتماعي, فالشرعيّ هو ما اتُّهِموا به من قبل المهدي من تجسيم وكفر وخصّص لهم أبواب في كتابه أعز ما يطلب يوضّح فيه أحوالهم ويحذّر منهم[714],أمّا السياسي الاجتماعي هو فساد حالهم على

المراكشي: المعجب,ص.245,ابن الأثير:الكامل في التاريخ,ج9,ص.195, رشيد بورويبةابن تومرت,ص.26-27, علي إدريس: الإمامة عن ابن تومرت,ص.108-113

([709])**ابن خلكان: وفيات الأعيان,ج5,ص.46.**

([710])**رشيد بورويبة: المرجع السابق,ص.33.**

([711]) أمر طبيعي وجود من فيه الخير –إذا سلّمنا بمنهج المهدي- لأنه لا تجتمع أمة الرسول صلى الله عليه وسلّم على ضلالة كما ورد في الحديث, ولنا ما يؤكّد ذلك كقبول دعوته من قبل الكثير من الناس وأولهم أصحابه, كذلك وجود من الخاصة من حذّره من بطش السلطان أمثال القائد المرابطي **يينتان بن عمران** الذي نصح أمير المرابطين علي بن يوسف بعدم حبسه ومن آواه كشيخ أغمات **عثمان المعلّم** الذي حلّ عند المهدي وأصحابه ضيوفا,**البيدق: أخبار المهدي,ص.28-29**

([712])**عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت (الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري),,ط2, 1415ه-1995م ,ص.80-81**

([713])نريد أن نشير إلى الكراهية االقديمة بين المراطين و المصامدة فالمرابطين ناقمين علىالمصامدة لنحلة كفر غالبيتهم(إلاّ أهل جبل درن كما وضحنا),بالإضافة إلى مقتل شيخهم عبد الله بن ياسين على يد برغواطة.**علي إدريس:الإمامة عند ابن تومرت,ص.98**

([714])حدّدهم في أربعة أبواب وهي:باب في بيان طوائف المبطلين من الملثّمين و المجسّمين وعلاماتهم, باب في علاماتهم وقطع الرسول عليه السّلام لهم بالنار والسخط والغضب واللّعنة, باب فيما أحدثوه من المناكر والمغارم وتقلّبهم في السحت و الحرام,باب في تحريم معونتهم على ظلمهم وتصديقهم على كذبهم, **ابن تومرت: أعز ما يطلب ,ص.258-263**

الكليّة, من ظلم وأكل أموال الناس بالباطل[715], جرّاء كل هذا تبيّن للناس جهلهم وحيدهم عن السبيل سويّ[716].

أمّا الطائفة الثانية فهم العلماء والفقهاء فكان ابن تومرت يمقتها فهي شرّ الطوائف لأنهم يعلمون الحق ويكتمونه, بتلبيسه وتحميله من التأويل ما لا يحتمل, من أجل عرض من الدنيا فهم(تسموا باسم العلم,ونسبوا أنفسهم إلى السنّة, وتزيّنوا بالفقه و الدّين, وتعلّقوا بالكفر, وانحازوا إلى جنبتهم, واستفرغوا مجهودهم في معونتهم وفي طلب مرضاتهم لما رأوا الدنيا في جنبتهم, وتركوا دينهم وراء ظهورهم, وأعانوهم على الباطل, فصوبوا لهم ضلالتهم عن الطريق, وحيدهم عن السبيل, وقالوا لهم إنّهم على الحق المبين, والطريق المستقيم)[717].

غلب على هؤلاء العلماء الذين كانوا ضد ابن تومرت الحسد لما رأوا منه من غزارة العلم وشجاعة القول والعمل, حيث كان له أعداء من هذه الطائفة خلال كل رحلته[718] إلاّ أن المناظرة التي جرت بينه وبين علماء الحضرة السلطانية بمراكش أماطت اللّثام[719].

لم يقف العلماء عند هذا الحد بل لبّسوا على العامة وأمروهم بطاعة الحكام لأن الخروج عليه من البدع والضلالات,فقالوا لهم:(طاعتهم لازمة, والانقياد إليهم واجب عليكم)[720].

ثم الطائفة الثالثة هي الطائفة التي كان همّها عرض من الدنيا فكانت تساعد الحكام من أجل مصالحها الدنيوية, فوصفهم المهدي أنهم (عبيد الدّينار والدّرهم والخميصة, الذين كانوا تحتهم في الذل والهوان تركوا دينهم وخسروا آخرتهم ابتغاء مرضاتهم خوفا على

([715]) جاء في رسالته للموحدين(الرسالة المنظمة) بعد أن بيّن فضل المجاهدين عند الله:(فإنّهم سعوا إلى هدم الدّين وإماتة السنّة,.واستعباد الخلق, وتمادوا على الفساد في الأرض,وعلى العتو والطغيان,وعلى هلاك الحرث و النسل, والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم وخراب ديارهم وفساد بلادهم,وسفك دمائهم, واستباحوا أكل أموال اليتامى و الأرامل, وتمالئوا كلهم على ذلك وتعاونوا عليه فرحين مسرورين,لا ناهي ولا منتهي, يجمعون الحرام ويتمتّعون بالسحت ...),**رسائل موحدية**,ج1,**ص.47**

([716]),**رسائل موحدية,ج1,ص.47**

([717])**رسائل موحدية**,ج1,**ص.48**, **ابن العربي** يذكر لنا طائفة من العلماء الذين كانوا يعتمدون على فقه مالك وينكرون الخروج عنه, فكلما جاء احد من المشرق بعلم دفعوه إلى صدره وحقّروا من أمره, إلاّ أن يستتر عندهم بالمالكية ويجعل ما عنده من العلوم على رسم التبعية, **أبي بكر بن العربي:العواصم من القواصم,تحقيق عمّار طالبي, مكتبة دار التراث,القاهرة مصر,ص. 365–366** , هذا يثير عندنا تساؤلا حول وزير علي بن تاشفيين مالك بن وهيب الذي كان له علم التنجيم إلاّ انه كان يظهر ما لا يغضب المرابطين,فكيف أنه أنكر على ابن تومرت منهجه وهو قريب منه, ربّما الحسد لعب دوره.ينظر حول مالك هذا **عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.252–253**

([718])حيث نقل لنا **عبد الواحد المراكشي** أن ابن تومرت كانت له مناظرة مثلا مع فقهاء تلمسان (فكان له فيها الشفوف والظهور, لأنه وجد جوا خاليا, وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع),**المعجب,ص.251**

([719]) ينظر تفاصيل المناظرة عند **ابن أبي زرع الفاسي, الأنيس,ص.174–175**

([720])**رسائل موحدية**,ج1,**ص.47**

دنياهم..)[721],هذا هو الحال الذي كانت عليه بلاد المغرب تحت حكم المرابطين وفق نظرة المهدي نفسه[722], وهذا ما يجعل الشكّ يساورنا حول ما قيل لكننا لا نعدم من المصادر التي هي بعيدة عن الفكر المهدوي تأكّد لنا على الأقل حقيقة التدهور الأخلاقي والسياسي لدولة المرابطين في تلك الفترة التي ظهر فيها المهدي[723].

الأساس الثاني: تحديد البديل

بيّنا فيما سبق ولو بإيجاز حال بلاد المغرب الإسلامي و الأندلس من تدهور روحي وسياسي واجتماعي وفق نظرة محمد بن تومرت لها, فكان لابد من وجود بديل مقبول لهذا الوضع المزري, لذلك نلمس حرصه على هذا التنظير للبديل الذيكان يراه واجبا عليه تحقيقه, فمنذ رجوعه من المشرق وأينما حلّ كان فيهم آمرا بمعروف أو منكرا لمنكر, كما أنه حرص على تكوين جماعة من الطلبة تكون له ذِخْرا فيما هو مقبل عليه.

1- **تجديد العقيـــــــدة:** تتحصر النقاط الرئيسية للعقيدة الموحدية في التوحيد ونظرية الإله والنبوّة والقدرة والإيمان بالمهدي[724].

- **نظرته للتوحيد:** كان المهدي يرى أن التوحيد هو الأساس القويم لدعوته فقال: (التوحيد هو أساس الدّين الذي بني عليه, وأن فروعه إنّما تثبت بعد العلم بثبوته) [725] فنجد أنه أطلق على أصحابه وأتباعه اسم*الموحدين*[726], إلاّ أن المهدي لم يعتمد إلاّ على البعد العقائدي لمعنى التوحيد بل تعدّاه إلى المفهوم السياسي الاجتماعي لكي لا يبقى هذا الأصل الأصيل للدّين وهو التوحيد طيّ الحِلَقْ العلمية وفي بطون الكتب, بل واجب على المؤمن أن يجسّده على أرض الواقع, حيث رمى المرابطين بالتجسيم وربط ذلك بظلم الرعية والإفساد في الأرض وهذا له بعد سياسي اجتماعي حيث قال: (باب في بيان طوائف المبطلين من الملثّمين والمجسمين وعلاماتهم, ...والذي ظهر- أي من علاماتهم- من أحوالهم وأفعالهم ثمان إحداهن أنهم في

([721])**ابن تومرت: أعز ما يطلب ,ص.263.**

([722])**عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت,ص.81 -85**

([723]) يقول **الصلاّبي** إنّ من أعظم أسباب سقوط الدولة الذنوب و المعاصي وارتكاب الكبائر و المظالم.**تاريخ دولتي المرابطين والموحدين,ص.241** والصلاّبي من الناقمين على الموحدين ومنهجهم.

([724])**رشيد بورويبة: إبن تومرت,ص.97.**

([725])**ابن تومرت: أعز ما يطلب,ص.271** انظر معنى التوحيد الذي جاء به المهدي عند ,**رشيد بورويبة: المرجع السابق,ص.97-102** ,**عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت,ص. 90 -92**

([726]) كان الغرض من تسمية أتباعه بالموحدين ليميّزهم عن المرابطين-المجسّمين كما سمّاهم- الذي يأخذون بظاهر الآيات دون التأويل فيجرّهم ذلك إلى التجسيم و الكفر,**عبد الواحد المراكشي:المعجب,ص.255**,**لسان الدين ابن الخطيب:الحلل الموشية,ص.78.**

أيديهم سياط كأذناب البقر, والثانية أنهم يعذّبون الناس ويضربونهم بها...)[727]وقول: (تفرّغوا لهلاك المسلمين والاعتداء عليهم,مكن الله منهمواستحلّوا الحرام حتى صار مطعمهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم ومركبهم,واستحلّوا ذلك كلّه فزادوا به كفرا على تجسيمهم...)[728], كذلك أوصى أتباعه الموحدين بتجسيد التوحيد في حياتهم العملية ومن ذلك قتال المجسّمين[729].

لذلك يمكن أنْ نخلص أنَّ المهدي غرس في قلوب أتباعه التوحيد[730] العقدي من أجل تحقيق توحيد السلطة في شخصه, فنجده يدّعي أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم من الزّلل.

المهدي المنتظر يملأ الدنيا عدلا كما ملأت ظلما وجورا, وابن تومرت هو المهدي فالعلم به واجب والسمع والطاعة له واجب واتّباعه والاقتداء بأفعاله واجب والإيمان به والتصديق به واجب والرجوع إلى علمه واجب[731].

علامة المهديّ(الإمامة والعصمة):

يقرّر ابن تومرت أن الإمام[732] الذي يحقّق العدل يجب أن يكون معصوما[733] من كل أنواع

([727])**عبد اللطيف عبادة: الفكر السياسي في ندرومة في العهدين الموحدي والزياني عند عبد المؤمن بن علي وأبي حمو موسى الزياني الثاني وإشعاعه, ج1,ص.52**

([728])**عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت,ص. 93**

([729])هناك بحث مستفيض حول المهدي بن تومرت وعقيدته المعروفة بالمرشدة راجعها عند , **الصلاّبي** وهو يبين فساد منهجه مستدلا في ذلك بقول شيخ الإسلام ابن تيمية حين سأل عن عقيدة المرشدة لابن تومرت. ومخالفا لعبد المجيد النجّار الذي كان يشيد بدورها في التعليم في المغرب, :**دولة الموحدين,ص.37-70**

([730]) علّم ابن تومرت المصامدة التوحيد بلسانهم وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد ليس بمؤمن, وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تأكل ذبيحته, فصار هذا التوحيد عن المصامدة كالقرآن العزيز,**ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب,ص. 177**

([731])**عبد المجيد النجّار: المرجع السابق,ص. 93**

([732])نظرة المهدي للإمامة نظرة شيعية معتدلة إذ يقرّر أن الإمامة ركن من أركان الدّين ولا يخلع عن الإمام صفات القداسة والتأليه ــ يقول المهدي(هي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلاّ بوجوب الاعتقاد في الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة), **ابن تومرت:أعز ما يطلب,ص.245**ــ لكنه لا ينظر إليها كضرورة مذهبية كالشيعة بل يعتبرها كضرورة اجتماعية نتجت عن واقع فاسد في كل المجالات . **حفناوي بعلي: عبد المؤمن الندرومي والنظرية الموحدية,المهدوية مشروع دولة ومجتمع.عقيدة وميثيولوجيا, سلسلة إصدارات جمعية الموحدية (ندرومة مدينة عبد المؤمن,مجتمع,أنثروبولوجيا وذاكرة), جمع وإعداد عز الدين ميدون ,ج2 1432ه-2011م,ص.33-34**

([733]) مقصود العصمة عند ابن تومرت هو أن يكون معصوما من الباطل والظلال والفساد والجور والبدع والكذب والعمل بالجهل, لأنه من وُجِدت فيه هذه الصفات لا يستطيع أن يحاربها في غيره, فهو مفهوم لغوي أكثر منه مذهبي.علي **إدريس: الإمامة عند ابن تومرت,ص.172-173**, ينظر مفهومها **عند ابن القطّان:نظم الجمان'ص.91 وما بعدها**

يذكر **عصمت عب اللّطيف دندش** أن اتخاذ ابن تومرت لحادثة حرق كتاب الإحياء للغزالي هو مطيّة لا غير لإسقاط حكم المرابطين , وذلك كونه كان مخالفا لأفكار الغزالي على طول الطريق, ومن ذلك أن نظرية الإمام المعصوم التي كانت مسألة مصيرية في دعوة المهدي, عارضها الغزالي بل وسخر منها,**الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين ص.39-40**

لم يكن ابن تومرت على اتفاق مع الغزالي في كل ما كان يقول وارتقى ذلك حتى إلى العقائد, ومن ذلك تكليف العباد ما لا يطيقون ومحاسبتهم على ذلك, كذلك حول الإمام المعصوم الذي اعتقد فيه ابن تومرت عقيدة الشيعة في حين نفى الغزالي العصمة عنه, وهو أمر

الباطل و الظلم والظلال والبدع[734], ولذلك يقول عبد الرحمان بن خلدون:(ولم يحفظ عنه فلتة في البدعة, إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم)[735], إلاّ أن بعضهم أرجع إدّعاء العصمة ناتج عن الوضع الكارثي الذي كان سائدا ولا يُخرج الناس منه إلاّ الإمام المعصوم, وهو بعيد كل البعد عن المفهوم الشيعي للإمامة[736].في الجانب العملي نجد ابن تومرت يستفيد من إمامته المطلقة باعتباره المهدي وعصمته لكي يحرّض الناس على قتال المرابطين الذين هم إخوانهم في الدّين, فمن الطبيعي أنْ تُطرح تساؤلات داخل المصامدة حول مدى صحّة الخروج على جماعة المسلمين وقتلهم, وعليه فالعصمة والإمامة الوسيلة الوحيدة التي تفرض على الموحّدين إطاعة المعصوم دون أي تردّد[737].

وبالتالي الخروج على أئمة الجور جائز مباح بل هو من علامات الإيمان بالهدي ,فخرج الموحدون على المرابطين وأطاحوا بأركان دولتهم, امتثالا لأمر الله عزّ وجل القائل في كتابه العزيز:﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[738], فعمد ابن تومرت بعد فشله في إصلاح الدولة دعويا إلى تغيير طريقته فعدل عن منهج الوعظ إلى منهج الثورة[739].

الرجوع إلى الأصلين(القرآن والسنّة) ونبذ الفروع:

كان مذهب أهل المغرب هو مذهب ملك بن أنس فهم سلفيين[740] منذ أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجي الرجوع إلى مذهب مالك ونبذ مذهب العبيديين الشيعة, حتى جاء محمد بن تومرت من المشرق محاولا إحداث انقلاب جديد سياسي وعلمي وديني, فأخذ بطريقة الأشاعرة [741].

جوهري بالنسبة لدعوة المهدي عصمة الإمام. I. Goldziher : Mohammed ibn toumert et la théologie de l'islam dans le nord de l'afrique au XIe siècle ,p.21 .

(734) **ابن تومرت: أعز ما يطلب,ص.245**

(735)**عبد الرحمن بن خلدون:العبر,ج6,ص.306**

(736)**علي إدريس: الإمامة عند ابن تومرت, ص.175**

(737) قال ابن تومرت للموحدين: (اقصدوا هؤلاء المارقين المبدّلين الذين تسموا بالمرابطين, فادعوهم إلى إماتة المنكر, وإحياء المعروف, وإزالة البدع, والإقرار بالإمام المهدي المعصوم,..),**عبد الواحد المراكشي:المعجب,,ص.259-260**

(738)**سورة الشعراء,آية 151-152**

(739)**عبد اللطيف عبادة: الفكر السياسي في ندرومة في العهدين الموحدي والزياني عند عبد المؤمن بن علي وأبي حمو موسى الزياني الثاني وإشعاعه,ص.53**

(740)السلفي هو من يتّبع كتاب الله و سنّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم وفق فهم السلف الصالح

(741)**مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث,ج.2,ص.339**

كان من مآخذ ابن تومرت على المصامدة هو أنهم مجسّمة, بالإضافة أنهم عطّلوا الأصلين كتاب الله وسنّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلّم, وكان همّهم منصب على الفروع, حيث أن صاحب المعجب يقول:(ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويَحْظَى عنده إلاّ من علم الفروع, أعني فروع مذهب مالك,فَنَفَقَت في ذلك الزّمان كُتب المذهب وعمل بمقتضاها ونُبِذ ما سواها, وكثُر ذلك حتىنُسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم)[742].

- **طريقته في ذلك :**

أعتمد على طريقتين الطريقة النظرية الاستدلالية والطريقة العملية التطبيقية, فالأولى موجّهة إلى أهل العلم بيّن فيها أن الكتاب والسنة هما الأصل الذي يأخذ منه في العقيدة والعبادات والمعاملات ,وما سواهما من قياسٍ وظنٍ وخبرِ الآحاد لا يصلح أن يكون أصلا, وبيّن العلاقة الصحيحة التي تربط الأصل بالفرع لكي لا يأخذ أحدهما مرتبة الآخر, وكتب في ذلك كتب كأعزّ ما يطلب, ورسالة في أن الشريعة لا تثبت بالعقل, ورسالة في أصول الفقه[743].

لم يكتفي المهدي بتدريس العقيدة بل عمل جاهدا على تطبيقها على أرض الواقع, ففرض على أصحابه حفظ أجزاء من الأصلين(الكتاب والسنة) خاصة تلك التي تتعلّق بالعبادات وبالجهاد, وألّف مختصرين لأهم مؤلفات الحديث هما: مختصر الموطأ ومختصر مسلم اكتف فيهما بالنص على الإسناد لتسهيل حفظهما على العامة, كما نلاحظ انه كان يستدلّ في رسالاته بالقرآن الكريم والحديث الشريف[744].

2- التغيير السياسي والاجتماعي:

لا طالما رأينا المهدي يتهجّم على المرابطين منذ رجوعه إلى بلاد المغرب,يبيّن زللهم أولا من خلال ما كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر, ثم إعلانه صراحة نقمته على النظام المرابطي خلال مناظرته مع علماء الدولة بحضور أميرهم علي بن يوسف, وكان يسعى إلى

([742]) عبد الواحد المراكشي:المعجب, ص.236.

([743])عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت,ص.96-97

([744])عبد المجيد النجّار: المرجع نفسه,ص. 97-98

تأسيس دولة تقوم على العدل السياسي والاجتماعي, ومن اجل ذلك سعى لتحقيق هدفه يلمسها الباحث في مجالات مختلفة منها:

- **التأسيس لحكم شوري:**

أنكر المهدي على المرابطين تفرّدهم بالحكم وظلمهم للرعيّة بشكل غير مباشر فنجده أثناء المناظرة التي جمعته مع علماء المرابطين بمرّاكش يتّهمهم باستغلال مناصبهم وعدم المبالاة بما يقع في المجتمع من ظلم وفواحش حيث قال لهم بعدما اتّهموه بجملة من التهم:(إنّه مغرور بما تقولون له وتضرّونه به, مع علمكم أن الحجّة عليه متوجّهة, فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهارا, وتمشي الخنازير بين المسلمين, وتؤخذ أموال اليتامى) [745], جاء في رسالة المهدي إلى الموحدين: (فإنّهم سعوا في هدم الدّين وإماتة السنّة واستعباد الخلق) [746].

لم يكن المهدي ليخالف ما كان ينهى عنه ولو في الظاهر فقام بإنشاء المجالس المعروفة[747], وكان يظهر عليه الوقار و الخشية و التقشّف, إلاّ أنه استعمل الحيلة المميتة لكي يضمن نجاح مسيرته في تأسيس الدولة, مثل عمليّة التمييز التي راح ضحيّتها عدد كبير من المصامدة[748], كذلك الكذب والمكر الذي تميّز به وأوّل ذلك الكذب هو ادّعاؤه المهدوية وهو عالم في قرار نفسه أنّه ليس المهدي.

- **العدل و المساواة:**

كان حريصا عل العدل بين الناس مخالفة للمجسّمين كما سمّاهم الذين كانوا بعيدين عن العدل حيث قال: (وتمادوا على الفساد في الأرض,وعلى العتو والطغيان,وعلى هلاك الحرث والنسل, والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم,وخراب ديارهم وفساد بلادهم, وسفك دمائهم, واستباحوا أكل أموال اليتامى والأرامل) [749]. كما كان يقسّم الغنيمة على الموحدين بعد الحروب.

---

(745) **الناصري:الاستقصاء,ج2,ص.76.**

(746) **رسائل موحدية,ج1,ص.47.**

(747) نقصد هنا مجلس العشرة والخمسين و السبعين

(748) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ, ج9 ص.198-199,كذلك ابن أبيس زرع: الأنيس المطرب, ص.179 وص.195.**

(749) **رسائل موحدية,ج1,ص.47.**

إلاّ أنّنا نلاحظ تعسّفه في كثير من المواقف مثل تقسيمه لأراضي أهل تينملل على الموحدين بعد أن قتلهم شرّ قتله[750] , وكان مشهور عندهم مقولة (أن أهل الجماعة و صبيانهم, عبيدهم كلّ من في الدنيا) التي قالوها لعبد المؤمن لمّا أراد قتل قاتل أخيه[751].

- **التآخي والتناصر:**

أول دليل على هذا الاتجاه هو تسمية أتباعه بالموحدين, هذا الاسم الجامع لكل من دخل دعوته دون استثناء, كما انّه آخى بين القبائل وبين الأفراد, وكانت موعظته تصبّ في ذلك كقوله: (وتعاونوا على البرّ والتقوى, ولا تعاونوا على الإثم والعدوان,وائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر..)[752].

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

كان المهدي يصدع بما في نفسه أمام الحكّام وكان كلّما يمر بمدينة يأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر, الرعيّة والحاكم على سواء وهذا ما جرّ عليه الويلات , وكان يقول في هذا المجال: (إنّ الفساد يجب دفعه على الكافة, وإنّ الفساد لا يجوز التمادي على قليله و كثيره)[753]. وقد نقل ابن القطّان والبيدق مجموعة من أفعاله مع العامة وأهل الحكم [754].

([750])**ابن الأثير: الكامل في التاريخ,ج9,ص.197**

([751]) ينظر ذكرا للحادثة عند **البيدق: أخبار المهدي,ص.55**

([752])**عبد المجيد النجّار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت,ص.104**

([753])**عبد المجيد النجّار: نفسه**, ص.104

([754])**ابن القطان:نظم الجمان,ص.92-94 ,كذلك البيدق: أخبار المهدي**, من خلال تتبع رحلته.

- **تقشفه وأمره أصحابه بذلك:**

عاش ومات متقشّفا ورعا حيث جاء في كتاب وفيات الأعيان:(وكان قوّته من غزل أخت له رغيفا في كل يوم بقليل سمن أو زيت, ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا, ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه , فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه: وقال من كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلاّ ما رأى, ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى...)(755),بادر الموت ابن تومرت سنة524ه-1130م والدولة الموحدية في بدايتها, لكن هذا لم يمنع خلفاءه من استكمال مسيرة البناء على الأقل حتى عهد أبي يوسف يعقوب المنصور, فاتّبع عبد المؤمن نفس طريق المهدي في مسألة التوحيد والعصمة وتعظيم المهدي(756), لكنّه خالفه فيما يخصّ نظام الحكم فانتقل به من الشورى إلى الوراثة, كما انّه وسّع من معنى التوحيد فجعله يعتمد على مدى الولاء للدولة وليس للعصبيّة القبلية.

الدعوة الدينية كانت مفتاح الفرج في الأمة الإسلامية خاصة حين ينتشر الفساد والظلم والآفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية, والمغاربة بطبعهم البدوي أقرب إلى الخير والخلال الحميدة كانوا يجتمعون حول دعاة الخير والتغيير بفطرتهم المحبّة للدّين وآل البيت,لذلك نجد أنّ معظم الدعوات الدينية و المذهبية نجحت في تأسيس دولٍ لها في هذه الربوع.

كما نلاحظ أن بعضا من الدعاة لم يكتفوا بالدعوة إلى المذاهب المعروفة بل كانوا يسعون إلى إحداث مذاهب جديدة كانت في غالبيتها مذاهب خارجية, ومنهم من مزج المذاهب الدينية

---

(755)ابن خلكان:الوفيات, ج5,ص.54.

(756)عبد اللطيف عبادة: الفكر السياسي في ندرومة في العهدين الموحدي والزياني عند عبد المؤمن بن علي وأبي حمو موسى الزياني الثاني وإشعاعه, ,ص.56-57

المعروفة بمذهبه السياسي, إلاّ أن محمد بن تومرت هو المغربي الوحيد الذي أخذ مزيجا من مجموعة من المذاهب (المالكي,الأشعري, المعتزلي, الشيعي) , وهو أوّل من ادّعى المهدوية من البربر في بلاد المغرب, لكنه في كل ذلك كان هدفه هو التأسيس لدولة جديدة تطيح بالنظام القديم.

الخـــاتمة

تمكن ابن خلدون من تحصيل قدر معتبر في مختلف العلوم خلال مشواره التعليمي, ونقصد بها تلك التي قضاها في صباه بتونس طالبا للعلم, أو التي قضاها في خدمة المرينيين كاتبا على عهد السلطان أبي عنان فارس, والتي لم تمنعه من حضوره لمجالس العلم التي كانت متعدّدة في البلاد.

من المفروض أن يكون دخوله لميدان السياسة عائقا يمنعه من التفرّغ لطلب العلم, لِمَا في هذا المضمار من مشاغل تعكّر عليه جو الطلب,إلاّ أننا نجد أن الرجل في عزلته في قلعة بني سلامة تمكن من تأليف المقدّمة, وكان لخلوته الدور الفعّال في ذلك, فجاء لنا ببحثه العظيم حول العمران البشري وأهم الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها من هذا البحث:

- ظهر لعبد الرحمن أمر بالغ في الأهمية وهو أن دراسة أي ظاهرة اجتماعية ومنها الاجتماع الإنساني الذي يفضي إذا ما توفّرت فيه شروط معيّنة إلى تأسيس الدوليستلزم تحليلها تحليلا علميا بنفس آليات ومناهج تحليل العلوم الوضعية التجريبية, وأنّ الذين سبقوه في هذا المجال إمّا أنهم أغفلوا هذا المنهج بالكلية أو حاموا حوله, لكن دون أن يربطوا أفكارهم فتصبح متسلسلة واضحة كما فعل هو فنتج له ما يعرف حديثا بعلم العمران البشري.
- شهد عصر ابن خلدون تنافسا كبيرا في العلوم وإجلالا للعلماء رغم أن الدويلات التي كانت قائمة إبّانه كانت منقسمة متصارعة سياسيا, ونقصد بالذكر الزيانيين والمرينيين والحفصيين, ولم يكن بنو الأحمر أفضل منهم حالا نتيجة تكالب النصارى على ما تبقى من الأندلس.

إلاّ أن الحياة الثقافية والعلمية فاقت كل وصف نتيجة لعوامل يضيق بنا المقام لذكرها, وأصبح العلماء ذو شأن في بلاطات الحكام يجلّونهم ويقرّبونهم, وما قصة التنسّي الجد الذي كان سفيرا ليغمراسن بن زيّان حيث كان يغتنم الفرصة للتدريس, وكذلك حملة أبو الحسن المريني على تونس سنة 749ه-1349م وما صحبه فيها من علماء أجلاء لدليل على هذه المنزلة.

- كانت رحلة عبد الرحمن من أهم ما حدث له في مشواره حسب رأينا خاصة وأنها خالطته بالفئتين, العلماء والسلاطين فاكتسب من جراء ذلك خبرة سياسية وعلمية فريدة من نوعها, ونلمس ذلك من المرتبة الرفيعة التي كانت له عند أهل البلاط فرغم مشاركته في أحداثٍ ضدّ بعضهم,إلاّ انه كان يلاقي العفو والإكرام .

- نلمس من تتبع حياته في جانبها السياسي أنه كان يسعى إلى أعلى المناصب في الدولة, فنجده يشغل مناصب لا يرتضيها لنفسه كما ذكر هو ذلك, لكنه كان يلاقي دائما الفشل في مسعاه في حين أن بعض من ليس له العلم تجده يتقلّب في المناصب دون عناء.

- خلص عبد الرحمن إلى نتيجة حتمية قادته إلى إجابتين عن تساؤلاته, الأولى أن العلم لوحده لا يوصل إلى المناصب العالية في الدولة, والثانية أن الحكم ينبني أساسا على أمر أقوى من العلم ألا وهو القوّة بشكل عام, والقوّة في تلك الأيام كانت تستمدّ من القبيلة أو ما يعرف بالعصبية الغالبة,فمن لم تكن له عصبية تحميه لا يمكنه أن يطلب المناصب الرفيعة ناهيك عن الملك.

- أصبحت نظريته في الدولة مبنيّة أساسا على العصبية القويّة التي تسمو فوق كل العصبيات الأخرى, كشرط أساسي لتحقيق الملك, والدول القائمة على مبدأ عصبي سوف تتطور بسبب هذه العصبيّة ما دامت محافظة على صفات وخلال البداوة, لكنها سرعان ما تبدأ بالنزول بمجرّد تنازلها عن هذه الصفات, وهذا أمر حتمي(عَرّفه بطبائع العمران) ناتج عن دخول عوامل عديدة على رأسها الحضارة وما يصحبها من تنافس في الدنيا, فتنكسر شوكة العصبية وتطرأ على الدولة أحداث جديدة كاستفراد الحاكم بالحكم دون عصبيّته التي سقطت في ملذّات الجاه والسلطة.

-إنّ الأمر ليس سلبيا إلى هذه الدرجة ما دام التغييّر داخل في نطاق الدورة العصبية, بمعنى انتقال الأمر من قوّة ضعيفة إلى أخرى قويّة, من نفس العصبية العامة, فمثلا خروج الحكم من يد المرابطين وهم قبائل بربرية إلى الموحدين وهم كذلك قبائل بربرية لا يُخِلُّ بالعمران, لكن الخلل يقع حين ينتقل الحكم من عصبية عامة إلى عصبية عامة أخرى مختلفة عنها. وهنا يكون الخلل العظيم في العمران.

- إن الدول والحضارات يمكن أن تقوم بدون دين أو دعوة دينية, لكنها لا تقوم دون عصبية غالبة, ومع ذلك فإن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوّة على قوّتها فتمدّد من عمرها وتوسعها الجغرافي, وذلك بتقوية عصبيّتها وتبديلها من عصبيّة قبلية إلى عصبية دينية.

- هذا ما حدث لعصبية مصمودة التي كانت تكسب من القوّة ما لا يستهان بها, لكنها كانت ضعيفة أمام من هو أقوى منها,ونعني قبيلة صنهاجة وقبيلة زناتة اللتين كانتا أوغر منها في البداوة.

- كان الصراع حتى هذا المستوى قائم من أجل المعاش, ففي الغالب حاول المصامدة الحفاظ على مواطنهم التي منحتهم الاستقرار ووفرت لهم سبل العيش المتمثل أساسا في الفلاحة.

- إن العصبيات الخاصة في مصمودة تمكنت في فترات مختلفة من تحقيق الملك, لكنه كان ملكا ناقصا لم تدخل تحته كل العصبيات, وكان في الغالب تابعا سياسيا على الأقل لعصبيات أخرى.

- ظهور عامل جديد وهو الدعوة الدينية مكّنت هذه العصبية من التفوّق وانتزاع الملك, فنجد أن دعوة المهدي تمكنت من جمع مختلف العصبيات الخاصة المصمودية تحت نظام واحد مبني على أساس ديني.

-واستمرت هذه الدعوة في صونها للدولة على عهد عبد المؤمن بن علي رغم استفراده بالحكم وجعله في عقبه, لما تشبّع به المصامدة من مبادئ فجعلتهم ينتصرون للدولة على حساب عصبيتهم, فكان اختيار عبد المؤمن خليفة للمهدي وهو ليس من قبيلهم لأبرز دليل على ذلك , وحتى لما استفرد عبد المؤمن بالحكم وجعله في عقبه لم يخرج عليه المصامدة إلاّ ما بدر من قبيلة المهدي (هرغة), وذلك راجع إلى تمكّن الدعوة من قلوبهم.

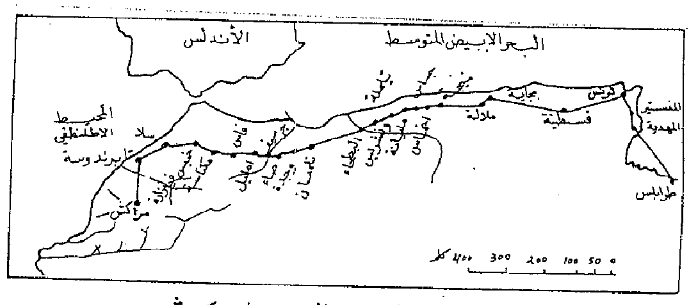
-أخيرا يمكن أن نقول أنّ عبد الرحمن بن خلدون استطاع أن يشخّص المعضلة في مشكلة الدولة,فيجدها تتأسس نتيجة الصراع بين القبائل الذي يكون ظاهره سياسيا, إلاّ أنه في الحقيقة صراع من أجل المعاش (أي من أجل البقاء), وهذا الصراع في حدّ ذاته أمر طبيعي في العمران بل هو لازم لتطور هذا الأخير, وبالتالي يصبح الصراع(وبدون إرادة من القبائل الداخلة في خضمّه) الوسيلة الوحيدة لدخول العصبية المتغلبة مجال الحضارة وذلك بتأسيس الدولة, وكذلك كان الحال بالنسبة للدولة الموحدية التي كانت نتيجة للدورة العصبية, فأسهمت في توحيد مجتمع المغرب الإسلامي وفتحت المجال للخوض في مكوّنات الحضارة بمفهومها الواسع, وما إنجازات عبد المؤمن بن علي وأبنائه لأبرز دليل على ذلك.

لا أَزْعُم أني ألممت بنظرية عبد الرحمن بن خلدون في شروط تأسيس الدولة بل أتمنى أن أكون رغم صعوبة البحث قد وُفِّقت الولوج فيها ولوج المتأنّي دون الإساءة لها وتشويهها, وسوف نسعى في المستقبل بفضل الله ونعمته, ثم بمعونة أساتذتنا الكرام إلى تكثيف الجهود في هذا المجال.

ملاحـــــــــــق

الخرائط

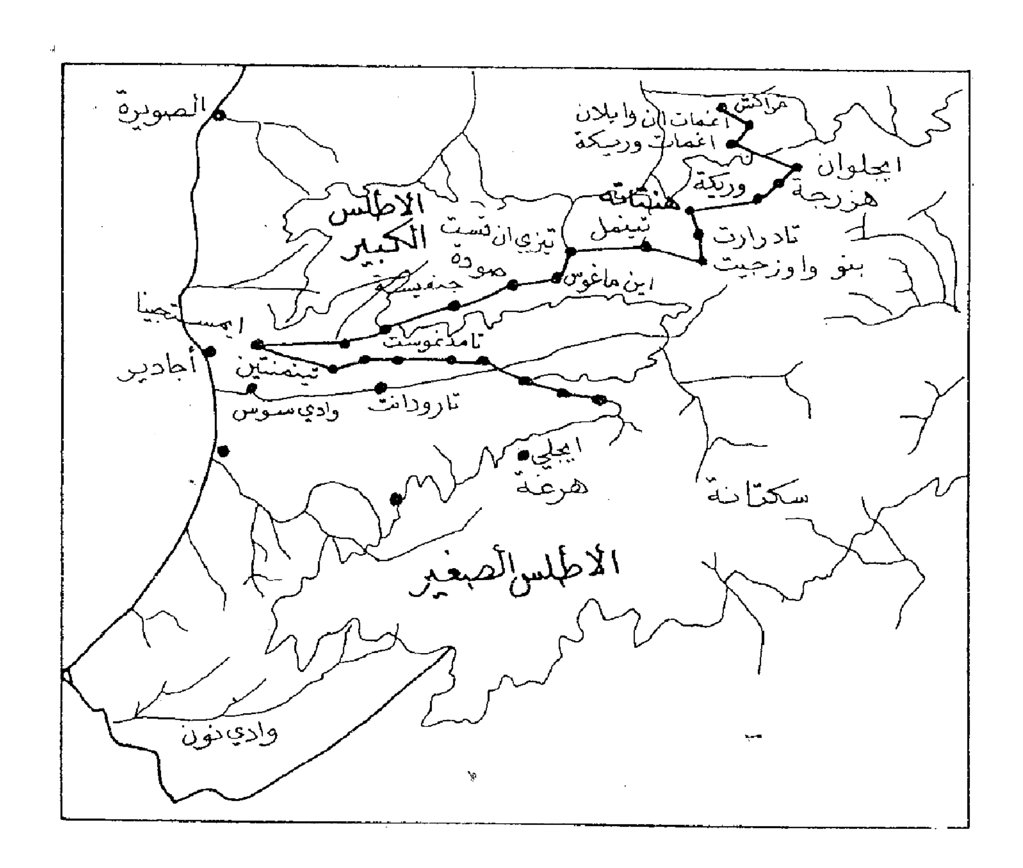
ملحق رقم 01: رحلة المهدي من طرابلس إلى مراكش



الرحلة من طرابلس الى مراكش

رشيد بورويبة: إبن تومرت،ص.47

ملحق رقم 02: الطريق التي سلكها المهدي بن تومرت من مراكش إلى ايجلي



رشيد بوروبة إبن تومرت،ص.60

الــوثــائــق و الــنــصــوص

ملـحق رقـم :03 صفـحة من مـقـدمـة عبـد الـرحمن بـخطه



1. Autograph of Ibn Khaldûn (upper left corner)
From MS. C (Atif Effendi 1936)

كحلوش نادية: مصطلحات العمران في مقدمة ابن خلدون،ص. 62

الجداول

ملحق رقم :04

نسبة ممثلي القبائل في مجلس الخمسين

أسماء القبائل	في رواية كتاب الأنساب	في رواية ابن قطان
هرغة	8	6
تينمل	10	14
هنتاتة	2 و آخرون	3
جدميوة	4	2
جنفيسة	4	4
صنهاجة	3	3
هسكورة	4	3
قبائل أخرى	1	1
الغرباء	0	5

رشيد بورويبة : إبن تومرت,ص.93

نسبة ممثلي القبائل في مجلس الخمسين

	هرغة	أهل تينمل	هنتاتة	كدميوة	كنفيسة	صنهاجة	القبائل	هسكورة
كتاب الأنساب قبل التمييز	8	19	2؟	4	4	3	1	4
كتاب الأنساب بعد التمييز	8	21	8؟	4	5	3	1	4
إبن صاحب الصلاة	6	14	3	2	4	3	1	3

عمر موسى عزّ الدّين: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم,ص.75

الصور

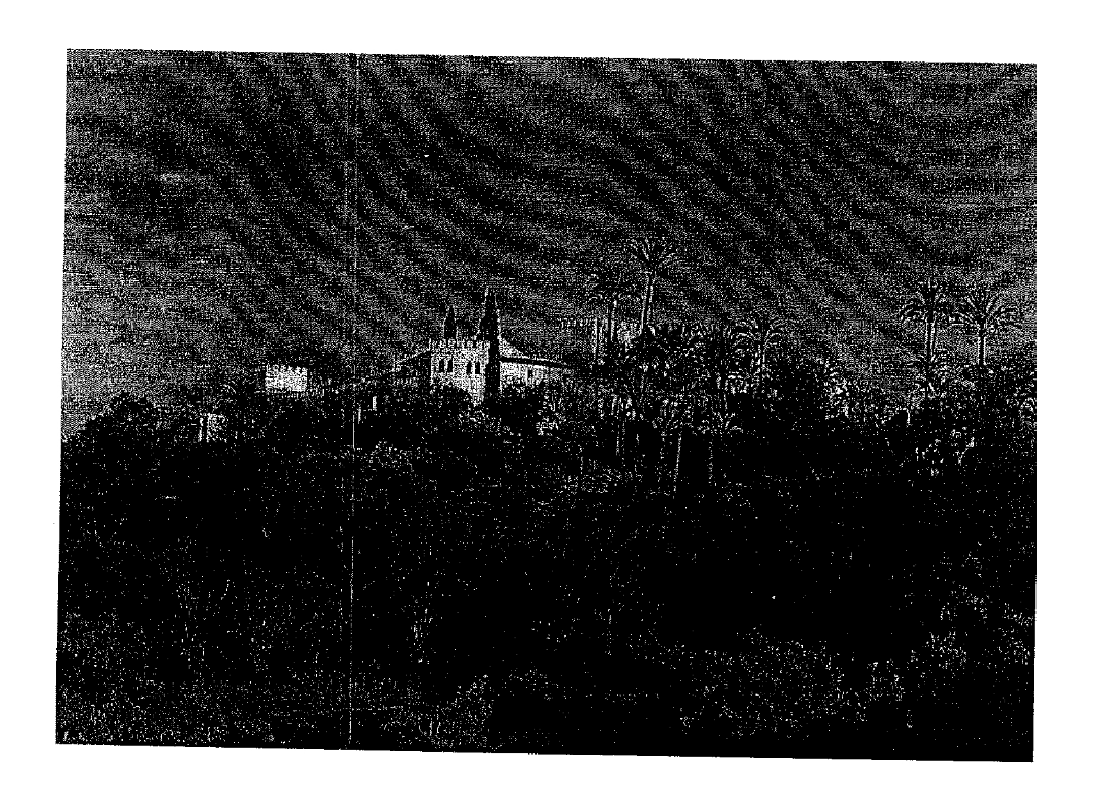
ملحق رقم : 05 دار ابن خلدون بتونس



من موقع ويكيبيديا

ملحق رقم :05

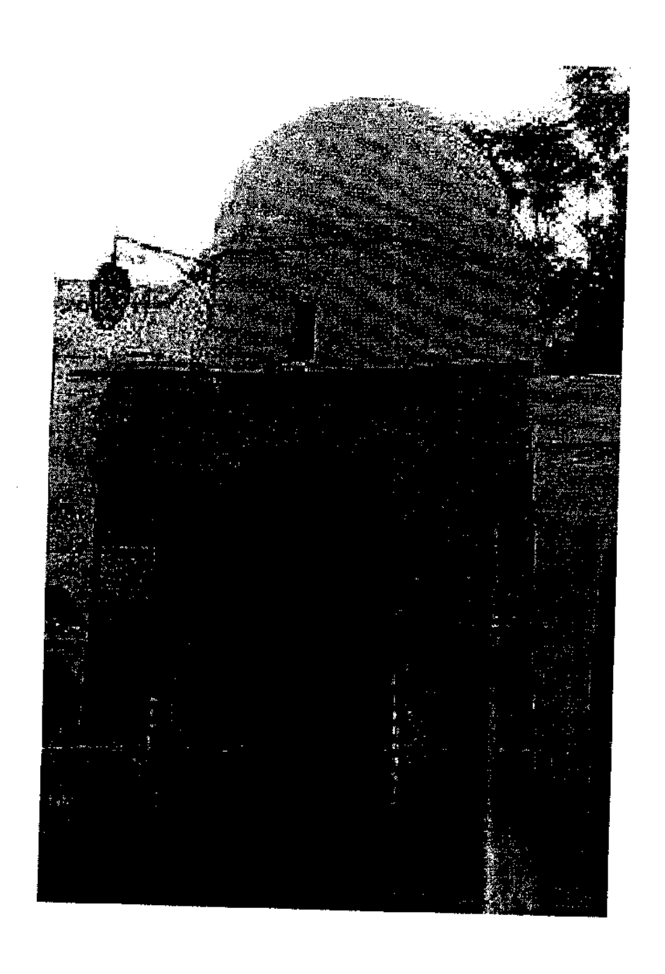
مزرعةماسيندا توري دي دونيا ماري بدوس هيرماناس إشبيلية كانت ملكية لعائلة ابن خلدون باشبيلية



من موقع ويكيبيديا

ملحق رقم :07

المسجد الذي درس في ابن خلدون خلال صباه بالعاصمة التونسية



من موقع ويكيبيديا

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

المصادر المطبوعة:

1. إبن الأثير أبي الحسن علي(ت630ه–1233م): الكامل في التاريخ من سنة 489ه لغاية سنة 561ه للهجرة, راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق, دار الكتب العلمية, بيروت لبنان, الطبعة الرابعة 1424 ه/2003م,
2. ابن الأحمر إسماعيل(ت807ه–1404م): تاريخ الدولة الزيانيةبتلمسان, تقديم و تحقيق وتعليق هاني سلامة, مكتبة الثقافة الدينية, ط11421ه– 2001م
3. روضة النسرين في دولة بني مرين, تحقيق عبد الوهاب بن منصور,المطبعة الملكية, الرباط1381ه-1962م
4. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني الشريف(من علماء القرن السادس هجري): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, مكتبة الثقافة الدينية,مصر,
5. البيدق أبي بكر بن علي الصنهاجي(صاحب المهدي بن تومرت): أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين, دار المنصور, الرباط 1390ه -1971م
6. المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب, تحقيق عبد الوهاب بن منصور, دار المنصور, الرباط 1390ه -1971م
7. البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل(ت194ه–256م):صحيح البخاري, ضبطه مصطفى ديب البغا, دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع, عين مليلة الجزائر, الجزء السادس 1412ه–1992م
8. التَّنسي محمد بن عبد الله(ت899ه–1493م): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان,مقتطف من نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان,حققه وعلّق عليه محمود أغا بوعيّاد, المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الجزائر 1432ه -2011م
9. ابن تومرت محمد: أعز ما يطلب. تحقيق جولد تسيهر, المطبعة الشرقية ببير فونتانا , الجزائر1320ه - 1903م
10. التمبكتي أحمد بابا(ت1036ه–1627م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج,إشراف و تقديم عبد الحميد عبد الله هرامة, كلية الدعوة الإسلامية طرابلس,الجزأين الأول و الثاني,الطبعة الأولى1398ه- 1989م

11.الحميري محمد بن عبد المنعم:الروض المعطار في خبر الأقطار, حققه إحسان عباس , مكتبة لبنان,الطبعة الثانية1404ه-1984م

12.ابن خلدون عبد الرحمن (ت808 ه–1406م): مقدمة ابن خلدون, اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى, مؤسسة الرسالة ناشرون, سوريا, ط1 , 1433ه - 2012م

13.رحلة بن خلدون, عارضها بأصولها و علق حواشيها, محمد بن تاويت الطنجي, دار الكتب العلمية بيروت–لبنان, ط1 1424ه-2004م

14.تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر, .ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة ,و مراجعة سهيل زكار, دار الفكر لبنان.1421ه-2000م

15.إبن خلدون يحيى(ت 780ه–1378م): بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد, مطبعة بيير فونطانا, الجزائر ط1 1321ه-1903م,

16.ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 776ه–1374م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية, تصحيح البشير فورتي, مطبعة التقدم الإسلامي , تونس,ط1

17.اللمحة البدرية في الدولة النصرية,صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب,المطبعة السلفية القاهرة 1347ه-1928م

18.الإحاطة في أخبار غرناطة, تحقيق محمد عبد الله عنان,مكتبة الخانجي القاهرة,ط1 1394ه /1974م

19.إبن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت681ه–1282م):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق احسان عباس,دار صادر بيروت

20.ابن أبي دينار:أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني(1092ه–1681م): كتاب المؤنس في أخبار إفريقية و تونس, المطبعة التونسية, الطبعة الأولى 1286ه–1869م

21.ابن أبي زرع أبو الحسن علي الفاسي (ت بعد712ه–1312م): الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية, دار المنصور الرباط 1392ه-1972م

22.الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة و الوراقة الرباط , 1392ه-1972م

23.الزركشي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية, تحقيقي وتعليق محمد ماضود, المكتبة العتيقة, تونس

24.السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمان(ت902ه–1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع,دار الجيل,بيروت.لبنان

25.السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى, تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري,دار الكتاب الدار البيضاء, 1373ه–1954م

26.ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد :الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية,تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري,الدار العربية للكتاب 1404ه -1984م

27.ابن صاحب الصلاة عبد الملك ابن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي (594ه–1198م),المن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين, تحقيق عبد الهادي التازي, دار الغرب الإسلامي ,ط3 1407ه -1987م

28.ابن عذارى المراكشي(ت بعد 712ه–1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب , قسم الموحدين, تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و محمد بن تاويت و محمد زنيبر و عبد القادر زمامة, دار الغرب الإسلامي , لبنان , الطبعة الأولى 1405ه -1985م

29.ابن العربي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري(543ه–1148م): العواصم من القواسم,تحقيق عمّار طالبي, مكتبة دار التراث,القاهرة مصر

30.العبدري أبي عبد الله(ت700ه–1300م): رحلة العبدري, تحقيق علي إبراهيم كروي, دار سعد الدين , دمشق. الطبعة الثانية 1426ه–2005م

31.الغبريني أحمد بن احمد بن عبد الله أبو العباس(714ه–1314م):عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابع ببجاية, حققه وعلّق عليه عادل نويهض,منشورات دار الأفاق الجديدة ,بيروت,ط2 1399ه–1979م

32.ابن فرحون إبراهيم بن نور الدين المالكي(ت799ه–1397م): الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب , تحقيق محمد الأحمدي أبو النور, دار الثرات القاهرة 1392ه/1972م

33.القزويني أبوعبد الله بن زكرياء بن محمد بن محمود(ت682ه–1283م): آثار البلاد وأخبار العباد, دار صادر لبنان

34.القرافي بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر(ت1008ه): توشيح الديباج وحلية الابتهاج, تحقيق علي عمر, مكتبة الثقافة الدينية القاهرة, الطبعة الأولى1425ه–2004م

35.ابن القطّان المراكشي أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي(كان حيا في منتصف السابع الهجري) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان,درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي,دار الغرب الإسلامي ,ط1 1410ه -1990م
36.ابن القنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسين:الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية,تقديم وتحقيق : محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي,الدار التونسية للنشر, 1387ه /1968م
37.المقري أحمد بن محمد(ت 1041ه–1632م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, حقّقه إحسان عباس,دار صادر,بيروت,1408ه-1988م
38.المقريزي تقي الدين (ت845ه–1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك, تحقيق عمر عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية لبنان
39.المراكشي محي الدّين عبد الواحد بن علي التميمي(ت 647ه–1250م) :المعجب في تلخيص أخبار المغرب,تحقيق محمد سعيد العريان,المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, الجمهورية العربية المتحدة
40.ابن مرزوق التلمساني أبو عبد الله محمد(ت781ه–1379م): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن, دراسة وتحقيق ماريا خيسوسبيغيرا, تقديم محمد بوعياد,الشركة الوطنية للنشر و التوزيع1401ه-1981م
41.الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450ه–1058م):الأحكام السلطانية و الولايات الدينية:تحقيق أحمد مبارك البغدادي,مكتبة دار ابن قتيبة, الكويت,ط1 1409ه-1989م
42.ابن مريم الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد(ت بعد 1025ه–1616م): البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان, وقف على طبعه واعتنى به محمد بن أبي شنب , المطبعة الثعالبية الجزائر1326ه-1908م
43.ابن منظور محمد بن مكرم بن علي(ت711ه–1311م): لسان العرب, تحقيق: عبد الله علي الكبير,محمد أحمد حسب الله,هاشم محمد الشاذلي, دار المعارف, القاهرة
44. مؤلف مجهول:مفاخر البربر, دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية, دار أبي رقراق,ط1 –1426ه-2005م
45.النُبَاهِي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن(كان حيا 793ه–1390م): تاريخ قضاة الأندلس(كتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا), تحقيق لجنة التراث العربي في دار الآفاق الجديدة, دار الآفاق الجديدة, بيروت, ط5 1403ه-1983م

46.ياقوت الحموي شهاب الدّين أحمد أبو عبد الله محمد(ت626ه-1228م): معجم البلدان, دار صادر بيروت, 1397ه -1977م

47.سلسلة نصوص ووثائق رقم2, رسائل موحدية, مجموعة جديدة, تحقيق ودراسة أحمد عزاوي, منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة, جامعة ابن طفيل,ط1 1422ه-2001م

المراجع:

48.أومليل علي: الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون,المركز الثقافي العربي, المغرب ,ط4 1426ه -2005م

49.إينالجيك خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار, ترجمة.م.الأرناؤوط, دار المدار الإسلامي ليبيا, ط1 1422ه-2002م

50.إسماعيل سراج الدين: مع ابن خلدون في رحلته,في كتاب اليوم, دار أخبار اليوم,الطبعة الأولى العدد489 ,الطبعة الأولى 1427ه-2006م, القاهرة

51.ابن خلدون إنجاز فكري متجدد,إعداد وتحرير: محمد الجوهري, محسن يوسف, مكتبة الإسكندرية,مصر1429ه-2008م

52.الإدريسي علي: الإمامة عند ابن تومرت دراسة مقارنة مع الإمامة الإثنيعشرية,تقديم أبو عمران الشيخ,ديوان المطبوعات الجامعية,بن عكنون الجزائر

53.عبد الأمير,ز,شمس الدين:الفكر التربوي عند ابن خلدون و ابن الأزرق,الشركة العالمية للكتاب لبنان,ط1 1416ه-1996م

54.بوتشيش إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين , دار الطليعة, بيروت لبنان

55.بورويبة رشيد: ابن تومرت, ترجمة عبد الحميد حاجيات, كنوز للنشر والتوزيع, تلمسان- الجزائر,ط1 1432ه-2011م

56.برنشفيك روبار: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر, نقله إلى العربية حمادي الساحلي , دار الغرب الإسلامي, ط1 1408ه-1988م

57. التهامي إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدّفاع عن عقيدة أهل السنّة ,مؤسسة الرسالة ناشرون, دمشق,ط1 1426ه-2005م

58.جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى, ترجمة محمود عبد الصمد هيكل, راجعه مصطفى أبو ضيف أحمد, مطبعة الانتصار, الإسكندرية, 1411ه–1991م

59.حسان محمد حسان:ابن حزم الأندلسي ,عصره ومنهجه وفكره التربوي ,دار الفكر العربي القاهرة

60.حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي,دار الجيل بيروت, ط: 14, 1416ه–1996م

61.الحصري ساطع: دراسات عن مقدمة ابن خلدون, مكتبة الخانجي, دار الكتاب العربي,ط3 . 1386ه–1967م

62.حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ, دار الرشاد الحديثة,الدار البيضاء, ,الطبعة الأولى 1398ه–1978م

63.الحريري محمد عيسى:تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني(610م–1213م,869ه–1465م),دار القلم,ط2 1407ه–1987م

64.حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس" عصر المرابطين والموحدين", مكتبة الخانجي, مصر, ط1 1400ه–1980م

65.حاجيات عبد الحميد: عبد المؤمن الكومي, شخصيته ودوره في تأسيس دولة الموحدين, مقالة من كتاب تاريخ ندرومة ونواحيها(أعلام أقطاب وشخصيات), سلسلة إصدارات جمعية الموحدية, دار الكتاب العربي

66.دراجي بوزيان :العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية(على ضوء الفكر الخلدوني), دار الكتاب العربي 1423ه–2003م

67. القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها, دار الكتاب العربي, ط4 1431ه–2010م

68. ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية سلسلة العصبية القبلية ,دار الأمل 1431ه–2010م

69.دندش عصمت عبد اللّطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائفالثاني510ه–546ه/1116م–1151م تاريخ سياسي وحصاري, دار الغرب الإسلامي,بيروت لبنان,ط1 1408ه–1988م

70.أبو زهرة محمد:ابن حزم, حياته وعصره,آراؤه و فقهه,دار الفكر العربي القاهرة **1398ه**–1978م

71.ابن زيدان: عبد الرحمان بن محمد السجلماسي عبد الرحمان بن محمد(ت1365ه–1946م): إِتْحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس, تحقيق علي عمر, مكتبة الثقافة الدينية القاهرة, ط1 1429ه–2008م

72.السيّد محمود: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين,مؤسسة شباب الجامعة,مصر1425ه–2004م

73.شكري فرحات يوسف:غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية), دار الجيل, بيروت, ط1, 1413ه-1993م

74.صلاح الدين محمد نوار:الخلافة أو الإمامة وتطورها السياسي والديني(11ه-41ه,632م-611م) دراسة تحليلية ونقدية, منشأة المعارف,الإسكندرية مصر,1416ه-1996م

75.طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد,نقله إلى العربية محمد عبد الله عنان,مطبعة الاعتماد مصر,الطبعة الأولى 1343ه-1925م

76.عاشور سعيد عبد الفتاح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, دار النهضة1390ه-1976م.

77.(ــــــــــــ): العصر المماليكي في مصر و الشام: دار النهضة العربية, القاهرة , ط2 .1390ه-1976م.

78.محمود عودة: أسس علم الاجتماع,دار النهضة العربية,بيروت لبنان

79.عابد الجابري محمد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة, معالم نظرية خلدونية في الفكر الإسلامي,مركز دراسات الوحدة العربية,ط6 1414ه-1994م

80.علاوة عمارة: دراسات تاريخية و فكرية,المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية,الجزائر1429ه-2008م

81.العبدة محمد: نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون, مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية, مصر, ط1 1430ه-2009م

82.عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام , المكتبة العباسية, دمشق , ط2, 1972م-1392ه

83.عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى. دار الفكر العربي,1419ه -1999م

84.العظمة عزيز:ابن خلدون وتاريخه, ترجمة عبد الكريم ناصيف, دار الطليعة, بيروت لبنان, الطبعة الثانية 1407ه-1987م

85.عبد الرؤوف الفقّي عصام الدين: تاريخ المغرب والأندلس, مكتبة نهضة الشرق, القاهرة مصر

86.عبدلي لخضر: التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان , ديوان المطبوعات الجامعية, وهران 1428ه-2007م

87.عنان عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس, العصر الأول القسم الأول(من الفتح إلى بداية عهد الناصر),مكتبة الخانجي القاهرة,الطبعة الرابعة 1414ه-1994م

88.عمر موسى عزّ الدّين: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم, دار الغرب الإسلامي, لبنان , ط1 1411ه-1991م

89.علي علام عبد الله: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي, صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة الإسلامية بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية2007, سحب الطباعة الشعبية للجيش,الجزائر1428ه–2007م

90.علي الحجي عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92ه–897ه/ 711م–1492م), دارالقلم دمشق, الطبعة الثانية1407ه–1987م

91.العبادي أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس, دار النهضة العربية, بيروت لبنان

92.غاستول بوتول, ابن خلدون فلسفته الاجتماعية, ترجمة عادل زعيتر, المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت,الطبعة الثانية1404ه–1984م

93.فروخ عمر: تاريخ الفكر العربي أيام ابن خلدون, دار العلم للملايين, بيروت لبنان, ط4 1403ه–1983م

94.قاسم عبد قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي و العسكري, عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية. مصر

95.قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك, دار الشروق القاهرة,الطبعة الأولى, 1414ه–1994م

96.بن قربة صالح: عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب, الموسوعة التاريخية للشباب(أعلام السياسة والحرب),المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الرغاية 1405ه–1985م

97.كنون عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي,ط2 أجزاء:1–3

98.محمد مراد: المدارس التاريخية الكبرى(دراسة نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ), مكتبة الفقيه, لبنان,ط1 , 1416ه–1996م

99.محمود صبحي أحمد: في فلسفة التاريخ, دار النهضة العربية,ط3 1414ه–1994م

100. مغربي عبد الغني: الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون, ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين,ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية, المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1408ه–1988م

101.محمد محمد الصلابي علي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين", دار البيارق, عمان

102.تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي, دار المعرفة,بيروت لبنان,ط3 1430ه–2009م

103. محمود إسماعيل: هل انتهت أسطورة ابن خلدون؟جدل ساخن بين الأكاديميين والمفكرين العرب,دار قباء القاهرة, 1420ه–2000م

104. مؤنس حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس , مكتبة الأسرة للأعمال الفكرية 1425ه–2004م

105. الميلي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث, تقديم وتصحيح محمد الميلي, المؤسسة الوطنية للكتاب
106.المغلوث سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى, مكتبة العبيكان. ط1 . 1430هـ–2009م
107. مجموعة مؤلفين: دراسة مصرية في علم الاجتماع مهداة إلى روح الأستاذ حسن الساعاتي, مركز البحوث و دراسات الاجتماعية جامعة القاهرة,القاهرة 1422هـ–2002م
108.النجار عبد المجيد : المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السوسي ت524هـ–1129م حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب,دار الغرب الإسلامي,ط1 1403هـ–1983م
109.تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت (الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري),سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير(2), المعهد العالمي للفكر الإسلامي,هيريندن فرجينيا الولايات المتحدة,ط2 1415هـ–1995م
110. النبهان محمد فاروق: الفكر الخلدوني من خلال المقدمة,مؤسسة الرسالة لبنان ,ط1 1418هـ–1998م
111. بن نبيّ مالك: شروط النهضة, ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين,دار الوعي الجزائر, ط11 1433هـ–2012م
112. نصيف ناصف: الفكر الواقعي عند ابن خلدون تفسير تحليلي و جدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه, دار الطليعة للطباع والنشر لبنان , ط1 , 1401هـ–1981م
113.الوردي علي: منطق ابن خلدون (في ضوء حضارته وشخصيته),دار كوفان, لندن,ط2 1414هـ–1994م,
114. وافي علي عبد الواحد: عبقريات ابن خلدون, شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع, المملكة العربية السعودية, ط2, 1404هـ–1984
115. المدينة الفاضلة للفرابي, نهضة مصر للطباعة و التوزيع, القاهرة
116. الوابل يوسف بن عبد الله بن يوسف: أشراط الساعة, دار ابن الجوزي
117.أعلام وأقزام في ميزان الإسلام, جمع وترتيب السيّد بن حسين العفّاني, دار ماجد عسيري ,مصر ,ط1 1424هـ–2004م

الـرسـائـل و الأطروحات:

118. بوحسون عبد القادر: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط و الأندلس خلال العهد الزياني (633ه-962ه/1235م-1554م), مذكرة ماجستير قسم التاريخ, جامعة تلمسان 2007-2008

119. بن داود نصر الدين: بيوتات العلماء بتلمسان من ق7ه/13م إلى القرن ق10ه/16م ,أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط, قسم التاريخ جامعة تلمسان, السنة الجامعية :2009-2010

120. نادية كحلوش: مصطلحات العمران في مقدمة ابن خلدون – دراسة مقارنة لترجمتي ويليام ماك دوسلان وفانسان مونتاي- مذكرة ماجستير في الترجمة, قسم الترجمة, جامعة منتوري قسنطينة , السنة الجامعية (2008-2009)م

الـمـجلات و الـدوريـات:

121. بلعربي خالد: المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني, دورية كان التاريخية, العدد الرابع, جويلية 2009م-1430ه

122. بوخالفة نور الهدى:عبد المؤمن بن علي رائد الوحدة المغاربية,سلسلة إصدارات جمعية الموحدية(تاريخ ندرومة ونواحيها), جمع وإعداد عز الدين ميدون

123. بوبة مجاني: مكانة قبيلة كومية في الدولة الموحدية, مقالة من كتاب تاريخ ندرومة ونواحيها(أعلام أقطاب وشخصيات), سلسلة إصدارات جمعية الموحدية, دار الكتاب العربي

124. حفناوي بعلي:عبد المؤمن الندرومي والنظرية الموحدية,المهدوية مشروع دولة ومجتمع..عقيدة وميثولوجيا, سلسلة إصدارات جمعية الموحدية (ندرومة مدينة عبد المؤمن,مجتمع,أنثروبولوجيا وذاكرة) , جمع وإعداد عز الدين ميدون ,ج2 1432ه-2011م

125. رياض عزيز هادي: مفهوم الدولة و نشوؤها عند ابن خلدون,مجلة العلوم القانونية والسياسية , عدد خاص بالذكرى الخمسين لتدريس السياسية في العراق عدد37, العدد الثالث, 1977م-1397ه,العراق

126. طبال لطيفة: التغير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية , في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية, جامعة سعد دحلب ,العدد: الثامن, جوان 2012م-1433ه البليدة

127. عبد الباسط عبد المعطي:اتجاهات نظرية في علم الاجتماع, سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب, الكويت,العدد 44 ,1418ه-1998م

128. عوض سليم خليفة: عبد الرحمن بن خلدون, المفترى عليه, مجلة الجامعة العربية,طرابلس ليبيا,العدد الأول السنة الثانية1428ه-2007م

129. عبادة عبد اللطيف:الفكر السياسي في ندرومة في العهدين الموحدي والزياني عند عبد المؤمن بن علي وأبي حمو موسى الزياني وإشعاعه,سلسلة إصدارات جمعية الموحدية(تاريخ ندرومة ونواحيها), جمع وإعداد عز الدين ميدون

130. فاضل لخضر: تمحيص الرواية التاريخية عند ابن خلدون والمؤرخون القدامى,في مجلة عصور الجديد مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي, العدد:7-8. (1433ه-1434)ه,(2012-2013)م- وهران

131. قلايلية العربي: التفكير العلمي عند ابن خلدون و أبعاده الحضارية, مجلة التراث العربي, تصدر عن إتحاد الكتاب العرب, العدد المزدوج 93-94,دمشق

الـنـدوات الـعـلـمـيـة:

132. مالكي أمحمد: ابن خلدون و العمران البشري, ندوة تطور العلوم الفقهية فِي عمان " الفقه الحضاري، فقه العمران". المنعقدة خلال الفترة: (18-21) ربيع الثاني 1431هـ / (3-6) إبريل2010م,وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.سلطنة عمان

133. مؤتمر عبد الرحمن بن خلدون قراءة معرفية ومنهجية, كلية الآداب –قسم علم الاجتماع جامعة عين شمس,المنعقد في 5-6 أوت سنة 1420ه-2000م

المواقع الإلكترونية:

134.بسيوني رسلان صلاح الدين: السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون, kotobarabia.com

المراجع باللغة الأجنبية:

135. Yves Lacoste : Ibn Khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde, Librairie François Maspero, Cinquième édition, Paris1980, p : 125

136.Jacques Brasseul. Le déclin du monde musulman a partir du moyen age. Revue région et développement n° 19-2004.

137.Ernest Mercier ; Histoire de L'Afrique Septentrionale (BERBERIE) Depuis Les Temps Les Plus Reculés J'jusqu'a La Conquête Francaise1830 ; Ernest Leroux Editeur ; Paris ; Tom 1.1888

138. I. Goldziher : Mohammed ibn toumert et la théologie de l'islam dans le nord de l'afrique au XIe siècle , imprimerie orientale pierre fontana, Alger ,1903

فهرس المحتويات

مقدمة..أ-ح

مدخل:ابن خلدون ومنهجه الجديد في البحث التاريخي.............09

أولا-منهج البحث في التاريخ قبل ابن خلدون..............................11

- **ثانيا- ابن خلدون ومنهجه في كتابة التاريخ**.......................................13

-ابن خلدون و علمه الجديد..13

- دوافع كتابته للمقدمة وفق علمه الجديد................................16

- التطور هو المحرّك الأساسي لنشوء الدولةعندابن خلدون.................17

- **ثالثا - نظرية ابن خلدون في نشوء الدولة**...............................19

الفصل الأول: عبد الرحمن بن خلدون المسيرة والمفاهيم

- **تمهيد**..25
- **أولا- الأوضاع السياسية في عصر ابن خلدون**...........................26
- **ثانيا-التعريف بان خلدون وتتبع خطوات رحلته**..........................38

1-أصل هذا البيت...39

- نسبه...39
- استقرار سلفه في الأندلس..39
- نزوحهم إلى افريقية...40

2- نشأته وتحصيله العلمي...40

3- بداية حياته السياسية ورحلاته......................................42

- بداية الرحلة...42
- النكبة الأولى في بلاط بني مرين.....................................43
- النكبة الثانية ورحلته إلى الأندلس.....................................44
- رحلته إلى بجاية... 45

- الالتحاق بأبي حمو موسى الثاني صاحب تلمسان......................45
- دخوله في طاعة المرينيين ومشاركاته العسكرية
والسياسية في دولتهم...46
- عبوره الثاني إلى الأندلس ثم الفيئة إلى المغرب الأوسط.............47
- استقراره بقلعة بني سلامة...48
- رجوعه لمسقط رأسه...48
- رحلة الحج واستقراره بمصر......................................49
- دور ابن خلدون في تحسين العلاقة بين بلاد المغرب ومصر..........50
- اتصاله بتيمورلانك حين حصاره لدمشق.............................51
- وفـــــاته..52
- **ثالثا – مفاهيمه الكبرى حول الدولة**..................................53

1- ماهية العمران البشري..54
- لغة...54
- إصطلاحا..55
- موضوعه...55
- مكـــــانته...56
- مســـائله...56
- غــــايته...58
- وســـيلته..58

2- أشكال العمران البشري...**59**

1-عمران بدوي: مجال بداية نشوء الدولة.................................60
- القبيلة..61
- العصبية..61
- ميدأ القوة والغلبة...62
- الملك والرئاسة...63
- تطور الدولة (إمتداد الدولة في المكان والزمان)........................64
- مفهوم الدورة العصبية والدورة الاجتماعية...........................66

2-العمران الحضري: مجال تطور الدولة.............................67

3-العلاقات بين البدو والحضـــــر.......................................69

الفصل الثاني : دور العصبية في نشأة الدولة الموحدية

- **تمهيد..72**
- **أولا: هدف العصبية المصمودية تحقيق الملك..............................73**

1- العصبة والعصبية..73

- مفهوم العصبية..73
  - لغة...73
  - اصطلاحا...74
- حال العصبية المصمودية قبل مطالبتها بالملك...........................75

2- أساس الرابطة العصبية (النسب وفي معناه)..............................77

- الإلتحام بالنسب القريب أو البعيد وفائدته في العصبية.................78
- قوة العصبية في ثمرة النسب......................................79
- ارتباط قبائل مصمودة بالنسب القريب والبعيد.........................81

3 -دوافع الصراع العصبي عند المصامدة..................................86

- القوة المحركة للعصبية..86
- الصراع على المعاش هو المحرّك الأساسي لقبيلة مصمودة.............88

4 - الملك غاية تسعى إليها العصبية المصمودية..........................90

- الصراع العصبي مطية لتحقيق الملك...................................90
- التصادم العصبي وتأسيس الملك عند المصامدة..........................92

- **ثانيا: مستويات نشوء الدولة وفق نظرية القوة والغلبة......................95**

1- المستوى الأول:تطورها باعتبارها ملوكا متعاقبين..............................95

- الطور الأول..95

- الطور الثاني...96
- الطور الثالث...96
- الطور الرابع...97
- الطور الخامس...97

2- المستوى الثاني: تطورها باعتبارها جماعة تحكم..............................99
- الجيل الأول...100
- الجيل الثاني...100
- الجيل الثالث...100

3- المستوى الثالث: نتائج العلاقة بين العصبية الحاكمة ورئيسها.............102
- طور التأسيس والبناء...102
- **ثالثا: حقيقة تطور الدولة الموحدية باعتبارها ملوكا متعاقبين..................104**
- المهدي بن تومرت نسبه في المصامدة..............................106
- بعض صفاته وخلاله التي أكسبته المجد في قومه........................108
- حال المهدي مع أهل عصبيته المساندون له في أمره....................109
- عبد المؤمن بن علي نسبه وسبب توليه على المصامدة..................111
أ: نسبه...111
ب: سبب توليه على المصامدة.................................112
- مؤهلات عبد المؤمن التي مكنته في عصبيته الجديدة....................114
- حال عبد المؤمن بن علي مع الموحدين (عصبيته الجديدة)...............115

أ- **المرحلة الأولى:.خفض الجناح وبسط نفوذ لدولة**..............................115
ب- **المرحلة الثانية: تغيير نظام الحكم آلياته ونتائجه**................................118
- تحالفه مع العرب...121
- استدعاء كومية للاستظهار بها.................................122
- بداية التأسيس لنظام الدولة على حساب القبيلة..........................122
- مظاهر المشاركة بعد التمكين.................................123

- **رابعا: مظاهرالعلاقة بين عصبية مصمودة والعصبيات الأخرى................125**

العصبية المصمودية..125

العلاقة بين الحاكم وعصبيته..126

العلاقة بين مصمودة والقبائل التابعة للحكم......................................128

العامل الاقتصادي وارتباطه بسياسة الدولة.......................................130

الفصل الثالث : دعــوة المهــدي بن تومــرت أساس للدولة قبل عصبيتها

تمهيد...133

أولا : الدعوة الدينية أساس نشوء الدولة الموحدية...........................134

3- أصناف البدو ومكانة المصامدة فيهم...135

- أصنافهم...135
- قبيل مصامدة جبل درن قبل تأسيس الدولة.................................136

4- دعوة المهدي وعصبية المصامدة توافق وتوقّف لحصول الملك.................138

- تكامل الدّين بالعصبية لتحقيق الملك...138
- الإستثناء في النظرية(بدوٌ لا يحصل لهم ملك إلاّ بالدّين)....................140
- دعوة المهدي وأثرها على مصامدة جبل درن.................................142

ثانيا:أسس وخطوات التغيير في دعوة المهدي بن تومرت.......................148

- الأساس الأوّل: تقييم الواقع...149
- الأساس الثاني: تحديد البديل...151

1– تجديد العقيـــــــدة...151

- نظرته للتوحيد..151
- علامة المهديّ(الإمامة والعصمة)..152
- الرجوع إلى الأصلين(القرآن والسنّة) ونبذ الفروع.............................153

طريقته في ذلك..154

2- التغيير السياسي والاجتماعي..................................154

- التأسيس لحكم شوري...155

- العدل و المساواة..155

- التآخي و التناصر...156

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..............................156

- تقشفه وأمره أصحابه بذلك.....................................157

خاتمة..159

ملاحق...163

مصادر ومراجع...171

فهرس المحتويات..183